

صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي

صلاح الدين حافظ



سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت





سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت

صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي

الاستاذ/صلاح الدين حافظ

٤٩ ـ ربيع الأول
ربيع الآخر ١٤٠٢ هـ ـ يناير (كانون الثاني) ١٩٨٢م

المراسلات :
توجه باسم السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب ٢٣٩٩٦ الكويت

صراع القوى العظمى
حول
القرن الإفريقي

المقـدمة

عـنـدمـا نـتـحـدث الـيـوم عن العنف السائد في منطقتنا فعلينا أن نحاول الوصول الى أعماقه وجذوره، رغبة في استجلاء الحقيقة ووضعها أمـام الـضمير العربى الافريقى المعذب بالتخلف والممزق بالقهر والمثقل بآلام الأزمـات. نـعم فالجذور عميقة ضاربة في أرض الصراع.. جذور تـعود إلى العصور الاستعمارية الاوربية القديمة، بكل ماخلفته من عقد وصـراعـات محـلـيـة وقـبـلـيـة، وماغرسته من قيم متناقضة ومن عداوات وحـزازات نـازفـة.. حـتى جاء الاستعمار الجديد ـــ بوجهيه الاقتصادي والـثـقـافي ـــ و بـأسـلـحـتـه ومـعـداته الحديثة ليعمق كل هذه المخلفات و ينميها لتتزايد ثرواته و يتسع نفوذه يوما بعد يوم...

ولـقـد انـفجرت في هذه المنطقة الملتهبة عدة ثورات وفورات شعبية ضـد الاسـتـغلال والاحتكار الذي مارسه الاستعمار القديم والجديد على الـسـواء، وتحركت فيها متغيرات سياسية واجتماعية وضغوط اقتصادية، محاولة الـتـخـلـص مـن الازمات التي طحنت شعوباً تملك أغزر وأغنى ثـروات المـواد الخـام ومـصـادر الـطـاقـة ونـقـاط الـتـحـكـم ذات الاهمية الجيوبولتيكية في العالم كله . (*)

وكـان طـبـيـعـيـا أن تـلـجـأ هـذه الـشعوب للسوفيت طلباً للمساندة الـسـيـاسية والمساعدة الاقتصادية والعسكرية، بصفتهم الأعداء التاريخيين

(*) سوف تتكرر كثيرا في هذه الدراسة كلمة «جيوبولتيكس» ومن خلال تعريفات عدة في قواميس ومراجع مختلفة، اخترنا تعريفين هما:

للاستعمار الأوربي الأمريكي من ناحية، وباعتبارهم قد «تطهروا» في ظل العقيدة الماركسية اللينينية من التراث الاستعماري والأطماع الخارجية، تلك التي ولدت العداء بين شعوب العالم الثالث ودول الغرب بشكل عام!!

ولقد لعب السوفيت دوراً أساسياً في تحريك عوامل الصراع في المنطقة، بهدف طرد النفوذ الأوربي الأمريكي أساسا منها، وتنفيذاً للمصالح القومية العليا للاتحاد السوفيتي كدولة عظمى لها استراتيجيتها المتنافسة مع القوة العظمى الأمريكية. وفي ظل تطور هذه المنافسة

---

١ ـــ التعريف الوارد في A-dictionary of Political Analysis - Geoffry . K . Roberts

الجيوبولتيكس: هي دراسة تأثير البيئة الجغرافية خاصة من النواحي الطبيعية والعرقية والديموجرافية والاقتصادية، على سياسات الدول وخاصة على السياسات الخارجية وما ينتج عنها من صراعات.

٢ ـــ التعريف الوارد في الموسوعة العربية الميسرة وهو: علم تطبق فيه الاصول الجغرافية على السياسة العالمية، ويعرفه البعض بأنه العلم الذي يفسر تطور الامم عن طريق بيان الأسباب التي تكسب بعض الأمم القوة، وتؤدي ببعضها الآخر الى الذبول والضعف.. ويعتبر هاوز هوفر أهم باحث في هذا العلم ـــ وكان متأثرا بنظريات سير هالفورد جون ساكيندر التي مؤداها: «ان الذي يسيطر على أوربا الشرقية يسيطر على قلب العالم، ومن يسيطر على جزيرة العالم يسيطر على العالم أجمع «وكان هاوزهوفر مستشارا لهتلر، ولذلك عدلت مبادىء الجيوبوليتكس لكي تلائم مطالبالقومية الألمانية، إذ نادى بوجوب إعطاء الشعوب النامية مجالا حيويا، وبخاصة المانيا على حساب بريطانيا وروسيا. فقد ميز بين الامم الساكنة مثل تلك التي بلغت حدا كبيرا من الازدياد والاتساع، وبين الأمم المتحركة «الديناميه» مثل البلاد السريعة التوسع في عدد السكان والتي تحتاج الى المزيد من المجال الحيوي. والأمم الحركية أمم حية نامية بينما الأمم الساكنة أمم بسبيلها الى الانحلال والموت.

الدولية دخل السوفيت مع الامريكيين في صراع عمالقة يدور الآن حول السيطرة على مصادر الطاقة والمواد الخام والمواقع الاستراتيجية ومعابر المرور ومضايقها العالمية.

وفي ظل هذا الصراع ايضا تعمقت جذور العنف وامتدت مابين افريقيا وآسيا، وتركزت في حلقة الوصل بين القارتين، وأعنى الشرق الاوسط وتخومه الممتدة شرقا وجنوبا وغربا، الذي مازال يغلى بأسباب الصدام العربي الاسرائيلي الطاحن.

وإذا كنا قد بدأنا هذه الدراسة ببحث أسباب العلاقات التاريخية الوثيقة بين العرب والأفارقة منذ فجر التاريخ، فقد أنهيناها بمحاولة إيضاح التأثير الاستراتيجي المتبادل بين المنطقة العربية والقارة الافريقية، في صراع العمالقة الدائر اليوم، وهو التأثير البالغ الأثر خاصة إذا مادرسنا العلاقة الاستراتيجية التي تربط مثلا بين البحر الأحمر الذي يشق الوطن العربي ــ مثل اخدود ــ الى جزأين أحدهما أسيوى والاخر إفريقى، وبين القرن الافريقي الذي تلاحم فيه العرب والافارقة منذ القدم، مثلما ترابطت فيه المصالح والاهداف الحيوية المشتركة في العصور الحديثة.

ليس غريبا إذن أن نتحدث في هذه الدراسة عن العلاقات البالغة القدم بين العرب والأفارقة، منذ الهجرات العربية الأولى التي قفزت الى القارة السوداء عن طريق البر وأمواج البحر على السواء، وعن الهجرات السوداء التي عبرت الطريق المضاد، وعن الامتزاج البشرى والحضارى الذي تم بين الساميين والحاميين خلال قرون طويلة،وليس غريبا ان نتحدث عن دور العمانيين واليمنيين والحضارمة في دق أبواب القرن الافريقي، وعن دور البوابة المصرية ــ همزة الوصل الكبرى في

ربط العرب «بالزنج» أو المشرق العربي بالقارة الافريقية منذ قرون سحيقة، تعود الى ابراهيم أبي الأنبياء، والفراعنة والغساسنة والأنباط والسومريين والفينيقيين.

وليس غريبا بعد ذلك أن نتحدث عن دور الازهر وكنيسة الاسكندرية في تحقيق درجات أسمى من الترابط والتمازج بين العرب والافارقة، كما انه ليس غريبا أن نتحدث عن عصور القهر المشترك الذي عانى منه العرب والأفارقة على يد الاستعمار الأوربي القديم، أو ذلك السلب والنهب الذي تتعرض له ثروات العرب والافارقة اليوم على يد احتكارات الاستعمار الجديد، او ذلك التمزق الرهيب الذي يعاني منه العرب والافارقة من جراء الاستقطاب الدولي في ظل صراع القوى العظمى المسيطرة على رقعة الشطرنج في عالمنا المعاصر.

لقد دخلت منطقتنا موضع الدراسة ــ التي تمتد من المداخل الشمالية للبحر الاحمر حتى النتوء الجنوبي للقرن الافريقي ومن شمال غرب افريقيا الى الخليج العربي ــ ضمن الصراع الواسع المدى بين القوتين العظميين ــ الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي ــ ذلك الصراع الدائر اليوم للسيطرة على مناطق النفوذ اقتصاديا وسياسيا وفكريا وعقائديا وعسكريا، فلم تعد ساحة المواجهة بين هاتين القوتين قاصرة على اوروبا ــ مثلما كانت الحال فيما بعد الحرب العالمية الثانية ــ بل انه انتقل بعد هدوء الحرب الباردة من اوروبا الى ساحات جديدة على خريطة العالم، فاحتل الشرق الاوسط وافريقيا مقدمتها الملتهبة..

وإذا كانت القوتان العظميان قد اتفقتا على تهدئة المواجهة بينهما في أوروبا فقد كانت ثروات المواد الخام ومصادر الطاقة والمعابر الهامة والمراكز الاستراتيجية هي التي جذبت صراعهما الى الشرق الاوسط

وافريقيا.. فشهدت المنطقتان ــ وإن كنا نعتبرهما منطقة متكاملة فى دراستنا هذه ــ خلال العقد الاخير أعنف مراحل هذا الصراع الذي تمثل في التدخلات المباشرة وغير المباشرة، مثلما تمثل في الغزو العسكري والسياسي والاقتصادي والثقافي، كما شهدت أقسى «تجارب الحروب المحدودة» منذ انتهاء عملية فيتنام في الهند الصينية التي كانت تسحب بساط الأفضلية أحيانا.

وإذا كانت آثار الانسحاب الأمريكي المهزوم من فيتنام قد تركت جروحا غائرة في الضمير والفكر والسلوك الأمريكي، قلصت إلى حد كبير من التدخل العسكري، أو التورط المباشر لأمريكا في مناطق كثيرة، فإن الاستراتيجية السوفيتية كانت على العكس من ذلك... إذ أنها تميزت بسرعة التلبية وخفة الحركة ومداومة النشاط لمساندة اصدقائها والتدخل الى جانبهم من كوبا غربا الى فيتنام شرقا مرورا بأثيوبيا وأفغانستان في الوسط بالطبع.

ونتيجة لذلك سجل السوفيت نقاط تقدم كثيرة على خريطة الصراع الدولي خلال العقد الأخير، في مواجهة التردد والحذر وبطء الحركة والتراجع الأمريكي.

إلا أنه عندما اقترب الخطر السوفيتي من مركز عصب الاستراتيجية الامريكية ــ وأعني حقول البترول الهائلة في الجزيرة العربية والخليج العربي وايران ــ بدأت هذه الاستراتيجية تكشر عن انيابها وتستعيد نشاطها المضاد في محاولة لوقف التقدم السوفيتي الخطر. وبدأت امريكا تعيد ترتيب خططها في المنطقة.. ابتداء من محاولة تدعيم وجودها العسكري المباشر، الى تأمين النظم الحاكمة الصديقة لها، الى بناء قوة عسكرية جديدة تتميز بالسرعة وخفة الحركة والقدرة على القتال المباشر للتدخل وحماية «المصالح» الامريكية في مناطق امبراطورية البترول

وصولا إلى تهيئة المسرح السياسي في الشرق الاوسط ونقل مركز الصراع وبؤرة التوتر من الشمال الى الجنوب،ونعني بذلك تهدئة الصراع العربى الاسرائيلي الذي يشد الكثير من الانتباه الأمريكي، ويستنزف الكثير من الحرص والجهد الأمريكي أيضا، لتركيز الانتباه والجهد والحرص حول حقول النفط في الجزيرة والخليج العربي وايران، حيث يتوقع الجميع حدوث «مواجهة ما» محتملة بين الأمريكيين والاوربيين الذين يعضون بالنواجذ على مصادر البترول هذه وعلى طرق مروره، وبين السوفييت الذين يقتربون رويدا رويدا من هذه المصادر ويضيقون الخناق على معابر تدفقه الى الغرب الاوربي الامريكي بوجه خاص.

وفي هذا الإطار فإن كلا من القوتين العظميين تعمل على «التواجد» بشكل من الأشكال بقرب مصادر الطاقة هذه، سواء لحماية مصالحها المباشرة أو لتهديد مصالح القوة الأخرى المنافسة.

كلاهما يبني لنفسه مراكز وثوب وقواعد عسكرية وسياسية وعقائدية.. كلاهما يدفع بأساطيله إلى المياه المحيطة عبر البحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي، ومن مضايق باب المندب وموزمبيق غربا الى مضايق ملقا شرقا.

ومن ثم يصبح الوصول الى مرحلة الصدام المباشر احتمالا قائما إذا ماتهددت المصالح الاستراتيجية المباشرة لأي منهما.. لكن هناك إحتمالا آخر وهو استمرار حالة المواجهة بلا مصادمة... حالة مبارزة على البعد.. إن جاز التعبير، يلعب فيها شبح الردع العسكري المباشر دوره، وإن كان «الردع السيكلوجي» هو الذي يلعب الدور الأقوى والأكبر تأثيرا وتخويفا ، ذلك الردع السيكلوجي القائم على وجود القوى العسكرية المتزايدة والنفوذ السياسي العميق والسيطرة الاقتصادية الفعالة والتغلغل الأيديولوجي النشط.

في هذا النطاق ـ يجب أن نلقى نظرة شاملة عميقة على حركة الصراع الدولي والاقليمي حولنا من منظور واضح المعالم ينقسم الى قسمين:

(١) الصراع العربي الاسرائيلي الذي مازال يشكل عامل التوتر الاساسي في المنطقة، بدءاً من سواحل البحر الأبيض المتوسط شمالا، إلى نتوء القرن الافريقي جنوبا، عابرا البحر الأحمر ومطلا على حقول النفط... هذا الصراع التاريخي المعقد الذي ترك جروحا نازفة تحتاج إلى جهود وأزمان طويلة لكي تندمل.

(٢) الصراع المحتدم الآن بين القوى العظمى على مصادر وحقول البترول العربي والإيراني وعلى التحكم في مراكز نقله وطرق عبوره، بما فيها الممرات والمضايق الاستراتيجية الحاكمة والمتحكمة.. وهو الصراع الذي يعدله المسرح الدولي الآن، ليطغى على ما سواه.

ومن غير أن ندرس جذور حركة الصراعات الدائرة، ونتعمق في اسبابها، ونبحث في علاقة الربط بينها، فإننا لن نستطيع إلقاء مثل تلك النظرة الشاملة العميقة على خريطة الموقف بكل ملابساته الحالية واحتمالاته القادمة..

ولقد حاولنا أن نسبح بين تيارات الصراع المتلاطمة، من شواطيء البحر الابيض المتوسط شمالا، إلى القرن الافريقي على المحيط الهندي جنوبا.. واجتهدنا أن نلقى بتلك النظرة المتأنية على خريطة الصراع حولنا...

وحسبنا المحاولة في حد ذاتها....

صلاح الدين حافظ

القاهرة



الفصل الاول

العرب واوروبا.. في افريقيا عبر التاريخ

١ ـ من التجارة الى التزاوج ... منذ ابراهيم عليه السلام .

٢ ـ طريق البر وطريق البحر .. بين الفرعونية والعروبة .

٣ ـ المحاولة الاولى للدوران حول افريقيا .

٤ ـ جسور اللغة والدين ... بين الأفارقة والعرب .

٥ ـ الاستعمار الاوروبي ... يمزق ويقسم .

٦ ـ الانسحاب المصري ... امام الهجوم الاوروبي الحبشي .

١ ـ من التجارة الى التزاوج

منذ ابراهيم عليه السلام:

من الثابت تاريخيا أن (العرب) ـ وهم مجموعة القبائل التي انصهرت في امة وكانت تسكن الجزيرة العربية ـ قوم لهم جذور تاريخية قديمة في مناطق تواجدهم الأصلية، وقد عرفهم جيرانهم وعرفواهم جيرانهم من خلال الهجرات وقوافل التجارة، وعرفت لغتهم بلهجات متباينة، لكنها ظلت اللغة المؤثرة الخالدة التي نزل بها القرآن الكريم هدى للناس كافة.

ومنذ عصور ماقبل الاسلام، والعرب يعرفون طريقهم الى افريقيا من أجل التجارة أساسا، بينما جذبت الارض الافريقية كثيرا من الهجرات العربية لتستقر هناك وتتزاوج مع العنصر الزنجي. ولعل أبرز ماكتب عن التواجد والتزاوج العربي الافريقي قديما هو كتاب «الكشاف البحري» لمؤلف ورحالة اغريقي مجهول، كتبه في القرن الأول الميلادي مؤرخا لهذه الحالة الفريدة من العلاقات القديمة بين العرب والأفارقة، خاصة في شرق افريقيا رغم مايفصلهم من مياه البحر الأحمر وخليج عدن والمحيط الهندي. وأرخ كذلك «لهمة» العرب في الساحل الشرقي لأفريقيا، فقد رصد سفنهم الراسية على هذا الساحل، ولقوافلهم التجارية المستمرة والمنتظمة التي تجيء لسكان الساحل الافارقة بالتجارة، وتحمل من بلادها الصحراوية الاسلحة اليدوية، خاصة الرماح والسيوف والخناجر، وتعود محملة بأثمن مافي المنطقة خاصة العاج والجلود النادرة والاخشاب.

على ان المؤرخ الاغريقي رصد ظاهرة انثروبولوجية اكثر اهمية في ذلك الوقت المبكر من التاريخ المدون، وهي ظاهرة التزاوج العربي

الافريقي والاختلاط والامتزاج العرقي بينهما، فقد ألمح الى قدرة العرب على التكيف مع البيئة الافريقية المخالفة تماما لطبيعة بيئتهم الصحراوية،والى اختلاطهم.. بالافريقيين وتزاوجهم واختلاط انسابهم ودمائهم، وبالتالي بروز إنسان عربي — افريقي ممتزج مترابط منذ فجر التاريخ، وجد أرضا خصبة في الساحل الشرقي لافريقيا المواجه للجزيرة العربية، فاستقر هناك وتكيف وانتقل من مرحلة الرعي والبداوة الى مرحلة الرعي والزراعة.. فقد هاجر — ضمن دوافع اخرى كثيرة — خلف الماء والخصب وترك بيئته الصحراوية التي كثيرا ماكانت تعاني الجفاف والجدب والقحط الشديد،الامر الذي دفع القبائل والبطون العربية المنتشرة في الجزيرة الى التلفت هنا وهناك بحثا عن مصادر المياه العذبة وعن المراعي الخصبة.. ورغم البحر فقد عبرت هذه القبائل الى الساحل المقابل.. الى افريقيا.. عبرته من خلال عدة طرق ومسالك أشهرها العبور المائي الى ساحل افريقيا الشرقي والعبور الارضي عن طريق صحراء سيناء.. من فلسطين والجزيرة الى مصر وليبيا، وجنوبا الى السودان وشرق افريقيا أو غربها على السواء.

وتشير الكتب السماوية والكتب التاريخية على السواء الى شواهد كثيرة تثبت انسياب الهجرات العربية ذات الاصل السامي من الجزيرة وفلسطين ومابين النهرين الى شمال شرق افريقيا، اي الى مصر والى شرق افريقيا نفسها (١).

فسفر التكوين في اصحاحه الثاني عشر يتحدث طويلا عن هجرة ابراهيم عليه السلام الى ارض مصر (٢) قادما من فلسطين، التي

---

(١) السامية نسبة الى سام وهو ابن نوح عليه السلام.

(٢) يرجح بعض المؤرخين ان ابراهيم عليه السلام هبط ارض مصر في القرن العشرين قبل الميلاد خلال حكم الاسرة الثانية عشرة الفرعونية.

اصابها الجدب والقحط الشديدان، فعمت المجاعة، إذ يقول الاصحاح: (حدث جوع في الارض، فانحدر ابرام (ابراهيم) الى ارض مصر ليغترب هناك، لان الجوع في الارض كان شديدا،...) والثابت ان جد الانبياء ابراهيم عليه السلام جاء الى مصر — وهو اول الانبياء الذين هبطوا ارضها — عبر صحراء سيناء المتصلة ... جغرافيا بفلسطين.

وكانت قوافل العرب التجارية هي التي هدته وصحبته عبر هذا الطريق الى افريقيا.. وهو الطريق نفسه الذي ظل الى الآن أرض الاتصال الثابتة بين افريقيا وآسيا.. أو بين العرب في الشرق وبين المصريين والافارقة بشكل عام في الغرب، تماما مثلما كانت مياه البحر في الجنوب هي طريق الاتصال الثاني بين عرب الجزيرة والافارقة بالساحل الشرقي.

ويؤكد سفر الكوين مرة اخرى استمرار الهجرات من الجزيرة العربية وفلسطين الى شمال شرق افريقيا والى مصر، بسبب القحط الذي تعرضت له هذه المناطق بفعل الجفاف، وهي الهجرات التي ضمت «اليهود» في مقدمهم الى مصر، كما ضمت الغساسنة الذين اتجهوا من الجزيرة العربية شمالا الى شرق الاردن و «اللخميين» الذي خرجوا بدورهم شرقا الى مياه الفرات العذبة في العراق.

وفي صدد اليهود وهجراتهم المختلفة يجدر ذكر حقيقتين:

الاولى: انه من الثابت ان حضارة مايطلق عليه الشرق الأدنى — الذي يضم الجزيرة العربية وفلسطين وماحولها في التاريخ القديم — قد ارتبطت منذ العصور التاريخية السحيقة بحضارة وادي الرافدين القديمة، باعتبارها كلها وحدة تاريخية وجغرافية

متداخلة المنابت والأصول والتكوينات البشرية والأرضية.

الثانية: انه من الثابت تاريخيا كذلك، ان السكان الاصليين القدماء لفلسطين كانوا من اصول وبطون عربية .. هاجرت سلالاتهم من الجزيرة العربية عبر التاريخ لتستقر في تلك الارض... وقد عاشت هذه الهجرات العربية الضاربة في اعماق التاريخ على ارض فلسطين او ارض كنعان كما كانت تسمى قديما، وذلك قبل ظهور اليهود، وقبل ظهور موسى عليه السلام بنحو ألفي عام... وعندما جاء موسى وقومه تحدثوا بلغة أهل كنعان وأخذوا ملامح حضارتهم وثقافتهم العربية الأصل.

ولقد كان هناك فارق اساسي بين عصر وتاريخ جد الانبياء ابراهيم عليه السلام ــ وهو عربي ــ وبين عصر وتاريخ موسى عليه السلام ... كما ان هناك فارقا هاما آخر بين عصر موسى وعصور اليهود فيما بعد، اي بين توراة موسى التي نزلت عليه في القرن الثالث عشر قبل الميلاد وبين التوراة التي ألفها اليهود في الأسر بعد حوالي ٨٠٠ عام من عهد موسى و١٥٠٠ عام من ابراهيم عليهما السلام.

وفي هذا الصدد يؤكد بعض المؤرخين ان اليهود بعد موسى نجحوا في اقتباس ثقافتهم وحضارتهم وحتى لغتهم من آثار الحضارتين «الآرامية والكنعانية» وكلتاهما عربية أقدم من مجرد ظهور اللغة العبرية نفسها.

ونعود للهجرات العربية القديمة الى افريقيا عامة ومصر بشكل خاص فيؤكد الدكتور احمد سوسة في كتابه التاريخي الهام «العرب

واليهود في التاريخ» (٣) ان علماء الآثار أثبتوا أن الهجرات من جزيرة العرب لم تقتصر على سوريا وفلسطين والعراق، بل تعدتها الى مصر حيث يعتقد بان جماعات نزحت من الجزيرة الى وادي النيل، ومنه الى شرق وغرب ووسط افريقيا، حيث استقرت فيه في حدود الالف الرابعة قبل الميلاد... وجاءت هذه الجماعات المهاجرة عبر برزخ السويس شمالا او عن طريق جنوب الجزيرة عبر مضيق باب المندب، وحملت معها حضارتها القديمة لتتزاوج في ارض المهجر بالحضارات القائمة، كما ادخلت معها صناعات المعادن وخاصة النحاسية، وجاءت كذلك بالديانات الوثنية العربية وفنونها ونظمها الاجتماعية والسياسية (٤) كما ان هؤلاء العرب الساميين نشروا في مصر لغتهم كما هو ظاهر من بعض النقوش المصرية القديمة.

ويذهب بعض المؤرخين الى القول بأن عدة هجرات هامة من الساميين قد توجهت الى مصر في حدود الالف الرابعة ق. م واحتلطت بالسكان الاصليين ــ وكانوا من العنصر «الحامي» ــ وتزاوجوا معا فنتج من هذا التزاوج البشري السامي والحامي الشعب المصري كما عرفه التاريخ (٥)

وهنا يضيف المؤرخ «ل. كينج» أن الساميين نزحوا من الجزيرة غربا الى مصر منذ عهود قديمة جدا وان العصر الحديدي بدأ في مصر بدخول هؤلاء الساميين اليها. أي أن المصريين قبل دخول الساميين لم يكونوا يعرفون الآلات الحديدية التي جاء بها الساميون، ولعلهم حملوا

---

(٣) العرب واليهود في التاريخ تأليف الدكتور أحمد سوسة ــ سلسلة الكتب الحديثة ــ دار العربي للاعلان والنشر والطباعة ــ دمشق ــ الطبعة الثانية ١٩٧٢.

(٤) تاريخ الجنس العربي تأليف الدكتور محمد عزة دروزة ــ الجزء الثاني.

(٥) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة تأليف طه باقر.

اليهم الحدادة، نقلا عن الحضارة «السومرية» في وادي الفرات المجاورة لهم، ويضيف كذلك أن أقدم آلهة المصريين القدماء «فتاح» كان سامي الاصل(٦).

ويذهب مؤرخ آخر هو (ماسبرو) الى القول بأن لعروق المصريين القدماء والعرب والفينيقيين والكنعانيين روابط تشد بعضها مع بعض وليس المصريون سوى ساميين أصلا انفصلوا عن مهد الساميين قبل غيرهم بعصور.

والرأي الأكثر رجاحة أن الهجرات السامية الخارجة من جزيرة العرب قد بدأت نزوحها الى افريقيا ومصر أساسا في عهود قديمة،حيث استقر بعضها في شبه جزيرة سيناء ـــ همزة الوصل بين ارض افريقيا وارض آسيا ـــ وكان المصريون يسمون هؤلاء بالرعاة الأسيويين (منيوساتي) ومن أصول هذه القبائل جاءت فيما بعد القبائل التي اسماها الاغريق (الهكسوس) أي ملوك الرعاة الذين كان حكمهم اقطاعيا بحتا فرضوه على سوريا وفلسطين في القرنين الثامن عشر والسابع عشر ق.م، كما فرضوه على مصر عندما استغلوا الصراع بين حكام مصر العليا ومصر السفلى فغزوا الاخيرة وحكموا الدلتا في الفترة مابين ١٧٨٥ ـــ ١٥٨٠ ق.م حيث تم طردهم من مصر على يد أحمس.

وبينما كان المصريون يطلقون عليهم اسم (شاسو) اى البدو، اسماهم عرب الجزيرة بالعمالقة او العرب البائدة (٧)

ومما يدل على أن هجرة العرب الساميين من مواطنهم الاصلية

---

(٦) L. W. King, EGYPT and Western Asia - London 1907

(٧) العرب واليهود في التاريخ ـــ د. أحمد سوسه.

بـالجزيـرة الـعـربـية الى وادي النيل ترجع الى زمن قديم ان المصريين سجلوا في نـقـوشـهـم ببنى حسن (٨) لوحة ملونة لاسرة سامية عربية يـرجـع انـهـا من فـلـسطين او الجزيرة العربية خلال رحلة هجرتها الى وادي الـنـيـل. و يـظـهـر الـنـقش مصريين يتقدمان موكب هذه القبيلة لـيـقـدماها الى حاكم مصر.. وجاء في الكتابة الهيروغليفية التي يحملها أحـد الـمـصـريين بـيـده مـايشير الى ان هذه الجماعة من «سكان الرمال وتـضـم ٣٦ شـخـصـا تحت رئـاسـة «ابيشاي» وحملت معها «الكحل» للملكة زوجة فرعون مصر إعرابا عن الود.

هـكـذا تـذهـب الوثائق التاريخية الى بعيد في الربط الوثيق والقديم بين الهجرات العربية الى الساحل الافريقي، خاصة في شماله الشرقي عـنـد مصر و بين الامـتـزاج والارتـبـاط بين الـوافـديـن الجـدد والـسكان الاصـلـيين، حـيـث لـعـبـت الاحوال الجوية والمناخية دورا اساسيا في تحريك موجات الهجرة، بالاضافة الى تأثير العوامل السياسية والدينية.

فـفـي الفترات الغنية بالامطار في شمال شبه جزيرة العرب، تستقر الاحوال وتـنـتـظـم الـتـجـارة مع مصر، أما في فترات الجفاف، حيث تـضـطـرب الأحوال و يكثر قطاع الطرق، فتصبح التجارة مستحيلة معها. وفي كثير من الاحوال ارتبط الجفاف باغراء البدو بغزو مصر وخاصة من شمالها، وكرد فعل لهذا الغزو يتمركز الحكام الوطنيون في الجنوب حول «طـيـبـة». و بـحـكـم مـوقـعـهـا الجغرافي تشتد علاقتها بالمدخل الجنوبي للـبـحـر الاحمر سواء في جنوب شبه جزيرة العرب أو على الجانب المقابل — الـغـربـي — من الـصـومـال، كذلك كان لقوة «طيبة» في فترات ضـعـف مصر شـمـالا أثره في زيادة الطلب على البخور اللازم للطقوس

(٨) بنى حسن قرية مصرية تقع على الجانب الشرقي للنيل امام مدينة المنيا عاصمة الصعيد الاوسط. أشهر آثارها: القرية الرياضية الفرعونية.

الدينية ... وهكذا كلما اشتد الخطر في الشمال ازدادت العلاقات مع الجنوب ... ويبدو ان ازمة المناخ التي شهدتها شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام قد بلغت ذروتها في القرن السادس ق.م.

على ان هذا لا يعني ان التوسع العربي في العصور الاولى للاسلام يرجع الى الجفاف، فان الانتشار هنا يختلف عن انتشار الكنعانيين والاراميين وغيرهما من الاصول السامية... ووجه الاختلاف ان الاسلام حملته موجات كثيرة من الهجرات التي خرجت من الجزيرة العربية الى مناطق الفتوح الجديدة تنشر الرسالة السماوية.. ثم تعددت الهجرات فيما بعد بسبب ضغوط الخلافات السياسية داخل الدولة الإسلامية خاصة بين الخلافتين الاموية والعباسية. (٩)

٢ ــ طريق البر .. وطريق البحر بين الفرعونية والعروبة:

ومن خلال كل ذلك يمكن القول إن الاتصال العربي الافريقي الذي تم منذ القدم قد جرى من خلال طريقين أساسيين: طريق البر عبر سيناء الى مصر في شمال شرق القارة الافريقية، وطريق البحر في شرق القارة الى المنطقة التي اصبحت تعرف بالقرن الافريقي والتي تضم أساسا الصومال وارتريا واثيوبيا.

وقد اكتشفت الهجرات العربية القديمة ان اسهل طرق سيناء الى مصر هو ذلك الطريق الموازي لساحل البحر الابيض المتوسط في شمال سيناء، وهو ساحل رملي مليء بالكثبان وغني بالامطار وخال من الجبال الوعرة التي تنتشر مثلا في جنوب سيناء فيما بين خليجي

(٩) العلاقات العربية الافريقية ــ دراسة صادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ــ راجع بحث الدكتور محمد عبدالغني سعودي ــ القاهرة ١٩٧٨.

السويس والعقبة .. وجريا وراء الماء وسهولة الطريق كان من الطبيعي ان تسلك الهجرات العربية وقوافل التجارة طريق الساحل الشمالي تجنبا لوعورة الطرق الأخرى عبر وسط سيناء أو جنوبها.

وفي نفس الوقت لم يكن البحر الاحمر ــ الفاصل بين الشاطىء الغربي للجزيرة العربية والشاطىء الشرقي لافريقيا ــ يمثل عقبة أمام الاتصال الواقعي بين العرب والافارقة، فعبوره في كل جزء من أجزائه لم يكن في يوم من الأيام أمرا صعبا. وكانت بلاد اليمن ومايليها الى الجنوب والشمال مصدرا لهجرات عديدة، اثرت تأثيرا بالغا في الهضبة الحبشية واعالي النيل الازرق والعطبرة وارتريا وسواحل السودان الشرقية. وكانت المؤثرات السامية تتدفق من الجزء الجنوبي لجزيرة العرب اكثر من تدفقها من وسطه، وذلك لوفرة سكان اليمن من جهة، ولبراعتهم في الملاحة من جهة ثانية. (١٠)

ولكن ليس معنى هذا ان اقليم الحجاز لم يتصل اتصالا مباشرا بالجانب الافريقي المقابل، فان هذا الاتصال قد حدث وعظم بعد ظهور الاسلام ثم زادت هذه الاهمية في عصور الحروب الصليبية حينما كانت الجهات الشمالية ــ خاصة فلسطين ومصر ــ مهددة بالغزو.

ومن المعروف تاريخيا ان عرب اليمن قد هاجروا الى هضبة الحبشة ــ وماجاورها ــ ونشروا فيها الثقافة العربية في وقت يرجع الى عهد بعيد(١١). وفي الحق لقد كانت نقطة الانطلاق في تاريخ اثيوبيا تتصل اتصالا وثيقا بجنوب الجزيرة العربية، اذ تدفق الساميون من هناك، غزاة احيانا وتجارا احيانا اخرى،على جبال اثيوبيا المنيعة

---

(١٠) المصدر السابق.

(١١) نفس المصدر السابق.

وسهولها الواسعة، وطوروا مع الوقت الحضارة الاثيوبية، فاضافوا إليها من حضارتهم سمات كثيرة، وأقدم آثارهم المخطوطة نحتا ترجع الى القرن الرابع ق.م.

واذا كان هذا التأثير العربي قد وصل حدود السودان كما نعرفه الان فهل وقف هذا التأثير عند تلك الحدود؟؟ وهل كان مقصورا على القبائل اليمنية؟؟؟

من الصعب تصور ان هذا التأثير لم يتناول غير الحبشة .. وأن اليمن وحدها هي التي كانت مصدرا لتلك الهجرات .. إن سكان الحجاز في اوائل عهد الاسلام كانوا يعرفون الحبشة تمام المعرفة، ومن ثم كانت الهجرة الاسلامية الاولى اليها، عندما خرج اليها «جعفر بن أبي طالب» وصحبه هروبا بالاسلام من بطش قريش في بداية الدعوة المحمدية، وقبل هجرة الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام الى المدينة. ثم ان غير قليل من الممالك التي انتشرت حول بحيرة تشاد غرب السودان مثل (كانم وبرنو) ينتسب رجالها الى «سيف بن ذي يزن» ومن الصعب ان نجد سببا يدعو الى الحكم ببطلان هذا الزعم، وأن هجرة يمنية لم تؤثر على الاقل في الطبقات الحاكمة في تلك الاقطار، قبل ظهور الاسلام بكثير. (١٢)

بل إن الذي يزيد الاقتناع العلمي بدخول الموجات العربية الى اكثر من مكان في افريقيا شمالا وشرقا هو ملاحقة حركة الهجرات السامية التي نزحت من قلب الجزيرة العربية، منتشرة شمالا وشرقا ثم غربا. فقد كانت موجة «الانباط أو النبطيين» (١٣)،وهم من القبائل السامية البدوية، بدأت نزوحها منذ القرن السادس قبل الميلاد من

(١٢) المصدر السابق.

(١٣) العرب واليهود في التاريخ ــ الدكتور احمد سوسة.

الجزيرة العربية قاصدة بادية شرق الاردن الحالية حيث احتلت مناطق الكنعانيين والآراميين .. ثم امتد انتشارهم شرقا حتى نهر الفرات، وغربا حتى سواحل البحر الاحمر ... وبذلك ضمت ممالكهم سهول البقاع والشام وشرق فلسطين وجنوبها وحوران ومدين. بل إن بعضهم وصل الى دلتا النيل والمناطق الخصبة الواقعة على ساحل البحر المتوسط، وأقاموا في كل هذه المساحات حضارة متميزة واتخذوا (البتراء) الواقعة في جنوب غرب وادي موسى بشرق الاردن عاصمة لهم في القرن الرابع ق. م.

وقد اشتغل الأنباط بالزراعة والرعي والتجارة، وسيطروا بذلك على طرق التجارة التي تمر بها القوافل آنذاك، وخاصة طريق اليمن الموازي للبحر الاحمر والطريق الى الشام ومصر وغزة والمدن الفينيقية المطلة على ساحل البحر الابيض المتوسط.

بل كان هناك طريق تجاري آخر يربط الخليج العربي بالبتراء لنقل بضائع الهند وايران الى مصر والشام (١٤).

وقد جاءت بعد ذلك هجرات العرب في العهد الاسلامي التي تدفقت من الجزيرة الى الهلال الخصيب ومصر وشمال افريقيا والاندلس والى شرق افريقيا ووسطها.

وهكذا كانت العوامل الجغرافية والمناخية من ناحية والعوامل التجارية والبحث عن الرزق من ناحية اخرى والعوامل الدينية في ظل الاسلام من ناحية ثالثة ثم العوامل السياسية في ظل الخلافة الاسلامية من ناحية رابعة كانت كلها هي الدوافع التقليدية لموجة الهجرات العربية القديمة التي نثرتها الجزيرة العربية شرقا حتى قلب آسيا،

(١٤) المصدر السابق.

وغربا حتى قلب افريقيا ... عبر الطريقين الأساسيين طريق سيناء فمصر شمالا وطريق البحر الى افريقيا وبخاصة الى شرقها.

والذي لاشك فيه أن مصر كانت منذ القدم هي مفتاح العرب ــ قديمهم وحديثهم ــ الى قلب القارة الافريقية .. فعبر البوابة المصرية انتشرت الموجات العربية القديمة منها والاسلامية الى شمال افريقيا والصحراء الكبرى التي كانت خصبة مروية حتى الألف الرابعة قبل الميلاد .. وعبر نفس البوابة ذهب العرب عن طريق وادي النيل الى السودان وما في غربه وشرقه على السواء حيث الحبشة والصومال وكلاهما استقبل هجرات عربية أخرى عبر البحر من اليمن والجزيرة العربية.

وقد كان طريق مصر الفرعونية الى قلب افريقيا مارا بالسودان معروفا منذ أكثر من ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد، حيث وصلت الحملات العسكرية والقوافل التجارية المصرية الى مناطق غرب السودان عبر النوبة والى شرقه كذلك عند الحبشة،والثابت أن «البخور» لأهميته في الطقوس الدينية عند الفراعنة قد لعب دورا سياسيا وتاريخيا في العلاقة بين حضارة الفراعنة في وادي النيل ومناطق أعالي النيل بخاصة بحر الغزال والنيل الازرق. وقد كان الملك «ساحوريع» ٢٥٥٣ ــ ٢٥٣٩ ق.م. هو أبرز من أرسل أساطيله الى بلاد «بنط» (١٥) لجلب البخور والعطور اللازمة للطقوس الدينية في المعابد الفرعونية،بالاضافة الى المعادن النفيسة خاصة الذهب والفضة

(١٥) هناك خلاف حول التحديد الجغرافي الدقيق لبلاد بنط، فبعض الباحثين يرى أنها كانت تضم الاراضي الواقعة على السواحل الجنوبية للبحر الاحمر وهي التي تعرف الآن بالصومال وأرتريا،بينما يرى آخرون أنها الساحل الممتد في شرق افريقيا فقط من مصوع الى قلب الصومال الحالي.

والاخشاب النادرة مثل الآبانوس.

ورغم أن كثيرا من المصادر التاريخية تقول إن الفراعنة فيما قبل «ساحورع» قد عرفوا الطريق الى شرق افريقيا و بلاد بنط، عبر طريق القوافل القديم، الا أن رحلة اسطول ساحورع هي أول رحلة دونت اخبارها على الآثار المصرية، وتليها في الشهرة رحلة اسطول «الملكة حتشبسوت» ــ ١٤٩٠ ــ ١٤٦٩ ق. م ــ التي دونت اخبارها كذلك على جدران معبد الدير البحري بالاقصر،وعنها تقول نقوش الملكة: إن الحملة كانت ناجحة وموفقة وقد عادت السفن محملة بعجائب أرض بنط من خشب ذكي الرائحة والعاج والمر والآبنوس والذهب والقرفة والبخور والنسانيس والكلاب وجلود النمر الارقط غير عدد من أهل البلاد واطفالهم.

واذا كانت حملات الاسرة السادسة (٢٤٢٣ ــ ٢٢٤٢ ق. م) وعلى رأسهم الملك «بيبي الاول» قد اتجهت عبر النوبة جنوبا الى قلب افريقيا كما فعل (حوف خور) احد ولاة فراعنة هذه الاسرة عندما قام باربع حملات الى قلب القارة.(١٦) فان حملات الملكة حتشبسوت وخليفتها تحتمس الثالث الى بلاد بنط في شرق القارة اتخذت طريقا آخر هو طريق البحر من برزخ السويس حيث كانت الترسانة التي تبنى فيها السفن، ثم تتجه جنوبا في البحر الاحمر حتى سواحل بنط، ثم تعود محملة من نفس الطريق(١٧).

---

(١٦) مصر الفرعونية ــ د. احمد فخري ــ القاهرة ــ ١٩٧١.

(١٧) يقول مؤرخو الصومال المعاصرون إن أهل الصومال لهم علاقة عائلية بالمصريين، فكثير من سكان مصر في فجر التاريخ الفرعوني خرجوا مهاجرين من أرض الصومال وتدفقوا الى الشمال حتى استقروا في وادي النيل.

٣ ـ المحاولة الأولى للدوران حول افريقيا...

هكذا لعب البحر الأحمر دوره التاريخي في الربط بين الحضارات العربية والمصرية القديمة وافريقيا.

«لقد لعب البحر الأحمر دوره كحلقة وطيدة سواء بين شبه جزيرة العرب والعالم الافريقي، أو بين شمال الصحراء وجنوبها في افريقيا، فبصرف النظر عن القناة التي كانت تصل بين النيل وخليج السويس كانت هناك عدة طرق للقوافل تبدأ من ثنية قنا (موقع طيبة)،حيث يقترب النيل المعمور أكثر مايقترب من البحر، فضلا عن الاودية الجافة كوادي الحمامات، التي يمكن الحصول على المياه في قيعانها .. وفي الوقت نفسه كانت هذه الأودية هي المسالك المؤدية لمناجم الذهب والنحاس والأحجار الكريمة. وصادف أن كانت الملاحة في القسم الشمالي من البحر الأحمر تكتنفها صعوبات عملية، بسبب أعاصير البحر المتوسط التي تتحرك بكثرة شتاء، ومن المحتمل أنها كانت في العصور القديمة اكثر حدوثا مما هي عليه الآن مع مراعاة صغر حجم السفن. وكانت منطقة الخطورة عند منطقة «رأس محمد» حيث تهب الرياح الجنوبية التي تجذبها الأعاصير، فتدفع السفن شمالا في خليجي السويس والعقبة، لذلك تحاشى المصريون القدماء هذه المنطقة قدر الإمكان .. واستفادوا من ثنية النيل والأودية الجافة للوصول للموانىء القديمة مثل: هورمز وكيلوس ليمن وبرنيس وعيذاب، وهذه الطرق أسْهَمَتْ في إيجاد علاقات مع افريقيا جنوب الصحراء على غرار مافعلت طرق سيناء في إيجاد روابط بين شمال جزيرة العرب وافريقية الشمالية.. (١٨)».

---

(١٨) السودان الشمالي ـ تأليف الدكتور محمد عوض محمد القاهرة ١٩٥١.

ومن المفيد هنا أن نتوسع قليلا في تتبع الأصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية بعمق، تلك العلاقات التي وجدت لها جذورا ضاربة في أعماق التاريخ تعكس مدى عمق الصلات البشرية والتجارية والسياسية بين العنصرين العربي والافريقي، واختلاطهما معا في كثير من المناطق التي شهدت واستقبلت هجرات عربية في العصور القديمة أو الوسيطة.

وفي هذا الصدد لعب شرق افريقيا دورا أساسيا تماما كما فعل شمال افريقيا ــ خاصة مصر ــ فعن طريق شرق افريقيا عرفت البشرية لاول مرة أول رحلة للدوران حول افريقيا .. وعن طريق شمالها عرفت البشرية بعد ذلك ثاني رحلة للدوران حول القارة من الغرب.

فأول محاولة للدوران حول افريقيا بدأت في عهد الفرعون المصري «نكاو» أو «نخاو» ... أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين الذي شق قناة بين النيل والبحيرات المرة للوصول إلى البحر الأحمر، وعن طريقها بعث باسطوله تحت قيادة أحد الملاحين الفينيقيين المعروفين بالمهارة في الملاحة، للدوران حول افريقيا ... وفي تسجيلة لهذه الرحلة الأولى من نوعها يقول المؤرخ الاغريقي «هيرودوت» بعد الرحلة بمائة عام: (نحن نعرف أن افريقيا ــ وكانت تسمى ليبيا في ذلك العصر ــ محاطة بالبحار من جميع الجهات ماعدا الجهة التي تتصل فيها بآسيا ــ يعني سيناء ــ وهذا الكشف يرجع الى نكاو ملك مصر الذي ارسل سفنا يقودها فينيقيون بادئين من القناة التي حفرت بين النيل وبرزخ السويس، ليصلوا الى أعمدة هرقل ــ جبل طارق الحالي ــ والعودة الى مصر عن طريقها، فأخذت الرحلة طريقها من مصر عن طريق البحر الأرتري ــ الأحمر ــ الى المحيط الجنوبي،وعندما حل الخريف اتجهوا الى الساحل وبذروا الارض بالذرة، وظلوا حتى نضج المحصول، وفي

السنة الثالثة من بدء الرحلة وصلوا الى اعمدة هرقل ومنها واصلوا رحلة عودتهم الى مصر .. و يذكرون انهم لاحظوا اثناء دورانهم حول افريقيا أن الشمس كانت تظهر على يمينهم..) (١٩).

و يعود هيرودوت ليتحدث بعد ذلك عن العلاقات التي ربطت بين الحضارات العربية القديمة والفينيقية الممتدة على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، وموانيها المنتشرة خاصة «بيبلوس» و بيروت وطرابلس، و بين الأفارقة فيما وراء أعمدة هرقل، ثم بين المملكة الفينيقية في قرطاج ــ تونس ــ و بين نفس الأفارقة عن طريق جبل طارق كذلك .. الأمر الذي يثبت الاتصال المستمر بين عرب شمال الجزيرة العربية والشام و بين افريقيا وراء جبل طارق عن طريق الرحلات التجارية على وجه خاص .. ولعل أشهر هذه الرحلات التي حاول الفينيقيون فيها الدوران حول افريقيا عن طريق البحر الأبيض المتوسط،عكس رحلة الفرعون المصري نكاو،هي رحلة الملاح الفينيقي «هانو»، و يرجح انها تمت حوالي ٤٢٥ق. م،ومن خلال ترجمة اغريقية لهذه الرحلة وجدت في معبد «بعل هامون» في قرطاج، يتضح أن «هانو» صحب معه ٣٠ ألفا على ظهر ٦٠ سفينة عبر بها اعمدة هرقل غربا ثم دار حول افريقيا حتى نهر السنغال وسيراليون، والأرجح أنه وصل الكاميرون.

وهكذا تتكامل المحاولات البشرية الأولى لاستكشاف افريقيا، «نكاو» فرعون مصر حاول ذلك عبر شرق أفريقيا و«هانو» الفينيقي حاول الشيء نفسه عبر غربها ... وكلاهما فتح الطريق واسعا بعد ذلك لنمو هذه البدايات الاولى لربط العرب بالافارقة، وان كانت الرحلتان لا تنفيان المحاولات الاخرى لاختراق افريقيا عبر الصحراء

(١٩) HALL, R, Discovery of Africa - London 1970

الكبرى، ونشوء علاقات قديمة بين حضارات النيل وشواطىء البحر الابيض المتوسط، وبين تلك التي نشأت في جنوب الصحراء ــ كما قال هيرودوت ــ وهي علاقات تبلورت حتى قبل وصول العرب والمسلمين الى الارض الافريقية بمراحل زمنية سحيقة.

واذا كانت البوابة المصرية عبر صحراء سيناء قد ساعدت على تدفق القوافل والهجرات العربية القادمة من الشرق، لتأخذ طريقها الى ساحل شمال افريقيا ثم الى غربها والى افريقيا جنوب الصحراء فإن إطلال الجزيرة العربية على البحر الاحمر من ناحية وعلى المحيط الهندي من ناحية أخرى قد ساعد على فتح طريق التجارة البحري بينها وبين شرق افريقيا، ولقد لعب اليمنيون والحضارمة دورا أساسيا في ريادة هذا الطريق عبر البحر العربي بواسطة القوارب الخشبية الصغيرة ذات المجاديف، منذ القرن الثاني قبل الميلاد، بحثا عن التجارة بين الساحلين العربي والافريقي. وتتحدث بعض الكتابات الاغريقية عن أثر الجفاف في الحالة الاجتماعية والاقتصادية التي سادت المنطقة مثل ماحدث في وادي حضرموت (٢٠).

بالاضافة الى الحضارمة، كان العمانيون والبحرانيون اكثر السكان العرب اتجاها الى شرق افريقيا، فتتالت موجات هجرتهم حتى حولوا الساحل الشرقي لافريقيا والذي كانوا يسمون جزءا منه «بر الزنج» الى شريط عربي، خاصة عندما تكثفت هجراتهم فيما بين القرن السادس والقرن الثالث عشر الميلادي.

وأما عن انتشار العمانيين والبحرانيين فمازال مثار مناقشة،ولايمكن

(٢٠) حضرموت أهم اقاليم جمهورية اليمن الديمقراطية من الناحية الزراعية.
ويرجع بعض المؤرخين أن اسمه مشتق أو محرف عن كلمة «عاد ارم» نسبة الى قبيلة عاد الآرامية.

تعليله بالجفاف، كما هو الحال عند سكان جنوب وشمال شبه الجزيرة، ذلك أن اعتماد سكان الخليج العربي كان على الصيد البحري واستخراج اللؤلؤ، ولذلك فمن الأفضل تفسيره بانخفاض الطلب على اللؤلؤ بعد انخفاض القوة الشرائية لدى الرومان، فضلا عن منافسة لؤلؤ جزيرة سيلان .. مما ادى ببحارة الخليج الى العمل بنقل التجارة .. واساس الحركة التجارية التي نشأت في المحيط الهندي هو أساس جغرافي، لانه اعتمد على حركة الرياح والتيارات البحرية صيفا وشتاء، ويمكن أن تشبه الحركة الملاحية بالحركة التجارية عبر الصحراء، كعامل أساسي في الاتصالات التجارية والثقافية بين افريقيا المدارية والعالم العربي، قبل ظهور القوى الاوروبية في القرن السادس عشر ومابعده، كما كانت التجارة عبر الصحراء لها مايكملها عبر الاقليم السوداني، كذلك كان للاتصالات الساحلية عبر المحيط الهندي مايكملها في داخل القارة، وهكذا كانت افريقيا المدارية وشبه جزيرة العرب على اتصال وثيق قبل وصول البرتغاليين بما يزيد على ألف عام.(٢١)

ومن الواضح أن قوافل التجارة البحرية التي ربطت بين الجزيرة والخليج العربي وبين سواحل شرق افريقيا كانت محكومة بحركة الرياح السائدة في المحيط الهندي، فقد كانت قوافل الشتاء تبدأ من عمان مثلا فيما بين نوفمبر وفبراير من كل عام،فتبحر بفضل التيارات الشمالية لتصل الى زنجبار وممباسا في حوالي ٤٠ يوما .. بينما لو أقلعت في ديسمبر فإن فترة الرحلة تصل الى مابين ٢٥ ــ ٣٠ يوما بفضل قوة الرياح الموسمية الشتوية، ثم تقل الى ٢٠ يوما لو أقلعت في يناير. وتعود هذه القوافل من شاطىء افريقيا الى بلادها فيما يعرف

(٢١) العلاقات العربية الافريقية ــ مرجع سابق.

برحلة الصيف ابتداء من ابريل حتى منتصف مايو.

غير ان المهم في كل ذلك أن العرب عبر التبادل التجاري حملوا الى الساحل الشرقي لافريقيا معالم حضارتهم القديمة وبذروا هناك بذور اختلاط عرقي بين العرب والزنج عن طريق التزاوج والاستقرار، وادخلوا الثقافة العربية بفنها وفكرها، تماما كما ادخلوا كثيراً من الزراعة والصناعة والتجارة التي نقلوها من هذا الساحل ليس فقط الى الساحل العربي المقابل بل الى الهند والصين، كما قال المسعودي في القرن العاشر. بل إن هذا التزاوج الطويل انتج عبر قرون لغة مميزة جديدة هي «السواحيلية» التي تضم مزيجا من العربية، والبانتو الافريقية القديمة.

وهكذا عاش العرب والافارقة في شرق افريقيا في ظل تزاوج بشري وحضاري مثمر حتى جاء العصر الاستعماري الحديث الذي لعب لعبة أخرى...

واذا كانت سواحل تنجانيقا وزنجبار (٢٢) هي التي كانت أكثر سواحل شرق افريقيا جذبا للهجرات العربية وللتجارة الذاهبة والعائدة فيما بين سواحل الجزيرة العربية وافريقيا، فان ساحل القرن الافريقي نفسه المواجه من الغرب للساحل اليمني بلا فاصل مائي واسع — حيث يضيق الشاطىء الآسيوي ليقترب من الشرق الى ابعد مدى مع الشاطىء الافريقي من الغرب — يشقهما مضيق باب المندب — كان هو الآخر منطقة جذب شديدة للهجرات العربية القديمة حيث تكونت هناك «بيئة» عربية قديمة ربما تكون قد بدأت على الارجح فيما بين القرنين العاشر والسابع قبل الميلاد.

(٢٢) تنزانيا الحالية.

ففي هذه الفترة هاجرت من جنوب الجزيرة العربية موجات متلاحقة قوامها الأساسي من قبيلة «حبش» العربية القديمة، حيث استقرت في شمال القرن الافريقي واختلطت بسكان الساحل من الأفارقة الوطنيين، فشكلوا معا بيئة بشرية جديدة تعتمد على تهجين العرب بالأفارقة .. وأقاموا حضارة متميزة أيضا ترتبط عبر البحر الأحمر بسواحل الجزيرة العربية خاصة باليمن، واستخدمت لهجة عربية قديمة هي أصل اللغة الحبشية التي تكونت فيما بعد.

ومن الضروري هنا ان نتعرض لأهم ممالك هذه المنطقة التي صارت تعرف باسم الحبشة .. مملكة «اكسوم» التي أقامت حضارة مزدهرة في هذه المنطقة منذ ماقبل بداية التاريخ الميلادي.

يقول المؤرخون لتاريخ الحبشة: إن مملكة «اكسوم» قامت على يد «منليك الاول» الذي هو رأس الاسرة الحبشية المالكة (٢٣) ومؤسس دولة اكسوم في القرن العاشر قبل الميلاد. ومنليك هذا هو ابن سليمان الحكيم انجبته منه بلقيس ملكة سبأ أو «ماكيدا» في التاريخ الحبشي القديم الذي يقول إنها كانت تحكم الحبشة القديمة بالاضافة الى حكمها لليمن كذلك، الامر الذي يدل على عمق الروابط بين اليمن والحبشة منذ القدم. (٢٤).

ولقد تبادلت اليمن ومملكة اكسوم التأثير والتأثير المضاد .. فاذا كانت ملكة سبأ قد حكمت الحبشة فان ملوك اكسوم قد غزوا فيما بعد اليمن ذاتها وحاولوا السيطرة عليها بل وعلى الجزيرة العربية كلها،

---

(٢٣) كان الامبراطور هيلاسي لاسي هو آخر سلالة هذه الاسرة وقد اسقط عن العرش بالانقلاب العسكري الذي وقع في اثيوبيا عام ١٩٧٤.

(٢٤) راجع تاريخ اثيوبيا — زاهر رياض.

فاتساع مملكة اكسوم وازدهارها ونشاط تجارتها أدت الى تقوية علاقتها بجنوب الجزيرة العربية، ومن اجل المحافظة على تجارة الحبشة والسيطرة على الطريق البري بين اليمن والشام قام ملوك اكسوم بعدة غزوات لليمن، واخضعوا منذ وقت مبكر ــ وقد يرجع الى اوائل القرن الثاني الميلادي-القبائل العربية في مناطق سبأ وحمير، كما تدخلت اكسوم منذ القرن الثالث الميلادي في الصراع الدائر على السلطة في جنوب شبه الجزيرة العربية بين سبأ وحمير، الا أن سيطرة اكسوم على بعض مناطق اليمن كانت متقطعة .. كما انها واجهت مقاومة محلية شديدة، واتخذت في بعض اوقاتها صورة صراع ديني بين اليهودية والمسيحية، فقد عمل «ذو نواس» آخر ملوم حمير، الذي كان قد اعتنق اليهودية على القضاء على السيطرة الاكسومية والمسيحيين المتعاطفين معها، وبدأ بمهاجمة مدينة «ظفار» نظرا لاهمية موقعها ولم ينجح في الاستيلاء عليها الا بعد ان خدع اهلها، ومن ثم توجه الى «نجران» وبعد معارك عنيفة احتل المدينة وقتل من رفض الارتداد الى اليهودية...(٢٥).

على ان الامر لم يستقر لذي نواس أو اليهودية طويلا، فسرعان ما اشتعل القتال الديني بينها وبين المسيحية، فقد ارسل «كالب» ملك اكسوم حملة قوية عبر البحر، فقضت على ذي نواس، وعين حاكما مسيحيا بدلا منه، خلفه «ابرهة» الذي حاول من جانبه الاستقلال عن اكسوم وتوطيد ملكه في اليمن، بل وحاول مد سلطانه على كل الجزيرة العربية انطلاقا من عاصمته «صنعاء»،وقد حاول غزو مكة لهدم الكعبة على الارجح في عام ٥٧٠ ميلادية، وهو العام الذي سمى

(٢٥) راجع ١ ــ بين الحبشة والعرب للدكتور عبدالمجيد عابدين.
٢ ــ العلاقات العربية الافريقية ــ بحث الدكتور محمد أمين.

بعام الفيل(٢٦) وقد كان فشله في هذه الحملة ايذانا بانتهاء سيطرة الحكم الحبشي على اليمن، عندما قام ملوك الفرس بمساعدة الحميريين على طرد الاحباش من بلادهم التي اتصلت بالمملكة الفارسية حتى انتشر فيها الاسلام.

٤ ـ جسور اللغة والدين بين الافارقة والعرب :

لقد اعطى ظهور الاسلام لانتشار الهجرات العربية الى افريقيا بشكل خاص بعدا جديدا تماما.

فمنذ جاء الاسلام، وبدأ الرسول الكريم دعوته في مكة، كانت موجات الهجرة العربية من الجزيرة قد صنعت لنفسها أو بمعنى اصح «للعروبة» عدة جسور من العلاقات البشرية القائمة على أسس حضارية كثيرة ترعرعت عبر قرون طويلة من الزمان، وبدأت تتكون في أراض بعيدة عن الجزيرة العربية مجتمعات أو تحديدا تجمعات سكانية هي نتاج خليط من الهجرات العربية والسكان المحليين سواء في مصر أو في شرق افريقيا أو في شمالها وأواسطها .. وبدأت تبين عدة ملامح لامتزاج حضارتين اقيم أساسه على قوافل التجارة وهجرات العرب من قلب الجزيرة الى مناطق الخصب والنماء أو الى حيث تروج التجارة.

وعندما بدأت الدعوة الاسلامية، حمل الدعاة الأوائل دعوتهم وخرجوا بها من مكة الى حيث الأمن، ولذلك كان من الطبيعي ان يقتفي الدعاة الأوائل أثر هجرات اجدادهم القدامى ـ الذين سبقوا في الهجرة

---

(٢٦) راجع سورة الفيل ـ بسم الله الرحمن الرحيم «ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل * ألم يجعل كيدهم في تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل * فجعلهم كعصف مأكول». صدق الله العظيم.

الى بلاد بعيدة ــ فساروا على نفس الطريق وخاصة عبر البحر الى شرق افريقيا، ومن ثم فليس غريبا أن تخرج الهجرة الاسلامية الأولى الى ساحل افريقيا الشرقي قبل أن تكون الهجرة الى المدينة المنورة..

ومنذ ذلك الحين تدفقت الهجرات العربية المتتالية .. لا تحمل التجارة وحدها، ولا تبحث عن المرعى والكلأ فقط .. لكنها هذه المرة كانت تحمل دعوة دينية أحدثت انقلابا هائلا في المنطقة بأسرها .. ولما كان القرآن الكريم دستور الاسلام قد نزل باللغة العربية فقد تلازم الدين واللغة .. وهاجرت اللغة العربية تحمل القرآن والحديث النبوي وطرق أداء أركان الاسلام الى المجتمعات الجديدة.

وهكذا .. كان للاسلام فضل آخر غير دفع الهجرات العربية، هو فضل التأكيد على «تعريب» كثير من البلاد التي ذهبت اليها الهجرات ودخلها الاسلام، وظهر ذلك جليا في الشمال الافريقي والوسط والشرق كذلك.

«والواقع أن مدلول كلمة «العرب» تطور خلال العصور، وخاصة في العصور الوسطى، فكان يقصد بهم قبل الاسلام سكان الجزيرة العربية،وفي صدر الاسلام وطوال العصر الاموي استعمل لفظ «عرب» للدلالة على المسلمين أبناء الجزيرة العربية، تمييزا لهم عن سكان البلاد التي امتد اليها الاسلام،ولكن منذ القرن التاسع الميلادي اندمج ابناء الجزيرة مع بقية السكان .. وظهرت حضارة خاصة، أمدها الاسلام بأهم طاقاتها، وأسهم فيها كل أبناء الدول الاسلامية من عرب وفرس وأتراك، وشارك فيها المسلمون وغير المسلمين، وأصبحت اللغة العربية هي اللغة الغالبة .. واكتسبت كلمة «عرب» معنى ثقافيا وحضاريا، فاصبحت تدل على سكان الوطن العربي الذين يتحدثون في اللغة العربية والتاريخ والثقافة العربية، بصرف النظر عن دينهم أو

اصلهم». (٢٧)

ولقد كانت هذه المقولة واضحة وضوحا شديدا في حالة شرق افريقيا بوجه عام، والحبشة بوجه خاص، التي تبادلت مع الجزيرة العربية المؤثرات الحضارية بجوانبها الثقافية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

والظاهرة الاولى الملفتة للنظر هنا أن «الهجرة الاسلامية الأولى الى الحبشة رغم محدوديتها قد وجدت «حضانة» حانية في أرض الحبشة والساحل الشرقي لافريقيا، حيث كانت المسيحية هي السائدة هناك، خاصة في ظل مملكة «اكسوم» في الحبشة التي كانت تحتضر سياسيا .. كما أن الظاهرة الثانية الملفتة ايضا هي ان الاحباش الذين كانوا يحملون موجة الهجرة المضادة من بلادهم في افريقيا الى الجزيرة العربية، خاصة في مكة سواء اولئك الذين أغرتهم التجارة بالذهاب الى الجزيرة، أو الذين جاءوا اليها في ظل تجارة الرقيق، كانوا من اوائل الساعين للدخول في الدين الاسلامي الجديد والايمان بالدعوة المحمدية خاصة انها كانت بشيرا لهم بالتسامح والعدل والانعتاق من العبودية الظالمة التي كانت سائدة في ذلك العصر.

على أن الأهم أن الرسول (ص) لم يأمر صحابته الأوائل بالهرب بالدعوة الاسلامية من مكة الى الحبشة، لمجرد الهروب، لكنه بالتأكيد اختار هذه الارض لأسباب سياسية ودينية طمأنته على ان صحابته سوف يلاقون الحماية، ومن ثم فسوف تظل بذور الدعوة الاسلامية في مأمن من قريش وبطشها، ذلك أنه قال لهم آمرا بالهجرة الاولى: «لو خرجتم الى ارض الحبشة، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد، وهي

(٢٧) العلاقات العربية الافريقية ــ بحث الدكتور محمد أمين.

ارض صدق حتى يجعل الله لكن فرجا مما انتم فيه» (٢٨) وهذا يثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم قد اختار الحبشة بوجه خاص لما فيها من أرضية عربية مهاجرة من ناحية، وملك عادل يحمي صحابته من ناحية أخرى. وقد اختلف المؤرخون على اسم هذا الملك هل هو «أصحمة» أم هو «أرماح الثاني»، وفي كل الاحوال فقد تبادل ملك الحبشة هذا الذي وافق على استقبال الهجرة الاسلامية الاولى الرسائل مع الرسول الكريم، في محاولة لمعرفة الدين الجديد والنبي الجديد. وهنا يقول «ابن كثير»: إن النجاشي بعث وفدا من الحبشة الى النبي صلى الله عليه وسلم، ليسمعوا كلامه و يروا صفاته، وكان عددهم اثنى عشر، وقيل خمسون، وقيل بضع وستون، وقيل سبعون رجلا، سبعة منهم قساوسة، وخمسة من الرهبان، وقيل العكس.

ولا شك ان الرسالة التي عاد بها الوفد المسيحي الى نجاشي الحبشة كان لها أكبر الأثر في تدفق الهجرة العربية الاسلامية الى هذه البلاد، اذ ان الوفد قد عاد يحمل صورة جيدة عن الدين الجديد والنبي الجديد، و يبدو أن هذه الهجرات المتدفقة قد بدأت رحلة العودة الى الجزيرة العربية في السنة السابقة للهجرة بعد ان كانت الدعوة المحمدية قد ثبتت اقدامها في الجزيرة، وتركت وراءها في ارض الحبشة بذور الاسلام، بعد أن استطاع جعفر بن ابي طالب ــ ابن عم الرسول ــ أن يطرح قضية الدين الاسلامي أمام النجاشي فاقنعه بعدالة موقف المسلمين في مواجهة مطاردة قريش.

وتقول المصادر التاريخية الموثوقة إن المرجح أن أعضاء الهجرة الاسلامية الاولى قد مكثوا بالحبشة حوالي ١٤ عاما بزعامة جعفر بن ابي طالب،وهي فترة طويلة كفيلة باحداث مؤثرات فعالة في جعفر

(٢٨) سيرة النبي صلى الله عليه وسلم لابن هشام.

واصحابه، ووفد مع مهاجري الصحابة وفد من زعماء الحبشة اختلفت المصادر في تقدير عدده، ومنهم من بقي بجوار الرسول، وتطوع لخدمته، ومنهم «ذو مخمر» ابن اخي النجاشي نفسه، الذي لازم النبي ملازمة كلية.. (٢٩)

وهكذا بدأت البذور الأولى لنمو علاقات قوية بين الدين الاسلامي.. الجديد والرسول العربي من ناحية، وبين الدين المسيحي الذي كان سائدا في الحبشة، حتى نزلت عدة آيات قرآنية كريمة تحض المسلمين على توثيق علاقاتهم بالنصارى، وتؤكد الثناء عليهم مثل ما جاء في سورة المائدة: **(ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارىٰ ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون * وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق)**.(٣٠)

وما جاء في سورة آل عمران: **(وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم، وما أنزل اليهم خاشعين لله.)**(٣١) وقد نقل عن «عطاء بن أبي رباح» أن ما ذكر الله به النصارى من الخير في القرآن الكريم فإنما يراد به النجاشي وأصحابه.

والدلالة الأساسية من كل ذلك أن الاسلام عندما جاء قد ساعد على توثيق العلاقة القديمة بين العرب والساحل الشرقي لافريقيا والتي بدأت قبل ظهور الاسلام بعصور سحيقة، وان الاسلام بتسامحه قد اتاح للعرب المسلمين ان ينموا من قوتهم واستقرارهم، خاصة وان مملكة

---

(٢٩) د. عبد المجيد عابدين ــ بين الحبشة والعرب. نقلا عن: جواهر الحسان للقنائي.
(٣٠) قرآن كريم ــ سورة المائدة ــ آية ٨٢، ٨٣.
(٣١) قرآن كريم ــ سورة آل عمران ــ آية ١٩٩.

اكسوم القوية كانت قد بدأت في التدهور خلال الفترة الموافقة لصدر الاسلام.. ورغم بذر البذور الاولى للاسلام في بيئة مسيحية في الحبشة او وثنية في معظم الساحل الشرقي، فان العلاقة العربية الافريقية تميزت في صدر الاسلام بعدة ميزات.. أهمها: ان الدين الاسلامي قد بدأ يثبت ركائزه في الساحل الافريقي من ناحية، وان التجارة العربية ـ التي كانت الرابطة التقليدية مع هذا الساحل-قد ازدادت نموا وازدهارا حتى إن المراكز التجارية الاسلامية فيه كانت هي المتحكمة في التجارة مع افريقيا تماما كما كانت المراكز التجارية في الجزيرة العربية هي المتحكمة في التجارة مع الهند والصين شرقا، ومع مصر وشمال افريقيا غربا.

ويلاحظ أن المراكز العربية الاسلامية بالحبشة شأنها في ذلك شأن بقية المراكز العربية على طول الساحل الشرقي لافريقيا قد اتسمت بالطابع السلمي التجاري بصفة عامة، ولم تكن في نشأتها وتوسعها عسكرية او سياسية في بادىء الأمر، ذلك ان الحبشة كانت موطن الهجرة الاسلامية الاولى، ولم تكن دار جهاد.. (٣٢)

وكان لقيام هذه المراكز العربية الاسلامية أثر كبير في توطيد علاقة العرب بالحبشة، اذ كانت هذه المراكز هي حلقة الوصل بين الاحباش في الداخل وبين العرب، فقد توطدت علاقتها بشبه الجزيرة العربية عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة في المدينة ومكة ودمشق وبغداد والقاهرة.. (٣٣) وذلك كله يثبت حقيقة تاريخية أن العلاقة القديمة بين الساحل العربي والساحل الافريقي لم تنقطع

---

(٣٢) العلاقات العربية الافريقية ـ مرجع سابق.

(٣٣) نفس المرجع السابق الذي نسب هذا الرأي الى كتاب تحفة النظار لابن بطوطة.

يوما.. ولم تتوقف الهجرات البشرية المتبادلة وان كان معظمها هجرات عربية الى الساحل الافريقي، ولم تتدهور العلاقات الحضارية بين المنطقتين بظهور الاسلام داعيا الجميع بمن فيهم من النصارى الى الدخول فيه.. بل على العكس ساعد ظهور الاسلام على دفع دماء جديدة في شرايين هذه العلاقات التي شهدت ازدهارا ملموسا في صدر الاسلام حتى أن ممالك اسلامية قد تكونت في الحبشة والساحل الافريقي فيما بعد،جاورت الحكم المسيحي وتعايشت معه. (٣٤)

بل ان هناك علاقة اخرى ــ لها طابعها الديني أساسا ــ توطدت من ناحية أخرى بين الساحل الافريقي بصفة عامة والحبشة على وجه الخصوص وبين الشمال الشرقي الافريقي ــ مصر ــ التي كانت معبر ومستقر العروبة طوال قرون قديمة.. وأعني بذلك الرباط الديني بين الكنيسة المصرية ــ كرازة الاسكندرية وسائر افريقيا ــ وبين الكنيسة الحبشية القبطية؛ فقد ارتبطت الثانية بالأولى ارتباط الابنة بالأم منذ القدم.

ومثلما تدفقت روافد النيل من الهضبة الحبشية مندفعة الى الشمال حتى دلتا مصر، تدفقت التجارة والمعرفة والحضارة عائدة من مصر الى الحبشة وجاراتها المختلفة. ومثلما تدفق أبناء الحبشة وساحل افريقيا الشرقي الى مصر بشكل خاص يطلبون العلم، تدفق من مصر الى الحبشة كثير من الرهبان والقسس لتعزيز دور الكنيسة الحبشية. وليس ذلك غريبا على هذه العلاقة المركبة بين البلدين، فقد انتشرت المسيحية في الحبشة على ايدي المصريين.. حتى ان أول اسقف للكنيسة الحبشية في تاريخها وهو «فرومنتيوس» كان مصريا ــ كما يقول الدكتور مراد

---

(٣٤) راجع الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة ــ ابراهيم طرخان.. لمزيد من المعلومات في هذا الصدد.

كامل في دراسته عن العلاقات بين الكنيستين المصرية والحبشية (٣٥) وقد أصدر قرارا بتعيينه بطريرك الكنيسة المصرية في عام ٣٣١ ميلادية. ومنذ ذلك التاريخ ظل البطريرك المصري هو الذي يعين مطرانا من كنيسة الاسكندرية ليرأس الكنيسة الحبشية حتى اتفقت الكنيستان في عام ١٩٤٦ على ان يعين مطران اثيوبي في رئاسة الكنيسة الحبشية ولكن بان يتم تنصيبه على يد البطريرك المصري. وبهذا كان الأنبا كيرلس الذي توفى عام ١٩٥٠ آخر مطران مصري يرأس الكنيسة الحبشية، كما كان البطريرك باسيليوس أول أثيوبي يخلفه.

وفي الوقت نفسه شهدت العلاقات بين البلدين ازدهارا على الجانب الديني الآخر، فقد اجتذب الأزهر الآفا من طلاب شرق افريقيا عبر سنوات طويلة، حتى أصبح لهم اروقة مستقلة في صحن الجامع الأزهر، هي أروقة الاحباش والجبرتية كأروقة المغاربة وذلك بعد ان انتشر الاسلام في الصومال وارتريا وزنجبار مقابل تمركز المسيحية في الحبشة، وبرز من هؤلاء أئمة لهم دورهم الديني البارز في الاجتهاد الاسلامي، مثل الامام الزيلعي فخر الدين عثمان، وجمال الدين عبدالله بن يوسف، والشيخ علي الجبرتي والشيخ عبدالرحمن الجبرتي، وهو الجد السابع لعبد الرحمن الجبرتي المؤرخ المصري المشهور.

ولقد ساعدت هذه العلاقات الدينية ــ الاسلامية المسيحية ــ على توطيد العلاقات العربية عامة والمصرية بصفة خاصة بهذه المنطقة من العالم التي تعرف بالقرن الافريقي. فإذا كان المصريون القدماء وأبناء حضارات الرافدين قد عرفوا الطريق التجاري الى هذه المنطقة قبل فجر التاريخ، وجاءت المسيحية ثم الاسلام لدعم هذا الاتصال فان الحضارة العربية المعاصرة ارتبطت هي الاخرى بروابط الاتصال

(٣٥) مقال بمجلة السياسة الدولية ــ ١٩٦٧.

بالساحل الشرقي لافريقيا، ووجدت نفسها تسير في نفس الطريق الذي سارت فيه من قبل هجرات الجزيرة العربية الاولى، أو سفن الفراعنة والعمانيين والبحرانيين والحضارمة والفينيقيين، مثبتة أن شريان الاتصال الحضاري دائم لا ينقطع.

ومن اللافت للنظر ان دوافع الهجرة العربية تداخلت فقد كانت التجارة هدف الهجرات العربية الأولى الى ساحل إفريقيا الشرقي ثم أصبح الهدف بالاضافة الى التجارة الدعوة الدينية ونشر الاسلام بعد ان استقر في الجزيرة العربية، ثم أضيف دافع آخر فيما بعد عندما تعرضت «الدولة الاسلامية نفسها لصراع الخلافات السياسية وأصابها التمزق». فقد كانت الهجرات العربية الى الساحل الشرقي لافريقيا في العصور الوسطى نتيجة لعوامل متعددة أبرزها المنازعات الدينية والسياسية التي ثارت بين المسلمين ــ خاصة في عهد الدولتين الأموية والعباسية ــ ومن الطبيعي أن تنقل هذه الهجرات العربية معها من سواحل شبه الجزيرة العربية (الاحساء ــ البحرين ــ عمان ــ حضرموت ــ اليمن) صورا من الحضارة العربية الاسلامية الى افريقيا، وكان أبرزها انشاء المنازل والمراكز التجارية، ونشر الدين الاسلامي وحضارته في ارتريا والصومال وزنجبار والى الجنوب من خط الاستواء.

وتروي أحداث التاريخ أن أولى الهجرات العربية الجماعية في العصور الوسطى الى ساحل شرق افريقيا كانت في عهد الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هجرية)، وذلك في أثر اتباع سياسة البطش والتنكيل بالحركات المناوئة للحكم الأموي.. فخرجت هجرات عربية بأعداد كبيرة الى ساحل شرق افريقيا، وانضمت الى من سبقوها. وتذكر بعض الروايات أنه عندما علم الخليفة الأموي بأخبار هذه الهجرات، أرسل أخاه الى شرق افريقيا، حيث مد نفوذ الأمويين

هنـاك. وفي رواية اخرى ان ابنـه هـو الـذي هـاجر الى شرق افريقيا وحكم في منطقة «كيوابو» جنوب مقديشو في ارخبيل لامو.. وفي لامو هذه تأسست أقوى امارة عربية اسلامية في الساحل. (٣٦)

ولـقـد تـدفـقـت الـهجرات الـعـربـية بعد ذلك الى الساحل الشرقي لافريـقـيـا طـلبا للأمن والأمان، بعد ان سادت المنازعات السياسية في الـدولـتين الامـويـة ثـم الـعـباسية بعدها. وكان من ابرز هذه الهجرات هـجـرة ابـنـاء قبيلة «الأزد» من عمان بقيادة الاخوين سليمان وسعيد ابني عياد الجلندي، اللذين ثارا على الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان أيضا، وقد أسس الأخوان مدينة «عيذاب» شمال «ممباسا»، كذلك حـدثت هجرة مماثلة في عام ١٢٢ هجرية ــ ٧٤٠ ميلادية، عندما حدث نزاع ديني أدى الى انقسامات حادة، ابرزها الانقسام الذي قاده الامام «زيـد» أكـبر أحفاد الإمام علي بن ابي طالب رضي الله عنه.. وعندما قـتـل الامـام زيـد فر أنصاره من «الزيدية» الى ساحل بنادر بالصومال حيث استقروا هناك وجذبوا بهذا الاستقرار مزيدا من الهجرات الزيدية الـشـيـعـيـة مـن الـيـمـن، وأسسوا لهم ملكا في «بنادر» استمر لمائتي سنة قويا ومزدهرا.

ولـقـد كان للخليفة العباسي هارون الرشيد، اهتمام خاص بساحل افـريـقـيـا الـشـرقـي هذا، فدفع برجاله الى الهجرة الى هذا الساحل ربما اقـتـفـاء لآثـار الامـويـين، وربمـا طـلـبـا لتوسيع النفوذ السياسي والديني والتجاري للخلافة العباسية، بعد ان نجحت الدولة الاموية في ذلك.

وهـكـذا ظـلـت الـهـجـرات الـعـربية تتدفق على ساحل شرق افريقيا طـوال الـعـصـور الوسطى، سواء كان ذلك هربا من الاضطهاد السياسي والـديـنـي.. او طلبا للتجارة والاستقرار، أو رغبة في التوسع السياسي،

(٣٦) العلاقات العربية الافريقية ــ مرجع سابق ــ بحث د. محمد أمين.

لكن النتيجة النهائية هي ذلك التزاوج الدائم والمستمر بين العرب والافارقة في الصومال وارتريا والحبشة وزنجبار، وحتى موزمبيق جنوبا. وتركت هذه الموجات المتلاحقة من الهجرة العربية وتزاوجها المستمر بالافريقيين الوطنيين آثارا بعيدة المدى في تدعيم العلاقات العربية الافريقية على مر السنين، وهي آثار اقتصادية وسياسية ودينية واجتماعية وثقافية ، فقد انتقلت الى الساحل الافريقي مع اللغة العربية والاسلام مظاهر الحضارة العربية الاخرى من معمار بناء المنازل والمدن ومراكز التجارة، وصولا الى نشر مراكز الثقافة والعلوم ، وهذه هي بالطبع أقوى آثار التزاوج بين العرب والافارقة على الاطلاق وأبقاها على مر السنين.

٥ ـ الاستعمار الأوروبي يمزق ويقسم :

غير ان المد الحضاري العربي وتزاوجه الناجح في الساحل الشرقي لافريقيا تعرّض منذ بداية القرن السادس عشر الميلادي لجزر شديد ولأزمة حقيقية وخانقة، قلصت انتشاره واشعاعه.

فقد ظهرت في الأفق قوى سياسية أخرى بدأت تمد اطرافها الى كل مكان في العالم، وتضع أقدامها عند كل نقطة استراتيجية او مركز تحكم، وفي نفس الوقت كانت القوة العربية قد أخذت في التدهور الحضاري بعد ان اصابتها أمراض التمزق والخلافات السياسية والمذهبية ، الأمر الذي ساعد كثيرا في أن تمد القوى السياسية الجديدة نفوذها وترث الدولة العربية الاسلامية التي هرمت وضعفت قواها.

كانت هذه القوى السياسية الجديدة هي الامبراطوريات

الاوروبية الناشئة والمتطلعة الى بسط نفوذها على العالم، والمتصارعة على السيطرة على طرق التجارة الدولية، وعلى احكام قبضتها بواسطة أساطيلها وجنودها على كل شبر توجد فيه ثروة.

هكذا بدأ العصر الاستعماري، الذي قسم العالم الى مناطق نفوذ، وكانت افريقيا وآسيا والوطن العربي أساسا هي «الكعكة» التي قسمت بل شرحت الى فطائر متناثرة رقيقة لكثرة الضعف والوهن ، تلك الحالة التي مازالت سائدة فيما يسمى الآن بالعالم الثالث.. آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، وفي مقدمتها الوطن العربي.. تلك المساحة الهائلة من الارض الكروية التي تضم الاغلبية الساحقة من سكان المعمورة، وتضم أكثر من ٨٠٪ من مواردها الخام ومصادر الطاقة بالاضافة الى الممرات الدولية ومناطق التحكم الاستراتيجي.

ومع كل ذلك فإن هذه المساحة كانت وما زالت خريطة الصراع الدولي المتكالب على تقسيم النفوذ وتوزيع القوى بين المتصارعين الكبار، سواء أكانوا برتغالا وانجليزا وفرنسيين وهولنديين بالامس القريب، أو كانوا امريكيين وسوفيت في الوقت الحاضر.

كيف اذن ومتى بدأت مسيرة الصراع الدولي على القرن الافريقي، في اطار خريطة توزيع القوى في العالم الاستعماري ثم في العصر الراهن ، عصر القوتين العظميين.

كيف تأثر القرن الافريقي ــ بل القارة الافريقية كلها ــ مثلما تأثر الشرق الأوسط، او بمعنى أصح الوطن العربي بهذه التطورات الجديدة في السياسة الدولية ؟

●●●● ● ●●●●

في البداية نقول إن من الملاحظ أن ارتباطا واضحا قد حدث بين التطورات السياسية والاقتصادية التي شهدتها المنطقتان: القرن الافريقي كجزء من القارة الافريقية، والوطن العربي الذي يحتل المساحة العظمى من الشرقين الأوسط والأدنى. ويمكن القول ان فترات التلازم والترابط قد وضحت من خلال عدة مراحل هي:

* **المرحلة الاولى:**

وهي التي بدأت باقامة جسر العلاقات والترابط بين العرب والساحل الشرقي لافريقيا منذ الهجرات الاولى التي خرجت في فجر التاريخ من الجزيرة الى هذا الساحل، وصاحبتها هجرات مماثلة طرقت الدروب الافريقية عبر مسلكين آخرين، مسلك مصر ووادي النيل صعودا الى السودان فوسط افريقيا، ومسلك مصر فالمغرب العربي ثم جنوبا عبر الصحراء الكبرى الى غرب افريقيا.

وقد رأينا في الصفحات السابقة كيف توالت الهجرات العربية من شبه الجزيرة الى افريقيا، وكيف توطدت موجاتها خاصة في شرق افريقيا واقامت ممالك لها هناك، مثل تلك التي اقيمت في غرب ووسط القارة، وفي كل الحالات امتزجت الحضارة العربية بالبيئة الافريقية.. وأخرجت نتاجا بشريا وحضاريا له معالمه الخاصة حتى اليوم رغم كل «عوامل التعرية» السياسية التي جاءت بعد ذلك تمحو آثار الماضي.

* **المرحلة الثانية:**

وهي التي بدأت في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، عندما نجح المستكشفون البرتغاليون في اكتشاف الطريق البحري الدائري عن طريق رأس الرجاء الصالح، واقاموا لهم مراكز تحكم على سواحل افريقيا وبخاصة الشرقية، وبذلك

نجحوا في تحويل تجارة الشرق من طريقها التاريخي عبر الوطن العربي الى اوروبا، وصارت تجارة الشرق تأتي من الهند والصين الى المحيط الهندي ثم عبر رأس الرجاء الصالح ملتفة حول افريقيا الى القوى السياسية الناشئة والصاعدة في اوروبا.

وبذلك بدأ أولا العصر الاستعماري المظلم الذي عانى منه العرب والافارقة على السواء، وبدأ ثانيا عصر الركود الاقتصادي الكبير نتيجة لحرمان العرب والافارقة من ابناء الساحل الشرقي من السيطرة على طريق تجارة الشرق، ثم بدأ ثالثا عصر الاظلام الحضاري في الشرق الاوسط وافريقيا بل وحوض البحر المتوسط نتيجة هذا الكساد التجاري، الذي على انقاضه انتعشت سواحل الاطلنطي.

ومن الملاحظ أن فترة الاظلام الحضاري هذه التي نشرت الاستعمار الاوروبي الحديث في افريقيا قد صاحبها توسع سياسي وعسكري للامبراطورية العثمانية التي لم تستطع فيما بعد الاحتفاظ بما سيطرت عليه باسم الخلافة الاسلامية، بل نجحت في تحطيم الأسس الحضارية في المنطقة، وبالتالي هيأتها للسقوط فريسة سهلة في يد الاستعمار الاوروبي، الذي جاء يرث الرجل المريض — الامبراطورية العثمانية.

* المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة التي يمكن ان تسمى بعصر «التنوير» في البلاد العربية، والتي بدأت مع بداية القرن التاسع عشر ومدت أشعتها وتأثيراتها الى القارة الافريقية والى سواحلها الشرقية بوجه خاص.

ورغم ان الاستعمار الاوروبي نجح الى حد كبير في تمزيق العلاقات العربية الافريقية خلال المرحلة الثانية — من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر — وفي تشويه الأثر العربي في

القارة الافريقية، مستغلا تهمتي الاستغلال التجاري وتجارة الرقيق، الا ان عصر الاستنارة الذي بدأه محمد علي في مصر مع بداية القرن التاسع عشر قد امتدت آثاره الى الوطن العربي مثلما امتدت الى افريقيا خاصة الى وسطها وشرقها حيث بدأت هناك بشائر عصر استنارة مماثل وإن لم يطل كثيرا.

* **المرحلة الرابعة:**

وقد بدأت في القرن التاسع عشر نفسه الذي شهد مولد عصر التنوير في الوطن العربي وافريقيا، عندما أحس الاستعمار الاوروبي بخطورة ترك هذا التنوير الحضاري يتنامى و ينضج.. فقرر ممثلوه على الفور ضرب بؤرة الاستنارة في مصر، وتكالبت القوى الاستعمارية على «مصر الحديثة» فمزقوا اسطولها في موقعة «نافارين» وسحقوا جيشها وقلصوا تأثيرها وحاصروها داخل حدودها الاقليمية، حتى لا تعود فتلتحم بالعرب والافارقة من جديد.

واذا كانت مصر قد انهزمت بل واحتلت فيما بعد ــ في عام ١٨٨٢ــ فان ظاهرة الاحتلال الاوروبي قد امتدت لتشمل تقسيم كل الوطن العربي وافريقيا الى مناطق نفوذ ومصادر استغلال واحتكار للثروات المادية والبشرية الهائلة ، فعاد عصر الاظلام من جديد يمد استاره على العرب والافارقة معا دون تفرقة وفي تلازم وتتابع زمني منتظم.

* **المرحلة الخامسة:**

وهي تلك التي شهدها منتصف القرن العشرين، وفيها نضجت القوى الوطنية العربية والافريقية، وشهدت البلاد العربية والافريقية في تلازم وتتابع زمني ــ ايضا ــ وتحت تأثيرات متبادلة ثورات الاستقلال والتحرر، ويمكن القول إنه في خلال عشرين عاما تقريبا

ما بين عامي ١٩٤٥ و١٩٦٥ استقل اكثر من ٩٠٪ من البلاد العربية والافريقية ، وكانت ثورات التحرر الوطنية مثل شرارة اللهب تنتقل بسرعة خاطفة بين العرب والافارقة، ناقلة شعلة الاستقلال والتحرر بين شعوب ارتبطت في الماضي وتعارفت وتعاونت قروناً طويلة.

* **المرحلة السادسة:**

وهي المرحلة التي نشهدها حاليا، والتي بدأت بانحسار موجات المد الاستعماري الاوروبي التقليدي عن الوطن العربي وافريقيا وحلول عصر الاستقلال الوطني والتحرر القومي، ونشوء دول ونظم سياسية متباينة، وبروز منظمات سياسية اقليمية مثل الجامعة العربية ومنظمة الوحدة الافريقية، وتقسيمات مدسوسة مثل: الفرانكوفون (الناطقون بالفرنسية) في غرب افريقيا، والانجلوفون (الناطقون بالانجليزية) في وسط وشرق افريقيا، والعربفون (الناطقون بالعربية) في شرق وشمال افريقيا.

لكن الظاهرة الخطيرة في هذه المرحلة السادسة هي عودة الاستعمار الجديد الى منطقتنا متخفيا هذه المرة، لا وراء العسكر والاسلحة ورايات الغزو المباشر ــ كما فعل الاستعمار القديم ــ بل بازياء حديثة وشعارات براقة يحملها خبراء ومدربون وجواسيس وعملاء ومهنيون ورجال دين كذلك.

وفي هذه المرة كان المتصارعان الاساسيان هما الاتحاد السوفيتي ممثلا للمعسكر الاشتراكي، والولايات المتحدة الامريكية ممثلة للمعسكر الرأسمالي الغربي، وكانت مناطق الصراع الأساسية الساخنة ــ حتى الان ــ ثلاثا هي:

١) افريقيا ٢) الشرق الاوسط ٣) جنوب شرق آسيا

بعد هذه الملامح العامة لمراحل الترابط والتلازم بين الافارقة والعرب بوجه عام خلال فترات التدهور واليقظة نعود الى التفصيل .... كيف ساد العصر الاستعماري الاوروبي الحديث كلا من الوطن العربي والقرن الافريقي..؟ وكيف دخلت المنطقتان معاً خريطة الصراع الدولي في العصور الماضية ثم في العصر الراهن في ظل صراع القوتين العظميين؟؟؟

كانت البداية هي عصر الكشوف البحرية البرتغالية، التي أحدثت أثرين أساسيين:

١ ــ أحدثت أثرا ايجابيا هائلا للبشرية، وهو اكتشاف مزيد من الطرق البحرية ورسم كثير من الخرائط الملاحية العصرية، وكان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح واحداً من أعظم هذه الكشوف على الاطلاق لما خلف من آثار سياسية واقتصادية عميقة في العلاقات الدولية وتوازن القوى وازدهار التجارة لحساب طرف على حساب آخر.

٢ ــ لكنها أحدثت أثراً سلبياً خطيراً، وهو بداية عصور الاظلام الاستعماري التي شهدت هجمة استعمارية من البرتغاليين أولا، ثم من القوى والامبراطوريات الاوروبية بعد ذلك متصارعة على تمزيق العالم ومحاولة السيطرة عليه واستغلاله واستنزاف ثرواته.

على أن هناك من ردد كثيرا ــ خاصة في بعض المراجع الاوروبية ــ أن الكشافة البرتغاليين عندما شقوا طريقهم من بلادهم الى الشرق مع غروب القرن الخامس عشر وبداية شروق القرن السادس عشر، لم يصطدموا بقوة تذكر أو لم يتوقفوا عند حضارة مهمة ، كأنهم شقوا أمواج البحر وساروا في أرض قفر، حتى اكتشفوا السواحل الشرقية لافريقيا ورأس الرجاء الصالح، وحولوا طرق التجارة العالمية القادمة

من الشرق الى الغرب عبر الوطن العربي وشرق افريقيا والبحرين الاحمر والابيض المتوسط. ولكن الواقع العلمي يقول غير ذلك ، فقد كانت «الصدمة الحضارية» الاولى للبرتغاليين في ساحل شرق افريقيا، حيث نمت هناك مراكز حضارية عربية افريقية ممتزجة ، أشاعت ازدهارا اقتصاديا وارفا في المنطقة وتحكمت بخبرة أبنائها في ملاحة المحيط الهندي ، وقد شهد بذلك أشهر الرحالة البرتغاليين فاسكو دي جاما Vasco De Gama ودوراتي باربوسا Barbossa — DURATE الذي وصف المراكز التجارية العربية على الساحل الشرقي لافريقيا عندما وصل اليه بما يلي :

ما إن وصلت المراكب الصغيرة التي كان يقودها فاسكودي جاما الى سفالة (جنوب موزمبيق) حتى فوجئت مفاجأة لم تكن تتوقعها، فقد لقي البحارة البرتغاليون مالم يكن في حسبانهم، حين خرجوا يضربون في البحر ، لقوا مرافىء تطن كخلايا النحل، ومدنا ساحلية عامرة بالناس، وفرحوا حين وجدوا بين الرحالة العرب رجالا عبروا المحيط الهندي مرات عديدة، ويعرفون من أجل ذلك دقائق مرافئة وسجلوا هذه الدقائق في خرائط متقنة لا تقل فائدة عما كانوا يعملونه من خرائط في أوروبا، رأى البرتغاليون على هذا الساحل مدنا آهلة بالسكان لا تقل نشاطا عن مدنهم في البرتغال، ورأوا تجارة بحرية نافعة في الذهب والحديد والعاج والخرز وجلود السلحفاة والأقمشة القطنية ، ووجدوا عالما تجاريا أوسع من عالمهم الذي جاءوا منه وأكثر ثراء من بلادهم .. حتى السفن التي وجدها البرتغاليون كانت أكبر من سفنهم وأضخم حجماً، حتى لقد عجب سكان الساحل .. من أين جاء البرتغاليون وكل البلاد عندهم معروفة .. ؟ (٣٧)

(٣٧) دراسة الدكتور جمال زكريا عن تفكك العلاقات العربية الافريقية ، تاريخ العلاقات العربية الافريقية، مرجع سابق.

هذه شهادة برتغالية على قوة المراكز الحضارية العربية الافريقية في الساحل الشرقي لافريقيا التي بدأت مراحل الصدام العنيف بينها وبين الاستعمار البرتغالي القادم من وراء البحر. وهنا يجدر رصد عدة ملاحظات:

أولا:

إن الصدام كان حتمياً بين المراكز الحضارية العربية الافريقية على الساحل الشرقي للقارة الافريقية، وبين الاستعمار البرتغالي لسبب حيوي وجذري، هو أن البرتغاليين حولوا تجارة الشرق الى رأس الرجاء الصالح.

ثانياً:

إن البرتغاليين تحولوا الى جيش غزو لاخضاع الساحل الشرقي لافريقيا وتحطيم مقاومته لكشوفهم البحرية وخاصة لتحويل طرق التجارة ثم بدءوا باحكام سيطرتهم العسكرية على هذا الساحل واخضاعه بالقوة المسلحة، مفتتحين بذلك عصر القهر الاستعماري الاوروبي.

ثالثاً:

إن اخضاع هذا الساحل الشرقي لافريقيا لم يكن كافيا، فثمة ارتباط وامتداد عضوي له على السواحل المواجهة في الجزيرة العربية تؤازره وتدعمه وتمده عبر التاريخ بالمدد البشري والاقتصادي والديني، فاتجه الغزو الاستعماري البرتغالي الى اخضاع سواحل الخليج العربي والجزيرة، ليس فقط لقطع خطوط المساعدة عن ساحل شرق افريقيا بل أساساً لاحكام القبضة الحديدية على الطرق التجارية، والبحرية المتحكمة في تجارة الشرق، وكانت هذه السواحل هي الاخرى

متحكمة في هذه التجارة التي تمر عبرها الى البحر الاحمر والبحر الابيض متدفقة الى أوروبا ، وسرعان ما سقطت بفعل ضعفها السياسي تحت سيطرة البرتغاليين الذين سيطروا عليها مدة تقرب من مائة وخمسين عاما متصلة.

رابعاً :

إن نجاح الاستعمار البرتغالي في تحويل تجارة الشرق الى راس الرجاء الصالح، وقهر المراكز التجارية العربية والافريقية على طول السواحل المطلة على المحيط الهندي، قد ادى الى كساد اقتصادي في ثلاث مناطق أساسية فقدت أهميتها تدريجيا، هي: الشرق الاوسط، وسواحل شرق افريقيا، ودول حوض البحر المتوسط، يقابل ذلك ازدهار حضاري في مناطق اخرى هي المطلة غربا على المحيط الاطلنطي والتي استفادت من انتقال التجارة ومرورها عبر سواحلها وموانيها.

خامساً :

ساعد نجاح البرتغاليين في قهر المراكز الحضارية العربية عند الساحل الشرقي لافريقيا على الترابط والامتزاج العربي الافريقي، فنتيجة للصدام الدامي بين هذه المراكز والمدن والامارات وبين قوى الاستعمار البرتغالي الحديثة والقوية، لجأ العرب الذين كانوا قد استقروا على الساحل الافريقي الى الداخل وتزايد ترابطهم بالوطنيين الافريقيين وتأثيرهم المتبادل أكثر من ذي قبل، الامر الذي وحد العنصرين في مواجهة الخطر الجديد القادم، وفتح أعينهم على أن هناك اطماعاً غريبة تحوم حول بلادهم وتهدد ازدهار حياتهم واستقرارهم ، فاضطر العرب والافارقة الى خوض حروب مستمرة،سواء في الساحل الشرقي لافريقيا أو في سواحل الجزيرة العربية ذاتها، ضد الاستعمار

البرتغالي .

وفي هذا الصدد من المفيد أن نستعين بالدراسة العلمية التي كتبها الدكتور جمال زكريا قاسم الاستاذ بكلية آداب جامعة عين شمس (٣٨)، وفيها يؤكد أن الاستعمار البرتغالي مر بفترة حرجة نتيجة خضوع البرتغال للحكم الاسباني فيما بين عامي ١٥٨٠ و ١٦٤٠ .. وقد ساعدت هذه الظروف على ظهور دولة عربية فتية في الجزء الجنوبي الغربي من الخليج العربي، وهي دولة «اليعاربة» في عمان ١٦٢٤ ، ١٧٤١ ، تولت مسئولية الصراع العربي ضد البرتغاليين، ونجحت في عهد حكامها الأوائل (ناصر بن مرشد ١٦٢٤ — ١٦٤٩ ، وسلطان بن سيف ١٦٤٩ — ١٦٦٨) في القيام بحركة تحريرية كبرى لم تقتصر على مناطق النفوذ البرتغالي في الخليج أو سواحل الجزيرة العربية، وانما امتدت هذه الحركة التحريرية الى قواعد البرتغاليين وقلاعهم في الهند، وفي سواحل شرق افريقيا، وليس من شك في أن اتجاه عرب عمان الى تحرير السواحل الشرقية من افريقيا، انما يؤكد لنا عمق الروابط التي كانت تجمع بين عرب عمان واخوانهم من شعوب الساحل الشرقي لافريقيا. وقد كان أعظم انتصار حازه العمانيون على البرتغاليين نجاحهم في اخضاع «ممباسا» في ١٤ ديسمبر عام ١٦٩٨ بعد حصار عنيف دام ثلاثة وثلاثين شهرا، سقطت خلاله أقوى قلعة أقامها البرتغاليون في ساحل شرق افريقيا، وكان من نتيجة ذلك وضع نهاية لتفوق البرتغاليين في المنطقة الساحلية، الممتدة من راس «دلجادو» الى خليج «غردفون» .

لقد خاض العرب والافريقيون كفاحا مشتركا لتحرير شواطىء هذه المنطقة من شرق افريقيا من الغزو البرتغالي، ونتيجة

(٣٨) المرجع السابق.

للمحاولات الدائبة التي بذلها البرتغاليون لاستعادة سيطرتهم قدر سكان الساحل الشرقي من افريقيا أهمية التجائهم الى عمان، لحمايتهم من البرتغاليين، حيث تم وضع الأساس لحكم عربي امتد على جزء كبير من سواحل شرق افريقيا.. وعلى الرغم من ان العمانيين مارسوا مسئوليات الحكم خلال الفترة التي اعقبت انسحاب البرتغاليين فان نصيبهم من الحكم لم يكن إلا نصيبا اسميا ، وفي تقديرنا ان ضعف السيطرة العمانية على ساحل شرق افريقيا في عهد دولة اليعاربة يرجع الى عوامل عديدة، من بينها أن أسرة اليعاربة استنفذت معظم جهودها في صراعها ضد البرتغاليين.. أضف الى ذلك انها عانت من صراعات داخلية بسبب الحروب والثورات الأهلية والغزوات الخارجية، مما أدى الى سقوطها وقيام دولة «البوسعيد» منذ عام ١٧٤١ تحت رعاية مؤسسها الامام احمد ابن سعيد ١٧٤١ ــ ١٧٨٣ ، وهي الدولة التي مارست ايضا سياسة توثيق علاقاتها السياسية والاقتصادية بشرق افريقيا.. حتى ان أحد سلاطينها وهو سعيد بن سلطان نقل عاصمة ملكه من مسقط الى زنجبار في عام ١٨٣٢ ، في وقت كانت المهجرات العربية والاسلامية قد نجحت في تدعيم واقامة عدة ممالك وامارات قوية ومستقلة أحاطت بالهضبة الحبشية، وعلى امتداد الساحل الصومالي الارتري.

ونتيجة للتدخلات الاجنبية في الساحل الشرقي لافريقيا حدث منذ القرن السادس عشر نوع من الاستقطاب في القوى المحلية، ففي الوقت الذي حدثت فيه الاستكشافات البحرية البرتغالية وامتدت السيطرة الاستعمارية البرتغالية على السواحل والموانى في تجارة الشرق، برز في الأفق «العصر العثماني» بما صاحبه من توسع الامبراطورية العثمانية لتحتل الوطن العربي كله تقريبا، وهكذا رفع البرتغاليون راية المسيحية، وفي نفس الوقت رفع العثمانيون في

المقابل راية الاسلام ، وتحول الصراع الاستعماري بين امبراطوريتين توسعيتين الى صراع تحت شعارات دينية.

المهم هنا ، هو ان القرن الافريقي تعرض منذ القرن السادس عشر لحركة الاستقطاب بين توسع الامبراطوريتين البرتغالية والعثمانية،فبينما تطلع الحكم المسيحي في الهضبة الحبشية الى الامبراطورية البرتغالية، تطلعت الامارات والممالك الاسلامية المحيطة بالهضبة والممتدة على الساحل الصومالي الارتري الى الامبراطورية العثمانية.

وكان كل طرف من هذين الطرفين المحليين يبحث عن حماية ودعم ضد الطرف الآخر، باسم الدين وتحت رايته، لكنه بالتأكيد كان «صراع قوى» تستقطبه قوى أكبر جاءت من خارج المنطقة تبحث عن النفوذ والسيطرة والتوسع ، وبينما كان هدف الحكم المسيحي في الهضبة الحبشية القضاء على الامارات الاسلامية المحيطة به مستعينا بالدعم البرتغالي ، كان هدف هذه الامارات الاسلامية التوسع الى داخل الحبشة نفسها مستعينة بالدعم العثماني في المقابل.

وقد كانت ثورة الامير «جرانيا» وهو الامام احمد بن ابراهيم امير هرر - احدى مقاطعات الصومال الغربي المسمى بالاوجادين حاليا - ضد نجاشي الحبشة في النصف الاول من القرن السادس عشر هي ابرز نتائج حركة الاستقطاب التي اشرنا اليها ، فقد نجح هذا الامام في غزو الهضبة الحبشية نفسها، وطارد النجاشي «لبنادنقل» الذي سارع بعقد حلف مع البرتغال، لمواجهة الدعم العثماني لأمير هرر ، وقد ظل الصراع بين الطرفين حتى قتل الامام جرانيا في عام ١٥٤٢ بايدي قوات الحملة البحرية البرتغالية التي سارعت لنجدة النجاشي.

ولقد ظلت منطقة الساحل الشرقي لافريقيا خاضعة لحركة الاستقطاب هذه فترة طويلة تحت الستار الديني في معظم الاحيان، نتيجة لانتشار الدين المسيحي في معظم الهضبة الحبشية، والدين الاسلامي في بعض اجزاء الهضبة وفي معظم الامارات المحيطة بها وعلى طول الساحل، وخاصة بفضل التأثير النفاذ الذي تركته الطرق الصوفية المعروفة والسائدة هناك حتى اليوم وهي: القادرية والشاذلية والختمية.

والثابت تاريخيا أن هذه الامارات والممالك العربية الاسلامية قد رسخت دعائم الحضارة والثقافة التي جاءت بها من الجزيرة العربية قديما ثم من مصر حيث الجامع الأزهر فيما بعد، ولقد كان للعلاقة الخاصة التي نشأت منذ القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر بين مسلمي هذه الامارات وبين مصر أثر كبير في مساعدة الجيش المصري في الانتشار في الساحل الشرقي لافريقيا، وقيام الحكم المصري في هرر وزيلع والساحل الصومالي، وهو الحكم الذي استمر حتى عام ١٨٧٧. عندما هزم الجيش المصري، ومع هزيمته تداعت هذه الامارات وانهارت، وبخاصة على يد امبراطور الحبشة «منليك» (١٨٨٩ــ١٩١٣) الذي بزغ نجمه بمساعدة الامبراطوريات الاوروبية، واليه يعود الجهد الحبشي في التوسع ومد سيطرة الامبراطورية الحبشية بحدودها القائمة الآن.

على أنه لم يبق من الامارات العربية والاسلامية في القرن الافريقي سوى سلطنة «جـما» التي بقيت قائمة حتى ثلاثينات القرن العشرين عندما نجح هيلاسي لاسي آخر امبراطور حبشي في ضمها بالقوة الى امبراطوريته (٣٩).

والثابت تاريخيا ايضا ان اليقظة المصرية التي بدأت ببناء الدولة

(٣٩) الاسلام في الحبشة ــ يوسف احمد.

العصرية منذ اوائل القرن التاسع عشر، قد مدت اشعاعها الى افريقيا كلها وخاصة الى شرق ووسط القارة، وهو الاشعاع الحضاري الذي بلور لأول مرة في العصر الحديث حقيقة الدور المصري الافريقي كدور رائد في الحضارة والمدنية والثقافة في القرن التاسع عشر، ثم في التحرر والاستقلال في القرن العشرين.

وسواء كان الهدف المصري في القرن التاسع عشر، هو تحقيق مزيد من الاستكشافات خاصة لأعالي النيل، ونشر المدنية والحضارة الحديثة بين الشعوب الافريقية، أم كان هدفا سياسيا بحتا يرمي الى تحقيق التوسع للامبراطورية المصرية ولحماية اطرافها ومواجهة الاستعمار الاوروبي، فإن من المؤكدان الوجودالمصري قد بلغ أوسع انتشاره في عصر الخديو اسماعيل الذي كانت له سياسة محددة ومعلنة في افريقيا حيث قام الوجود المصري في منطقة البحيرات الاستوائية والسودان في وسط القارة الافريقية، وفي بعض الأقاليم الحبشية، والصومال وعلى طول ساحل البحر الأحمر، الأمر الذي حول مصر الى امبراطورية لها ممالك كثيرة ومتسعة في افريقيا، خاصة في الشرق، فيها المدن والمدارس والمستشفيات، ويعسكر فيها ايضا الضباط والجنود المصريون، وأصبحت السياسة المصرية في افريقيا عاملا مؤثرا في موازين السياسة الدولية. وكانت نتيجة لذلك احدى العقبات الأساسية التي واجهتها القوى الاستعمارية الاوروبية الحديثة ــ خاصة بريطانيا ــ حين بدأت توسعها وبسط نفوذها في افريقيا بعد تقسيمها.

ثم اضطرت مصر الى سحب وجودها من افريقيا الوسطى والشرقية تحت عدة ضغوط أهمها:

أولا:

تصاعد النفوذ الاوروبي وقوته الغلابة، في مواجهة قوة محدودة

كانت تمتلكها مصر ، وقد استطاعت انجلترا بالذات ان تضغط على الخديو اسماعيل حتى اجبرته على وقف سياسته الافريقية وتقليص نفوذه و بالتالي سحب جيوشه.

ثانيا :

لم تستطع مصر أن تستمر في سياستها الافريقية هذه بسبب الأزمة المالية الخانقة التي تعرضت لها في عهد الخديو اسماعيل بالذات، الأمر الذي أدى تقريبا الى إفلاسها و بالتالي اضطرها الى تحجيم نشاطها الواسع ووقف سياستها الخارجية خاصة فيما يتعلق بدور مصر الافريقي.

ثالثا :

إن مصر نفسها سقطت في يد الاحتلال البريطاني منذ عام ١٨٨٢ بعد الثورة العرابية، الأمر الذي أنهى الوجود المصري الفعال في شرق افريقيا أولا، ثم في وسطها خاصة في السودان الذي كان قد شهد قيام الثورة المهدية هو ايضا.

ولقد أدى الانسحاب المصري من شرق افريقيا ووسطها الى قيام فراغ ضخم في هذه المناطق ، وكان مقصودا بالطبع الوصول الى مرحلة هذا الفراغ، حتى تستطيع الامبراطوريات الاوروبية الحديثة أن تمد نفوذها وترث المنطقة وتعيد تقسيمها ، وهكذا شهد القرن التاسع عشر موجة جديدة من الاستعمار الاوروبي تهب بعنف على الاراضي الافريقية عامة، وشرقها خاصة.

وبرزت في الأفق الامبراطوريات : البريطانية، والفرنسية، والالمانية، والايطالية.. وكلها تتصارع بعنف وتتسابق بنشاط لاقتسام مناطق النفوذ وتوزيع الارث وخاصة ما كان يطلق عليه وقتها «أرض بلا صاحب». وما كان أكثر تلك الأراضي التي وضعها الاستعمار الأوروبي تحت هذا الشعار خاصة في افريقيا.

٦ ـ الانسحاب المصري أمام الهجوم الأوروبي الحبشي :

لقد كان للوجود المصري في شرق افريقيا أثره البالغ في تعطيل الزحف الاستعماري الاوروبي على المنطقة، لكنه لم يستطع أن يوقفه ويحد من توسعه بل إن التكالب قد زاد بين الامبراطوريات الاوروبية المتصارعة خاصة بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، وهو التكالب الذي لم يكن قاصرا على منطقة القرن الافريقي بل كان موزعا على مناطق اخرى كثيرة من العالم الذي كان يعاد تقسيمه بين القوى الاوروبية الحديثة.

وبعد أن استولت بريطانيا على عدن في عام ١٨٣٩، مدت بصرها التوسعي الى الساحل الغربي المقابل لعدن عبر مضيق باب المندب ، وهو الساحل الصومالي حتى ذلك الوقت. واعتمدت الاستراتيجية البريطانية آنذاك في التوسع غربا على عدة أسباب جوهرية :

(١) امداد قوات الامبراطورية البريطانية في عدن وفي غيرها شرق السويس باللحوم والمواد الغذائية الاخرى المتوافرة بكثرة في الساحل الصومالي.

(٢) تأمين الساحل الصومالي المواجه لقاعدتها في عدن، والتحكم من الغرب في المداخل الجنوبية للبحر الأحمر وبالتالي لقناة السويس، ولتأمن الحكومة البريطانية من أن تقفز احدى القوى الأوروبية المناوئة الى هذا الساحل، حيث يتعرض طريق التجارة البريطانية من والى الشرق حينئذ للخطر الداهم.

(٣) كان التوسع في افريقيا والسيطرة على مناطق التحكم الاستراتيجي والمعابر والمضايق المائية القابضة على طرق التجارة الدولية احدى ركائز الاستراتيجية البريطانية، باعتبارها أكثر الاستراتيجيات الدولية سيطرة ونفوذا في العالم في ذلك الوقت.

ولم تكن بريطانيا وحدها في هذا الاتجاه، بل ان ايطاليا وفرنسا شاركتاها في السباق على السيطرة على شئون افريقيا. فقد كان لايطاليا وجود مباشر في ارتريا وسواحل الصومال الجنوبية، وفي نفس الوقت كانت اطماعها تمتد عبر اراضي الحبشة ذاتها، بينما أظهرت فرنسا اهتمامها هي الأخرى بالمنطقة منذ عام ١٨٣٠، خاصة انها لم تكن ترغب في أن تبقى أسيرة القوات البريطانية في عدن المتحكمة في تموين اساطيلها المتجهة الى مستعمراتها في مدغشقر وفي الهند الصينية ايضا.

ولقد جاء مؤتمر برلين ١٨٨٤ ــ ١٨٨٥، ليضع خريطة تقسيم القارة الافريقية ويقنن السباق الاستعماري الاوروبي، ويحدد لكل دولة من هذه الدول الاستعمارية حدود مستعمراتها الجديدة ، بالاضافة الى أنه اعترف لأول مرة بقوة محلية افريقية أخرى ــ هي الحبشة ــ وأعطاها نصيبا من التوسع الاقليمي على حساب الاراضي الصومالية.

وعلى هذا جاءت نهاية القرن التاسع عشر لتشهد ثلاثة مظاهر أساسية في المنطقة:

(١) خروج القوات المصرية من هرر والسواحل الشمالية للصومال تحت الضغط البريطاني والافلاس المالي.
(٢) تقسيم اراضي الوطن الصومالي الكبير الى ثلاثة اجزاء بين ثلاث امبراطوريات اوروبية هي بريطانيا وايطاليا وفرنسا.
(٣) بروز الدور الحبشي الذي ساهمت الامبراطوريات الاوروبية في دعمه واهدائه المناطق الداخلية من الصومال خاصة اقليم الصومال الغربي، وأبو.

واهتمت بريطانيا بالذات بمحاولة أكتساب شرعية مظهرية عن طريق عقد اتفاقيات حماية مع زعماء المناطق التي سقطت تحت سيطرتها في الفترة من ١٨٨٤ ــ ١٨٨٦. وكانت ابرز هذه الاتفاقيات تلك التي وقعتها مع زعماء قبائل ساحل الصومال الشمالي والتي نصت فيها على :

* اخراج القوات المصرية من هذه المناطق.

* موافقة زعماء القبائل على حماية بريطانيا لاراضيهم الصومالية.

وسرعان ما سارت فرنسا في الطريق البريطاني.. طريق البحث عن الشرعية بتوقيع الاتفاقيات غير المتكافئة ، فعملت على توقيع اتفاقية مماثلة بينها وبين الصوماليين والدناكل سكان المناطق التي وقعت تحت سيطرتها هي الاخرى (٤٠).

ولم تكن ايطاليا كذلك ببعيدة عن هذا الاتجاه، فقد وصل الايطاليون في عام ١٨٨٩ الى سواحل جنوب الصومال، وابرموا اتفاقيات حماية مماثلة مع الحكام والسلاطين المحليين، فتمكن الايطاليون من السيطرة على كل ساحل «بنادر» في عام ١٨٨٩ من منطقة تقع جنوب خليج عدن وحتى مدينة كسمايو ، وواجهوا مقاومة عنيفة من الصوماليين، لكنهم تمكنوا حتى عام ١٨٩١ من عقد اتفاقيات الحماية هذه مع زعماء اوجادين في الصومال الغربي.

وأصبح هم الدول الاستعمارية الثلاث تثبيت مناطق نفوذها في الصومال الذي أصبح عمليا ممزقا الى اربعة اقسام تخضع لبريطانيا وايطاليا وفرنسا والحبشة ، ومن اجل ذلك وقعت هذه الدول اتفاقيات

(٤٠) راجع الاتفاقيات البريطانية والفرنسية والايطالية مع الزعماء المحليين في نهاية الكتاب (الملاحق).

فيما بينها لتحديد مناطق النفوذ، مثل اتفاقية بريطانيا وفرنسا التي حددت الخطوط الفاصلة فيما بينهما، وأصبحت زيلع بداية الخط الذي يمر شمالا بكل من (بهاس و ين) و (بياقوبي) حتى يصل الى هرر(٤١).

ثم توصلت بريطانيا الى اتفاقية مشابهة مع ايطاليا، هدفها وضع خرائط الحدود وتقسيم الجسم الصومالي الكبير الى مناطق نفوذ مشتتة.

واذا كان هذا هو دور الامبراطوريات الاوروبية الثلاث، فما هو دور الحبشة في تقسيم الصومال، ذلك التقسيم الذي مازال لليوم بؤرة التوتر والعنف في القرن الافريقي؟

في البداية كانت العاصمة الحبشية قبل تقسيم المنطقة عام ١٨٨٤ مدينة «اكسوم» في الشمال ثم نقلت الى «جوندر» وأخيرا الى أديس أبابا الحالية في عام ١٨٩٠، ذلك أن اراضي المملكة الحبشية حتى نهاية القرن التاسع عشر كانت محصورة في اراضي الامهرة عند «كوجام» شمال اقليم «شوا» وجنوب اقليم «تجرى».. ومنذ نهاية القرن التاسع عشر، وفي ظل المساندة الاستعمارية الاوروبية التي كفلها مؤتمر برلين ١٨٨٤ــ١٨٨٥ بدأ التوسع الحبشي جنوبا وشرقا في اراضي الصومال الغربي وأبو، ولذلك تغير اسم الحبشة التاريخي القديم الى الاسم الحديث «اثيوبيا» موحيا باتساع الامبراطورية لتشمل شعوبا أخرى لم تكن في السابق ضمن الحكم الحبشي.

ولقد ذكرت «أرميري برهام» في كتابها-حكومة اثيوبيا ــ انه رغم عدم وجود خرائط مفصلة حول سيطرة الحكم الحبشي سنة ١٨٨٠، فانه كان من المعروف أن سلطة الحكومة لا تتعدى مائة ميل من مدينة اديس ابابا في ذلك الوقت، في حين كانت الاراضي شرق هذه المنطقة

(٤١) أساس مشكلة القرن الافريقي ــ عبدي عوالة جامع ــ مقديشو ١٩٧٨.

وغربها وجنوبها ملكا لشعوب اخرى وتحت سيطرتها الوطنية، (٤٢) الأمر الذي يثبت أن الاراضي الصومالية لم تكن حتى ذلك الوقت جزءا من الحكم الحبشي تاريخيا، بل هي تختلف عنها جغرافيا وبشريا ودينيا وحضاريا، لكن التوسع الحبشي في تلك الاراضي تم بمساعدة مادية وسياسية مباشرة من القوى الاوروبية لكي تبرز الى الوجود قوة حليفة تتفق سياسيا ودينيا وترتبط ثقافيا مع هذه القوى الأوروبية الصاعدة.. وهكذا برزت اثيوبيا (٤٣).

ولأن الحبشة مملكة داخلية، ليس لها سواحل على البحر، فقد كان ملوك الحبشة يحلمون على مر التاريخ بالوصول الى منفذ على البحر، ولقد كتب الامبراطور «منليك» مهندس التوسع الاثيوبي وصاحب الفتوحات والتوسعات الى جمعية بريطانية يحضها على مساعدته قائلا: إن زيلع وعدن تقع تحت أيدي المسلمين ولا استطيع الاقتراب منهما.

وبهذا أثبت منليك أنه كان يعمل للوصول الى البحر الاحمر ليجد لامبراطوريته منفذا ساحليا يفتح الباب أمامه على العالم الخارجي.

من أجل هذا الهدف استخدم منليك كل مشاعر العنصرية الدينية في حملته التوسعية ليكسب تأييد ومساعدة الدول الاوروبية، فكان يقول لزعماء هذه الدول ولرؤساء كنائسها إنه يعيش في جزيرة مسيحية محصورة بين مسلمين ووثنيين، وسرعان ما وجدت هذه العبارة تجاوباً في الدوائر السياسية والكنيسة الاوروبية، ولقد لعبت الكنيسة دوراً أساسياً في الضغط على الحكومات الاوروبية لمساعدة منليك وتمكينه من التوسع، فحصل على الدعم السياسي والدعم المادي وبخاصة الاسلحة الحديثة التي حسمت الامر لصالحه في نهاية الأمر.

---

(٤٢) المرجع السابق.

(٤٣) اثيوبيا.. اسم اصله يوناني ومعناه: «الوجه الاسود».

واستطاعت الحبشة أن تستفيد الى أقصى حد من تنازع الدول الاوروبية واختلاف أهدافها وتضارب سياستها تجاه القرن الافريقي، ولعبت على القوى الاوروبية الثلاث المتواجدة بالمنطقة: بريطانيا وفرنسا وايطاليا، فكانت النتيجة أن تدفقت عليها المعونات والأسلحة وبخاصة من بريطانيا وفرنسا، تلك الأسلحة التي قهرت بها زعماء الصومال الغربي وأبو شرق الحبشة، حيث كان هؤلاء الزعماء خلوا من الاسلحة الحديثة ومن التأييد السياسي الخارجي .. وهما عنصران لازمان لاي مجابهة متكافئة؛ امداد عسكري ودعم سياسي.

ولقد ركز منليك هجومه الاساسي آنذاك على «هرر» بعد أن تلقى دعماً ومساعدة ضخمة من الايطاليين الذين كانوا قد وقّعوا معه اتفاقا سريا للاستيلاء على هرر بعد خروج الجيش المصري وانسحابه نهائياً منها ، ورغم مقاومة حاكم هرر استطاع منليك الاستيلاء على المدينة بفضل التفوق التسليحي والمساندة الاوروبية الواسعة. وقد سارع منليك بعد اخضاع هرر بارسال الرسالة التالية الى المقيم البريطاني في عدن على الضفة الاخرى من البحر:

«من منليك ملك شوا وكل الجالا في الحسن والسيء، كيف حالك ؟ بمشيئة الاله نحن بخير، الامير عبدالله لن يتعرض لمسيحي في بلده، لقد كان «جرى» (٤٤) آخر،ولكن بفضل ومساعدة الرب حاربناه وحطمناه، وهرب بحصانه، ولقد رفعت علمي فوق عاصمته، واحتلت قواتي المدينة .. لقد كان خليفة جرى الذي مات منذ قرون.»

وفي رسالة أخرى من منليك الى رؤساء الدول الاوروبية بعث بها

(٤٤) جرى هو الامير احمد ابراهيم جرى حاكم هرر الصومالي في القرن السادس عشر حارب الحبشة في مواقع كثيرة قبل أن يتدخل البرتغاليون ضده.

في ١٨٩١ يقول: «اذا كانت هناك قوى قادمة من الخارج تعمل على اقتسام افريقيا فلا يمكن أن أقف موقف المتفرج.» (٤٥)

الامر الذي يؤكد اصرار منليك على أن تلعب الحبشة دوراً سياسياً بارزاً في التقسيم الاستعماري للمنطقة، وفي ممارسة بسط النفوذ على ارض الآخرين كقوة محلية تمارس دور الشريك في حملة التقسيم والتوسع على حساب أراضي الوطن الصومالي.

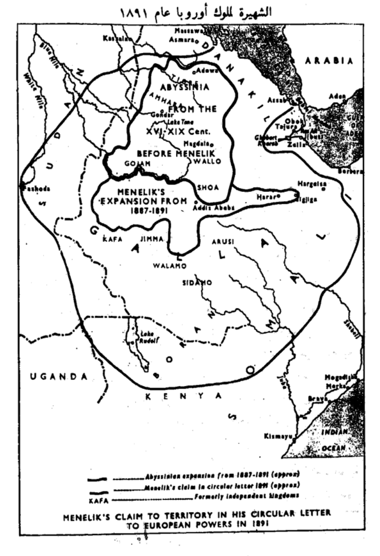
وترسيخاً لهذا الاتجاه عقدت الدول الاوروبية عدة اتفاقيات مع الحبشة خاصة في ١٨٩٧ تتناقض تناقضاً أساسياً مع تلك التي عقدتها نفس هذه الدول مع الزعماء المحليين، وفي ظل هذه الاتفاقيات استطاع منليك الاستيلاء على أراض صومالية جديدة بعد نجاحه في احتلال هرر.. ونلاحظ أن الاتفاقيات الفرنسية الحبشية الموقعة في ١٨٩٧ قد اختصرت عمق الحدود الفرنسية لصالح الحبشة، الامر الذي قلص مساحة الاراضي الصومالية الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي.

ويقول «رونل رود» رئيس البعثة البريطانية التي تفاوضت على معاهدة ١٨٩٧: الحقيقة أن الاراضي التي اعطيت للحبشة بموجب هذه المعاهدة لم تكن يوما من الايام أراضي حبشية لكنها أراض صومالية. وقد قال منليك أثناء تخطيط الحدود الجديدة: ان البريطانيين الذين تمثلهم يتقدمون تجاه أبواب هرر، لكني أجبته بأن الاحباش هم الذين تقدموا حتى وصلوا هرر، ولقد ورثنا هذه الأراضي عن المصريين، وعقدنا حلفاً مع السكان المحليين.

لكن الامبراطور منليك قال لي: إن هناك طموحات للامبراطورية الاثيوبية في هذه الأراضي، فأجبته: وماذا يدري الصوماليون القاطنون

(٤٥) راجع نص الرسالة في الملاحق.

حدود امبراطورية الحبشة كما تصورها الامبراطور منليك في رسالته الشهيرة لملوك أوروبا عام ١٨٩١



MENELIK'S CLAIM TO TERRITORY IN HIS CIRCULAR LETTER TO EUROPEAN POWERS IN 1891

في هذه الأراضي منذ قرون عن طموحات الامبراطورية الاثيوبية ؟؟

على أنه منذ ذلك التاريخ لم تتوقف بريطانيا عن اتاحة الفرصة للحبشة في التوسع وتسليمها أراضي صومالية جديدة، فبعد أن سلمتها هرر سلمتها «أوجادين» الصومالية كذلك طبقاً لمعاهدة ١٨٩٧، وفي عام ١٩٥٥ قامت بريطانيا بتسليم الحبشة منطقة «هود» الصومالية أيضاً.

ولقد كان من نتائج هزيمة الايطاليين في معركة «عدوة» أن عقدوا اتفاقية مع الحبشة تنازلوا بمقتضاها لهذه عن عدة أجزاء من منطقة الاوجادين التي كانت خاضعة لهم، ثم وقعت الدولتان في مايو ١٩٠٨ معاهدة جديدة لتحديد الحدود بين الاراضي الصومالية التي وقعت تحت الاحتلال الحبشي، وبين الاراضي الصومالية الواقعة تحت الاحتلال الايطالي.

وفي هذا الصدد يجدر أن نلاحظ روح التناقض البالغ بين الاتفاقيات أو معاهدات الحماية التي وقعتها الدول الاستعمارية الاوروبية مع سكان هذه المناطق الاصليين والتي كان هدفها المعلن هو «حماية» هؤلاء السكان من أي «عدوان» خارجي ، وبين تلك الاتفاقيات التي وقعتها نفس الدول الاوروبية مع الحبشة، والتي بمقتضاها سلمت الاولى للثانية أراضي لا تملكها في الأصل، وكان الهدف المشترك هو تدعيم التوسع الامبراطوري الاثيوبي، وقد تجسد هذا الهدف تماما في الاتفاق الذي وقع في عام ١٩٠٦ وشاركت فيه

الـدول الاوروبـيـة ، والـذي نـص صراحة على دعـم ومسـاعـدة الامـبـراطوريـة الاثـيـوبـيـة والمحافظة على كيانها وحدودها ــ الجديدة بـالـطـبـع ــ حيث أكدت الدول الاوروبية الموقعة ــ بريطانيا وايطاليا وفـرنـسا ــ في الفقرة الرابعة من الاتفاق التزامها الكامل بالمحافظة على «وحدة الامبراطورية الاثيوبية» اذا ما تعرضت الى أي تهديد.

وهـكـذا دخـلـت أثـيـوبيا شريكاً كاملا ومباشراً في عملية التقسيم الاوروبي لافـريـقـيـا ، وأصبح منليك الاثيوبي منشيء الامبراطورية الحديثة يرتدي نفس الزي الاستعماري لملوك اوروبا، كما سار خليفته الامـبـراطـور هيلاسي لاسي في نفس الطريق وبنفس الاسلوب، ووضع نـفـسـه في موضـع زعـمـاء اوروبا متحالفا معهم في الحرب والسلم على الـسـواء ، فاذا كان منليك قد أرسل بجيشه فيما بين ١٩٠٠ و١٩٠٤ لمساعدة حليفته الاستعمارية ــ بريطانيا ــ في اخماد الثورة المهدية في الـسـودان والـثـورة الـصـومـالـيـة بزعامة محمد عبدالله حسن الذي بدا ثورته مـنـذ ١٨٩٧، فـان هـيـلاسي لاسي تـطـوع بـارسـال بـعـض جنده ايضا لمساعدة امريكا في الحرب الكورية، تعبيرا عن التضامن في «السيء والحسن..».

على أنـه لـم تكد الحرب العالمية الثانية تنتهي حتى كان ٩٠٪ من مسـاحـة الاراضي الـصـومـالـيـة في يد بريطانيا،وكانت فرنسا تحتل جزءاً آخر. وقد أرادت بـريـطـانـيـا بحكم هذا الوضع أن تكتسب لاحتلالها الشرعية الدولية، فاقترح وزير خارجيتها ــ ارنست بيفن ــ وضع تلك الاراضي الـصـومـالـيـة تحت وصاية الامم المتحدة على أن تديرها بريطانيا

وكـان مـن الـطـبـيـعـي أن ترفض الامم المتحدة هذا الاقتراح في ذلك الـوقـت فـقـد اعترضت عليه بشدة الاطراف المتناقضة المصالح: أمريكا والاتحاد السوفيتي ثم فرنسا واثيوبيا.

وقد كان منطق بيفن ساعتها مبنياً على أساس أن نهاية القرن التاسع عشر شهدت اقتسام بريطانيا وفرنسا وايطاليا منطقة القرن الافريقي ثم انضمت اثيوبيا باحتلالها لمنطقة هود ، وقال بيفن ان هود هذه هي أرض المراعي التي يذهب اليها نصف سكان الصومال «البريطاني» لمدة ستة أشهر من كل عام ، وحركة تنقل الرعاة هذه تتم بانسياب واضح لان السكان في كل هذه المناطق ينتمون لاصول صومالية واحدة ويجدر وضعهم تحت ادارة واحدة وفي ظل وحدة سياسية موحدة .

لكن اثيوبيا كانت بلا جدال أكثر المعترضين تشددا،فقد فازت بمنطقتي الصومال الغربي وأبو نتيجة لاستيلاء الامبراطور منليك الثاني على مناطق العروس في ١٨٨٨ وعلى هرر في ١٨٨٧ وعلى بالي وسيدامو في ١٨٩٧ (٤٦).

وفي نفس ذلك العام عقدت الاتفاقية الفرنسية الحبشية والتي ضم بمقتضاها جزء آخر من الأراضي الصومالية الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي للحبشة بالاضافة الى الاتفاقية السرية الاخرى بين بريطانيا والحبشة في نفس العام ١٨٩٧ والتي تنازلت بريطانيا بمقتضاها عن أراض صومالية أخرى للحبشة .

ولقد ظلت اثيوبيا الامبراطورية تتمسك حتى اليوم بما حصلت عليه تحت الحماية الاوروبية من أراضي الصومال ، وهي هنا تسوق عدة مبررات تقول إنها قانونية وتاريخية مثل :

---

(٤٦) يقول ابراهيم واقورجوتو الذي قاد المقاومة الشعبية ضد الامبراطورية الاثيوبية إن سكان بالي وعروس وسيدامو صوماليو الاصل واللغة، حيث إن الشعب الصومالي يتحدث بلهجتين الاولى هي «واريا» والثانية «أبو» والكلمتان معناهما الصومالي القديم «الت».

•• من الناحية القانونية فان لاثيوبيا الحق في هذه الأراضي بمقتضى معاهداتها مع الدول الاوروبية السالفة الذكر، وان هذا رتب لها وضعاً قائماً Status Quo .. وان حقها هذا كان يجب أن يكتمل بحصولها على كل أراضي الصومال التي احتلتها الدول الاستعمارية الثلاث: بريطانيا وفرنسا وايطاليا ، وان هذه الدول لم تمكنها من ضم هذه الأراضي.

•• ومن الناحية التاريخية يقول الاثيوبيون انهم وصلوا الى بحيرة فكتوريا جنوبا بل حتى الخرطوم،بما فيه السودان الحالية وان حقوقهم تصل الى هذا المدى.

وقد قال الامبراطور منليك في رسالة وجهها عام ١٨٩١ الى اصدقائه من ملوك أوروبا: «إنه لو قدر له امتداد الحياة أكثر فانه يرغب في ضم تلك الاراضي التي تصل به الى الخرطوم وبحيرة فكتوريا جنوبا ..»

أي أن «الجنوب» هنا يعني ضم أراضي كينيا الحالية وليس الصومال فقط لكي يطل على بحيرة فيكتوريا ، بينما الحقائق التاريخية تقول إن الأحباش لم يكن الجنوب بالنسبة لهم يصل حتى نهاية القرن التاسع عشر الا لتخوم مملكة «اكسوم» بالقرب من حدود ارتريا شمالا، بل ان اديس أبابا العاصمة الحالية نفسها لم تكن لهم الا في أواخر ذلك القرن،وهي الفترة التي توسعوا فيها جنوباً تحت الحماية والتشجيع الاوروبي. حيث كانت الاصول الصومالية تقطن السهول المتاخمة للمرتفعات الحبشية القديمة لاكسوم،ولم تكن هناك أدنى علاقة بين هذه الأصول الصومالية وبين الأحباش.

وهنا فان الثابت أن هذه الاصول الصومالية كانت تشكل قومية مميزة الاسس العرقية واللغوية والدينية والحضارية، بينما لم تكن

«للامبراطورية» الاثيوبية نفس تلك الاسس (٤٧) بعكس الادعاء الذي أعلنه رئيس وزراء اثيوبيا في خطابه أمام مؤتمر تأسيس منظمة الوحدة الافريقية في عام ١٩٦٣،والقائم على مقولة تدعي أن أثيوبيا كانت مملكة استمرت ثلاثة آلاف عام في الماضي،وأن حدودها كانت تمتد الى البحر الاحمر وسواحل المحيط الهندي ، بينما لم تكن هناك دولة تسمى الصومال.

وهو الادعاء الذي وصفه مارجري برهام في كتابه الشهير «أثيوبيا ١٩٤٨» بأنه ادعاء يمثل اهانة للتاريخ وتجاوزا للحقائق التاريخية وتجاهلا للواقع السياسي والديني..



---

(٤٧) نتيجة لتوسع «الامبراطورية الاثيوبية» منذ عهد منليك أصبحت الامبراطورية تضم الآن ثلاثة أصول عرقية مختلفة تشكل شعوباً مختلفة هي ١) الاصل الامهري ٢) أصل تيجرى ٣) عنصر الجالا ... ويعود الامهري والتيجري الى أصل سامي ويتحدثون لغة سامية المنبع،ويدينون حاليا بالمسيحية،ومعظمهم يتبع الكنيسة الارثوذكسية القبطية بعد أن دخلت المسيحية في الحبشة منه بداية القرن السابع الميلادي ، ويسكن الامهريون المرتفعات الوسطى لاثيوبيا،ويسكن التيجري المرتفعات الشمالية والشرقية. ويرجع الجالا الى أصل حامي هاجروا من الساحل الصومالي وعاشوا في الوديان والسهول وينقسمون دينياً بين الاسلام والمسيحية ، ويشكلون مع التيجرى العناصر المضطهدة حيث يسيطر الامهريون على الحكم والثروة معا.



الفصل الثاني

مَحاور الصراع الاستراتيجي من البحر الأحمر إلى القرن الافريقي

١- من السويس الى بوابة الدموع.
٢- على طريق الآلام حاملاً صليب البترول.
٣- اثيوبيا واسرائيل محور الصدام
٤- من امن شرم الشيخ الى امن القرن الافريقي
٥- مصر واسرائيل الاتجاه جنوبًا.

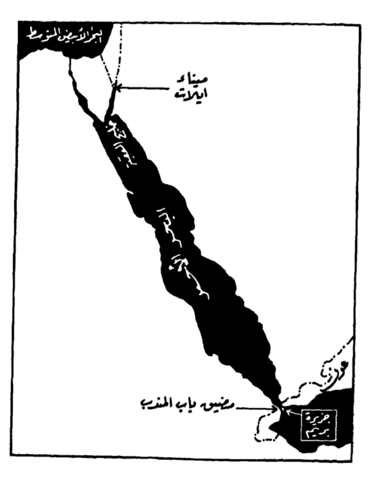
(١) من السويس

الى بوابة الدموع:

كان البحر الأحمر أعظم طرق المواصلات البحرية في العالم، يحمل التوابل بين الشرق والغرب في العصور السابقة، وأصبح الآن أخطر طرق المواصلات البحرية في العالم يحمل اهم السلع الاستراتيجية بين الشرق والغرب ايضا، وتحول من مجرد بحر داخلي الى أهم شريان ينقل البترول من مناطق الزيت في الخليج العربي وايران وشبه الجزيرة العربية الى اوروبا الصناعية والولايات المتحدة الامريكية.

وبفضل اكتشاف البترول في الخليج والجزيرة، وبفعل الجوع البترولي في اوروبا وامريكا اصبح البحر الاحمر بكل مميزاته وخصائصه الجيوبوليتيكية أخطر محاور الصراع الدولي وملتقى اهم نقاط التحكم الاستراتيجي باعتباره حامل البترول ومعبر التجارة الاساسية ومجال تدفق «القوة العسكرية» مابين البحر الابيض المتوسط والبحر الاسود والمحيط الاطلنطي، وبين المحيط الهندي والمحيط الهادي.

وبهذه المميزات الجيوبوليتيكية ارتبط البحر الاحمر بالقرن الافريقي جنوبا، مثلما ارتبط بقناة السويس شمالا، ارتباطا عضويا ومصيريا: عسكريا وسياسيا واقتصاديا، فكل منهما له مميزاته الحاكمة وخصائصه المحددة، حتى اصبحا معـا محط انظار المخططين السياسيين والعسكريين وموضع اهتمام واضعي القرار السياسي، ومحور صراعات معقدة بين القوى الدولية المتصارعة وكذلك القوى المحلية والاقليمية المتنافسة.



مداخل البحر الأحمر من الشمال والجنوب

ويجدر بنا تحديد الخطوط العامة التي تمنح البحر الاحمر كل هذه الاهمية الدولية:

اولا ـــ البحر الأحمر جغرافيا وجيوبوليتيكيا :

بتطبيق قواعد الدراسة الجغرافية يمكن القول إن البحر الاحمر جسم ممتد طوليا مابين السويس في اقصى الشمال، وبين «بوابة الدموع» او باب المندب في اقصى الجنوب، وكلتاهما تمثل خانقا قابضا حاكما يحصر مياه البحر طبيعيا ويحاصره جغرافيا ويتحكم فيه، حتى ليكاد يحوله الى بحيرة مستطيلة مغلقة، وهو بهذا التحديد يتصل من ناحية الشمال بخليج السويس وخليج العقبة، كما يتصل من ناحية الجنوب بخليج عدن المفتوح على مياه المحيط الهندي، ويضم حول سواحله تسع دول،هي على الساحل الافريقي من الشمال الى الجنوب: مصر ـــ السودان ـــ جيبوتي ـــ اثيوبيا التي تحتل الساحل الارتري. وعلى الساحل الآسيوي: فلسطين المحتلة ـــ الاردن ـــ السعودية ـــ اليمن الشمالية ثم اليمن الجنوبية،ويلاحظ هنا ان اثيوبيا ليس لها اصلا سواحل بحرية سواء على البحر الاحمر او المحيط الهندي، فهي ـــ تاريخيا ـــ دولة داخلية لا تطل على الساحل، ولكنها تحت ضغط هذا الاحساس الخانق وبمساعدة الاستعمار الاوروبي نجحت في التوسع، منطلقة من الهضبة الحبشية في الداخل لتحتل بالقوة العسكرية وبالمؤامرات السياسية كلا من الساحل الارتري، حيث تطل على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر وساحل الصومال الغربي ـــ اوجادين ـــ الذي تطل منه على مياه المحيط الهندي وبذلك ركبت القرن الافريقي.

وفي محاولة للمقارنة فاننا نجد ان الطول الاجمالي لسواحل البحر

الاحمر بما فيها سواحل خليجي السويس والعقبة يبلغ نحو ٣٠٦٩ ميلا، باعتباره مستطيلا مائيا تصل مساحته الى ١٧٨٠٠ ميل مربع، واذا اخذنا نقطة شمالية عند السويس، ونقطة جنوبية عند باب المندب فان الطول يبلغ ١٢٠٠ ميل. ويبلغ اقصى اتساع له حوالي ١٩٠ ميلا فيما بين مصوع على الساحل الارتري الافريقي وجيزان على الساحل الشرقي الآسيوي، بينما يبلغ اقل اتساعاته نحو ٤٠ ميلا فقط فيما بين عصب على الساحل الغربي والمخا على الساحل الآسيوي.

واذا كان باب المندب هو نقطة الحصار والخنق في الجنوب، فان مضايق تيران وجوبال هي نقاط نفس الحصار والخنق عند الشمال، حيث تنتشر الجزر والشعاب المرجانية التي تقسم مياه البحر الى ممرات ملاحية صغيرة وضيقة تجعل من الملاحة مخاطرة تحتاج الى حسابات دقيقة لتحقيق السلامة والمرور الهاديء.

فمضيق جوبال الذي يقع في المدخل تماما من خليج السويس لايزيد عمقه عن ٣٠٠ ـــ ٣٣٠ قدما، وتنتشر في مياهه عدة جزر اهمها شدوان وجوبال وام قمر.

وشرق جوبال يرقد مضيق تيران في مدخل خليج العقبة، ويصل عمق المياه هناك الى اكثر من ٣٣٠٠ قدم بينما يضيق اتساعه الى معدل ٨ ـــ ١٠ اميال فقط وفي هذا المضيق تنتشر كذلك عدة جزر اهمها: تيران وصنافير الرابضة في مدخل المضيق بتحكم استراتيجي بالغ الاهمية (٤٨).

واذا انتقلنا جنوبا عند نقطة الحصار الاخرى، فسوف نجد بوابة

(٤٨) البحر الاحمر في الاستراتيجية الدولية، دراسة اعدها محمود توفيق محمود مدرس الجغرافيا المساعد، جامعة القاهرة. ندوة جامعة عين شمس عن «البحر الاحمر في التاريخ».

الدموع او باب المندب بكل اساطير التاريخ القديمة حولها التي تنشر الفزع والموت للبحارة العابرين ، فمضيق باب المندب لا يزيد اتساعه عن ٢٠ ميلا ، تتولى جزيرة «ميون» او «بريم» تقسيمه بشكل يعوق الملاحة المريحة الانسيابية. فالجزيرة تقسمه الى ممرين، أحدهما بالغ الضيق وهو الممر الشرقي بعرض أقل من ميلين فحسب، والاخر في الغرب بعرض يصل الى ١٦ ميلا،تنتشر فيه الجزر الصغيرة والشعاب المرجانية التي تزيد بالطبع من وعورة الملاحة، ورغم ان عمق هذا الممر في معظم مياهه يصل الى ٩٩٠ قدما فان هذا العمق في الممر الشرقي يقل حتى يصل في بعض اجزائه الى نحو ٨٥ قدما فقط.

وهكذا تبدو اهمية نقاط التحكم الاستراتيجي الشمالية عند السويس وتيران، والجنوبية عند باب المندب في خنق الملاحة المدنية والعسكرية على السواء في البحر الاحمر.. ولذلك دار الصراع دائما حول نقاط التحكم هذه،سواء كان صراعا دوليا او محليا. واكتسبت مناطق مثل القرن الافريقي غربا والسواحل العربية شرقا في جنوب البحر، ومضايق تيران شرقا وجوبال غربا في شمال البحر مميزات جيوبولتيكية في خريطة الصراع الدولي والمنافسة الحادة القائمة اليوم بين القوى العظمى، وكذلك على مستوى الصراع الاقليمي خاصة بين العرب واسرائيل من ناحية، وبين العرب واثيوبيا سواء كانت متحالفة مع الغرب الامريكي الاوروبي او مع الشرق السوفيتي، من ناحية اخرى.

وهنا يجدر بنا رصد ملاحظتين اساسيتين:

(أ) يعتبر البحر الأحمر بحرا طويل الساحل الامر الذي يترجم جيوبوليتيكيا بالقول إن السواحل الطويلة لها قدرة طاغية على التحكم في مياه البحر وفي الملاحة فيها، ونتيجة لهذا فان الدول

المطلة على هذا البحر المتحكمة في سواحله تؤدي دورا اساسيا في لعبة الصراع الدائرة حوله، وتتحكم بالتالي في هذا الشريان السياسي والعسكري والاقتصادي الذي يربط الشرق والغرب من اقصر طريق ملاحي.

ولتوضيح ذلك نقول إن سواحل البحر الاحمر موزعة على الدول التي تطل عليه، ونصيب كل منها يتراوح مابين ١١٢٥ ميلا للسعودية بنسبة ٣٦٪، ومابين خمسة اميال للاردن بنسبة ١ر٠٪ فقط. ويأتي الترتيب التنازلي بعد السعودية ليوضح أن مصر تمتلك المرتبة الثانية في طول سواحلها على البحر الاحمر بطول ٨٩٨ ميلا بنسبة ٨ر٢٨٪، ثم اثيوبيا (الساحل الارتري المحتل) ٤٢٥ ميلا بنسبة ٦ر١٥٪، والسودان ٣٠٩ اميال بنسبة ٨ر٦٪، وجمهورية اليمن الشمالية ٢٧٥ ميلا بنسبة ٨ر٨٪، ثم جيبوتي ٢٥ ميلا بنسبة ٧ر٠٪ وفلسطين المحتلة ٧ أميال بنسبة ٢ر٠٪ فقط.

وهكذا فان الاغلبية المطلقة من امتدادات سواحل هذا البحر الهام هي سواحل عربية في وضعها الراهن وكلها — تاريخيا — سواحل عربية مائة في المائة (اذا ماعرفنا ان اسرائيل لم يكن لها اي نقطة ساحلية على خليج العقبة طبقا لقرار التقسيم، لكنها بعد اعلان قيامها في عام ١٩٤٨ اندفعت بكل قواها نحو مياه الخليج لتصنع لنفسها منفذا على البحر الاحمر شريان اتصالها بافريقيا وآسيا، ولتصبح بذلك دولة ذات ساحلين، الاصلي واجهة بحرية على البحر الابيض المتوسط بطول يتراوح مابين ١١٨ — ١٢٠ ميلا، والساحل الاخر على البحر الاحمر بطول لا يتعدى ٧ أميال لكنه في النهاية يمثل منفذها الاستراتيجي الثابت تجاه العالم الافرواسيوي).

ونفس الوضع بالنسبة لاثيوبيا ، التي احتلت الساحل الارتري والساحل الصومالي الغربي لتفتح لنفسها منفذا بحريا.. بكل مايمثله ذلك من اهمية جيوبوليتكية، هي ببساطة اهمية الفرق بين دولة داخلية مغلقة محاصرة باليابس من كل اتجاه، وبين دولة منفتحة على البحار والمحيطات لها سواحل تطل عبرها على العالم.

(ب) اذا كنا قد اوضحنا آنفا اهمية السواحل في التحكم في حركة الملاحة المدنية والعسكرية في البحر الاحمر، فان ثمة عاملا آخر له اهمية جيوبوليتكية مشابهة أو متقاربة مع أهمية التحكم في السواحل. وهو امتلاء البحر الاحمر بالجزر المتناثرة شمالا وجنوبا ، والتي يرقى بعضها الى أهمية استراتيجية بالغة تعادل اهمية نقاط الخنق والحصار والتحكم الاستراتيجي.

إن تضاريس أعماق البحر الأحمر تضاريس وعرة قاسية باعتباره أخدودا «شقا» غائرا فيما بين اليابس الافريقي غربا واليابس الآسيوي شرقا .. فقاع البحر تغطيه تلال مرتفعة، يصل ارتفاع بعضها الى ما دون سطح الماء، ويظهر بعضها الآخر فوق السطح على شكل جزر ، بعضها له سمات الجزر التي تتكون على أعماق كبيرة من القاع إزاء تراكم الطفوح البركانية التي يبلغ منسوبها أحيانا منسوب الجبال، وهي التي تسمى بالجزر المحيطة، مثل جزيرة الزبرجد بالقرب من «راس باناس» على الساحل المصري، وجزر ذقر وحنيش الكبرى والصغرى عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر.

وهناك أيضا جزر ساحلية مفصولة عن اليابس مثل جزر بريم وشدوان وفرسان وقمران ومجموعة جزر دهلك ، كل ذلك بالاضافة الى كثرة انتشار الجزر المرجانية ذات الشعاب العتيقة التي تساعد على نمو

المرجان بينها. (٤٩)

وطبقا للمراجع الدولية فإن مياه البحر الأحمر تحتوي على حوالى ٣٨٠ جزيرة معروفة ومرصودة، بعضها آهل بقليل من السكان ومعظمها خال مهجور تماما ، واذا كانت معظم سواحل هذا البحر تابعة لدول عربية فكذلك الأغلبية العظمى من هذه الجزر تابعة لنفس الدول العربية على الوجه التالي وبالترتيب التنازلي :

- السعودية : ١٤٤ جزيرة أهمها فرسان
- أثيوبيا : ١٢٦ جزيرة أهمها مجموعة دهلك، وحالب، وفاطمة
- اليمن الشمالية : ٣٩ جزيرة أهمها ذقر وقمران
- السودان : ٣٦ جزيرة أهمها سواكن
- مصر : ٢٦ جزيرة أهمها شدوان ، تيران صنافير
- جيبوتي : ٦ جزر أهمها مويلة (ويقال ان اسمها العربي الأصلي أم ليلة)
- اليمن الجنوبية : ٢ أهمها حنيش الكبرى وبريم.

وبهذا التوزيع فإن ٦٧٪ تقريبا من هذه الجزر تابعة للدول العربية الأمر الذي يضفي على هذه الدول أعباء مضاعفة في الاستفادة الجيوبوليتكية من هذه الجزر، وفي حمايتها بالتالي من الاغارة والاستعمار والصراع الاقليمي والدولي الهادف الى السيطرة على مواقع التحكم الاستراتيجي، ومن بينها مثل هذه الجزر بالطبع، كما رأينا ما فعلته

(٤٩) مورفولوجية الأراضي المصرية ـ محمد صفي الدين + البحر الأحمر في الاستراتيجية الدولية ـ محمود توفيق محمود ـ مرجع سابق.

اثيوبيا في احتلال بعض جزر المدخل الجنوبي، وما فعلته اسرائيل خلال عدوان ١٩٦٧ باحتلال بعض جزر خليج العقبة لتأمين مصالحها وحماية ملاحتها وحرمان العرب من مثل هذه الميزات.

ثانيا: البحر الأحمر استراتيجيا:

رغم امتداد البحر الأحمر بمثل هذا العدد المعروف والمرصود من الجزر بالاضافة الى تلك الأخرى غير المعروفة، ورغم كثرة الشعاب المرجانية على شطآنه وانحصار المجرى الملاحي في وسط مياهه بشكل يحيل الملاحة فيه الى ملاحة خطيرة تحتاج الى ملاحين مهرة، يحفظون ممرات البحر وشعابه، رغم كل ذلك فقد اكتسب هذا البحر أهمية سياسية واستراتيجية واقتصادية منذ عصور التاريخ السحيقة ، ذلك أن القدماء أيضا عرفوا فيه ميزة الربط بين الساحل الآسيوي عند شبه الجزيرة العربية والساحل الافريقي عند مصر ثم الى شمال افريقيا، وعند السودان والصومال الى قلب القارة السوداء.

وعرفوا فيه كذلك ميزة الربط بين المحيط الهندي جنوبا والبحر الأبيض المتوسط شمالا، كأقصر طريق للملاحة، ومن ثم للتجارة وبالتالي لنشر النفوذ السياسي من خلاله.

ويقول المؤرخون ان الثابت وثائقيا أن هذه الأهمية الاستراتيجية والمميزات السياسية والاقتصادية قد عرفت منذ أربعة آلاف عام تقريبا وربما خلال الألف الثانية قبل الميلاد ، ولقد كانت الريادة في كشف أهمية الابحار عبر هذا البحر ترجع للفراعنة وبالذات الى أسطول الملكة حتشبسوت الذي ذهب خلال مياهه الى بلاد بنط عند القرن الافريقي (الصومال وارتريا)، كما ان فضل تحديد معالم الملاحة في البحر بشكل واضح يرجع كذلك للفينيقيين ــ وهم الملاحون المهرة

في عصور ما قبل التاريخ ــ خاصة خلال رحلاتهم البحرية لاستكشاف الشواطىء الافريقية الطويلة قبل الميلاد بأكثر من خمسمائة عام على الأقل.

وخلال كل هذه المحاولات ــ سواء الفرعونية أو الفينيقية ــ لتحديد مسالك الملاحة في البحر الأحمر، فقد كان الهدف الاقتصادي والسياسي واضحا ومحددا في عقول أولئك الذين قاموا بمثل هذه المغامرات في بحار مظلمة مجهولة، لا تمثل لهم سوى الغرق والظلام والضياع .. لكنهم بالاصرار والمثابرة وشجاعة الارتياد والاستكشاف تمكنوا في النهاية من أن يمدوا حبل الاتصال الاستراتيجي بين الشواطىء الشرقية لمصر وبين الشواطىء الجنوبية للقرن الافريقي، وهو ذلك الحبل الذي ما زال حتى اليوم يمثل أهمية جيوبوليتكية واستراتيجية بالغة عند واضعي القرار السياسي ومخططي الاستراتيجيات ومحركي الصراعات الاقليمية والدولية.

وسواء أكانت الصراعات بين الشعوب القديمة في مصر والجزيرة العربية وسواحل افريقيا، أو بين دويلات العصور الوسطى، أو بين امبراطوريات الاستعمار الاوروبي في القرن التاسع عشر المتمثلة في بريطانيا وفرنسا والبرتغال واسبانيا، أو بين القوى العظمى الحالية خاصة الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية، فإن البحر الأحمر بمدخله الشمالي عند السويس، وبمدخله الجنوبي عند باب المندب والقرن الافريقي، ظل وسيظل يلعب دور محور الصراع في هذه المنطقة من العالم.

لقد كان قديما هو طريق التوابل فأصبح حديثا طريق البترول، وكانت التجارة ما بين الغرب الأوروبي والشرق الآسيوي تمثل عصب الحياة للدول الكبرى في العصور الماضية. فأصبح البترول الخام المنقول

من بحيرات انتاجه الواسعة في الخليج العربي والجزيرة العربية وايران الى مصادر استهلاكه في اوروبا وامريكا يمثل بدرجة أكثر وأوضح عصب الحياة للدول الصناعية والمتقدمة في العصور الحديثة .

وكان تهديد طريق التجارة ما بين الشرق والغرب في العصور الماضية يمثل تهديدا للأمن العالمي والاقليمي ، وأصبح تهديد طريق البترول بين الشرق والغرب في العصور الحالية يمثل تهديدا للسلام والأمن العالميين بدرجة أخطر يرقى الى مرتبة اعلان الحرب الشاملة .

* * * *

(٢) على طريق الآلام

حاملا صليب البترول :

وبهذا المفهوم يصبح البحر الأحمر اليوم ــ كما كان في الماضي ــ محور الصراعات الاقليمية والدولية ، فالمستفيدون من تجارة الشرق كانوا يحمون أمن طريق هذه التجارة بأساطيلهم وجيوشهم التي احتلت عديدا من البلدان الواقعة على هذا الطريق ، والمستهلكون للبترول اليوم يهيمنون ويدافعون عن تأمين طريق البترول بين الشرق العربي والغرب الأوروبي الأمريكي بأي ثمن ، حتى لو وصل الأمر الى حد التهديد بحرب عالمية ثالثة ، أو بحروب اقليمية ومحلية محدودة أو بحملات تأديب وردع عسكرية محسوبة ومخططة الهدف والغاية والغرض .

وبالنظر الى كل هذه الأهمية الاستراتيجية قديما وحديثا على السواء ، فقد جلب الواقع الجغرافي للبحر الأحمر المتاعب والمشاكل للدول المطلة على سواحله أو حتى القريبة منه ، واذا كان هو طريق الحياة

والتجارة والبترول والشراء للآخرين فقد لعب دور طريق الآلام لأصحاب سواحله. والذي لا شك فيه أن أولئك الذين يملكون السواحل المتحكمة في نقاط اختناقه عند المدخل الشمالي خاصة مصر، وعند المدخل الجنوبي خاصة القرن الافريقي قد تحملوا العبء الأكبر والأصعب من تلك الآلام والمصاعب على مر التاريخ.

ومنذ أن فكر الفراعنة المصريون في ربط البحر الأحمر بالبحر الأبيض بقناة تربط الأول بالنيل لتسير السفن التجارية عبره الى البحر الأبيض المتوسط، وفكرة اختصار المسافة والوقت بين الشرق والغرب تطرح نفسها بالحاح ومثابرة، حتى تحقق ذلك بشكل مباشر وبأقصر الطرق في عام ١٨٦٩، عندما شقت قناة السويس لتربط البحر الأحمر من خليج السويس جنوبا بشاطىء المتوسط عند بورسعيد شمالا.

ولذلك اعتبر هذا الانجاز البشري انقلابا في كل الموازين السياسية والاقتصادية والاستراتيجية في العالم كله، وبقدر ما جلبت قناة السويس الرخاء لتجارة العالم وحرية الحركة وانسيابها ما بين الشرق والغرب للأساطيل الدولية العسكرية، بقدر ما جلبت المتاعب لمصر نفسها، التي وقعت فريسة للمطامع الاستعمارية، شأنها شأن معظم المناطق الاستراتيجية الأخرى المتحكمة في مداخل ومخارج البحر الأحمر

فبينما احتلت بريطانيا عدن على الشاطىء الآسيوي الشرقي لباب المندب في عام ١٨٣٩ لتتحكم بواسطتها في حرية المرور من والى البحر الأحمر عند مدخله الجنوبي، احتلت فرنسا جيبوتي والصومال الفرنسي في القرن الافريقي على الساحل الافريقي الغربي لباب المندب نفسه لتقف في مواجهة التوسع والتحكم البريطاني.

وبينما نجحت فرنسا في اقناع خديو مصر بشق قناة السويس ومن ثم تحكمت في ادارتها منذ البداية، سارعت بريطانيا الى احتلال مصر نفسها لتواجه التحكم الفرنسي في حرية المرور من والى البحر الأحمر عبر بوابته الشمالية.

ولقد ظل البحر الأحمر بمدخله الشمالي في مصر، ومدخله الجنوبي عند باب المندب بشاطئيه العربي في آسيا شرقا والقرن الافريقي غربا محور صراع الامبراطوريات الاستعمارية الكبرى في القرن التاسع عشر، خاصة بريطانيا وفرنسا وايطاليا التي نافست الاثنتين باحتلال الصومال والساحل الأرتري.

وبنفس الدرجة — ان لم يكن بدرجة أشد — أصبح البحر الأحمر بمدخليه الشمالي عند السويس والجنوبي عند باب المندب والقرن الافريقي، محور صراعات القوتين العظميين في عالم اليوم .. الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، فكلتاهما تحاولان أن توطدا نفوذهما السياسي والاقتصادي والعسكري والعقائدي عند نقاط التحكم في مداخل البحر وفي مخارجه، خاصة في ظل اكتشافات البترول الهائلة في الخليج العربي، وما يمثله البترول من أهمية استراتيجية دولية.

وهكذا فإن العمق التاريخي يكشف بلا جدل الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر عبر العصور المتتالية، وارتباطه بحركة الصراع عند مصر شمالا والقرن الافريقي جنوبا.

ومنذ أن نفذ الفراعنة فكرة ربط البحر الأحمر بالأبيض عن طريق وادي النيل، وتكرار هذه الفكرة على يد بطليموس الثاني وعمرو بن العاص، انكسرت فكرة أن البحر الأحمر بحيرة داخلية راكدة ومغلقة، وتحول الى أداة وصل واتصال مفتوح ، وبالتالي موضع جذب

وموقــع صراع .

ولـم يغـب عـن الفراعنة أو البطالسة والرومان من بعد، أو العرب والأوروبيين في النهاية تلك الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر كطريق ينقل تجارة الهند وافريقيا وبلاد الجزيرة العربية،وكممر ملاحي يسهل تحرك الأساطيل، وبالتالي يسرع بنشر النفوذ السياسي حول شطآنه الطويلة التي ازدهرت مدنها وموانيها وحضاراتها بفضل مرور طريق التجارة الرئيسي في العالم بها أو عبرها.

ولـم ينتكس هذا الازدهار الذي انتشر عند مداخل البحر الأحمر وعلى سواحله إلا في نهاية القرن الخامس عشر عندما اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح ، ليربط الغرب بالشرق عن طريق ملاحي مباشر، فعاد البحر الأحمر الى تقوقعه الحضاري وفقد أهميته التجارية والاستراتيجية بالتداعي، ليفسح طريق الازدهار لحضارات جديدة ومدن جديدة وموانى جديدة ، هي حضارات وموانى الاطلنطي الصاعدة التي بنت تقدمها الحديث على حساب الحضارات القديمة المنتشرة على سواحل البحرين الأحمر والأبيض المتوسط.

لكن هذا «الكمون» الحضاري والتقوقع الاستراتيجي لم يطل ظلامه على البحر الأحمر كشريان وصل قصير وسريع بين الشرق الافريقي الآسيوي والغرب الأوروبي ، فقد كان لصراع القوى بين الامبراطوريتين الاستعماريتين؛ البريطانية والفرنسية أثره على اعادة استخدام وازدهار هذا الشريان الحيوي ، فقد كانت كل منهما تحاول بسط نفوذها في الشرق، وقطع طرق تجارة الأخرى والاستيلاء على ممرات ومعابر هذه التجارة.

وفي الوقت الذي عادت فيه بريطانيا الامبراطورية الى استخدام

طريق البحر الأحمر لنقل المسافرين بين جزرها الرئيسية وبين مستعمراتها العظمى في الهند، ركزت الحملة الفرنسية على مصر في عام ١٧٩٨ على دراسة شق قناة تصل بين البحر الأحمر والبحر الأبيض ، ومنذ ذلك الوقت اشتعل الصراع بين الدولتين للحصول على امتياز شق هذه القناة، حتى تحقق السبق لفرنسا بافتتاح القناة في نوفمبر ١٨٦٩.

وأعاد افتتاح قناة السويس للبحر الأحمر تلك الأهمية الاستراتيجية البالغة كأقصر طريق بين الشرق والغرب، مقارنة بطريق رأس الرجاء الصالح الدائري الطويل، مختصرا بذلك ثلثي المسافة تقريبا .. كما أعاد لمداخل البحر الشمالية في مصر، والجنوبية عند القرن الافريقي أهميتها الجيوبوليتيكية النادرة، ثم أعاد للجميع حدة صراعات الدول الاستعمارية الكبرى القديمة والمترهلة، وعنف صراعات القوى العظمى الحالية القوية، بكل ماتعنيه هذه الصراعات من انعكاسات ومخاطر محلية واقليمية ودولية ، خاصة منذ نهاية الثلث الأول من القرن العشرين، عندما بدأ البترول المكتشف حديثا آنذاك في الخليج العربي والجزيرة يتدفق بكميات تجارية ضخمة ، أزاحت عصر الفحم من الصناعة الأوروبية ليحل هذا السحر البترولي الجديد محله، بل ولكي يدفع الحضارة الصناعية الحالية الى آفاق أوسع وأكثر تعقيدا. الأمر الذي حول البترول بمناطق انتاجه وطرق نقله ومعابر مروره ـــ خاصة البحر الأحمر الشريان الذي ينقل ٧٠٪ من بترول الخليج المتدفق الى اوروبا وامريكا ـــ الى قيمة استراتيجية تهدد أمن الدول الصناعية الغربية في الصميم.

وبتطبيق القواعد الجيوبوليتكية على البحر الأحمر ومدخليه الشمالي والجنوبي يمكن رصد المميزات التالية:

(أ) يمتاز هذا البحر بموقعه الذي يتوسط القارات الكبرى الأساسية

آسيا وافريقيا وأوروبا ، وقد لعب دورا تاريخيا في ازدهار الحضارات الآسيوية والافريقية والمتوسطية التي نشأت على شطآنه أو بقربها ، بفضل قيامه بدور الشريان الحيوي لنقل التجارة فيما بين الشرق والغرب منذ عصور التاريخ القديمة وحتى اليوم .

(ب) يتميز كذلك بأنه يقع في الوسط بين البحار الشرقية والغربية ، أو بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الهندي بشكل أكثر تحديدا. وهو يشبه الجسر العائم بين الشمال والجنوب وبين الشرق والغرب . (٥٠)

(ج) ثم هو يتميز في عصرنا الحالي بأنه يتوسط بين بحيرات البترول الضخمة التي مازالت تحتفظ بأكثر من ٩٠٪ من احتياطي العالم في الخليج العربي والجزيرة العربية، وبين أكثر مناطق العالم استهلاكا لهذه السلعة الاستراتيجية بحكم انها مناطق تضم دول العالم الصناعية المتقدمة .

* * * * *

(٣) اثيوبيا واسرائيل محور الصدام :

وبفضل كل هذه المميزات أصبح البحر الاحمر بقرنه الافريقي جنوبا ، وبقناة السويس شمالا محط الانظار ومطمع الطامعين وموقع صدام المصالح الدولية وصراعات القوى الاقليمية والعظمى على السواء.

فقد اعتبرته الدول العربية الواقعة على سواحله مجرد بحيرة داخلية عربية ، لها مطلق التصرف فيه والتحكم في مداخله ومخارجه ، في جزره وشطآنه ، في مياهه البالغة الملوحة وفي كنوز اعماقه غير المعروفة .

---

(٥٠) البحر الأحمر في الاستراتيجية الدولية – مرجع سابق .

لكن ذلك لم يكن الا وهما كبيرا تخيلته هذه الدول لسببين أساسيين :

الاول: ان هذه الدول العربية لم تجهد نفسها واقعيا وعمليا لتثبت انها بالفعل صاحبة هذا البحر، والمسيطرة على ملاحته والمالكة لكنوزه سواء تلك المغمورة بمياهه، او التي تتحكم في مجراه الملاحي والتي تسمى مناطق ومراكز التحكم الاستراتيجي، بل هي على العكس من كل ذلك، اختلفت أكثر مما اتفقت، الأمر الذي زاد طمع الطامعين، وشجع الآخرين على ان يكسروا هذا القيد الذي كان العرب يريدون فرضه على البحر باعتباره عربيا داخليا.

الثاني: ان اكتشاف البترول بكمياته المنتجة الضخمة وباحتياطياته الأضخم في الخليج العربي والجزيرة وايران حول المنطقة بأسرها الى منطقة قابلة للاشتعال الفوري اذا ما تعرضت مصالح الدول الغربية الصناعية الكبرى فيها للخطر، فقد أصبحت هذه الدول ــ سواء كانت اوروبية او امريكية ــ تعد نفسها صاحبة (الحق الاول) في البترول العربي الايراني فهي صاحبة شركات التنقيب والانتاج والنقل، وهي سوق الاستهلاك والاحتكار العالمي لهذه السلعة الاستراتيجية التي سوف تقرر امكانيات الحرب أو السلام الدولي لسنوات قادمة طويلة. ولأن طريق البترول الى الغرب، هو أصلا طريق الخليج العربي عبر مضيق هرمز الى خليج عدن فباب المندب الى البحر الأحمر ثم قناة السويس الى البحر الأبيض المتوسط، فقد تحولت نقطة الاختناق الجنوبية عند القرن الأفريقي، ونقطة الاختناق الشمالية عند السويس، وكذلك

المجرى الملاحي كله للبحر الأحمر ، تحولت الى أخطر مراكز التحكم الاستراتيجي التي تنظر اليها الدول الأوروبية الأمريكية على انها «ضرورات أمن» يجب حمايتها من أي خطر مضاد.

وبذلك سقط طريق البترول في شرك الاستقطاب الدولي وصراع القوى، تحت ضغط عوامل كثيرة أخطرها كما ذكرنا آنفا احتلال البترول تلك المكانة الخطيرة في حياة الدول الصناعية الغربية الكبرى ، وتحولت الدول العربية من دول حاكمة مالكة لهذا الطريق الحيوي الهام الى دول محكومة مملوكة لقوى أخرى خارجية، مارست بذكاء لعبة الاستقطاب.

فإذا تمركزت امريكا جنوبا عند القرن الأفريقي، في اثيوبيا مثلا، سارع السوفيت الى تثبيت اقدامهم شمالا عند السواحل المصرية ، واذا انتقل السوفيت الى الصومال، سارع الامريكيون بتقوية تواجدهم على الطرف المقابل.

واذا نجحت امريكا في تغيير موازين القوى خاصة بعد طرد مصر للخبراء السوفيت في ١٩٧٢، سارع السوفيت الى تثبيت اقدامهم في اثيوبيا بعد ثورة ١٩٧٤، واذا قفز السوفيت الى عدن، حاول الامريكيون الاطباق على الخليج العربي ، واذا التزم السوفيت بتأييد الخط السوري والعراقي، ازداد الامريكيون تحيزا وتدعيما لاسرائيل لتستمر في دورها كهراوة غليظة تدق رأس المنطقة.

وهكذا سارت لعبة الاستقطاب وتعقدت يوما بعد يوم وتبادلت القوتان العظميان المواقع، في ظل استراتيجيات واضحة ومحددة ، لكن ابدا لم يغب طريق البترول عن عيون أي منهما واهتماماته الأساسية.

ويجدر بنا ونحن نضع أيدينا على خريطة الصراعات الدولية والاقليمية حول البحر الأحمر، بقرنه الافريقي جنوبا والسويس شمالا، أن نرصد دورين أساسيين لقوتين اقليميتين لعبتا دور مخلب القط للقوتين العظميين، في إثارة المتاعب للعرب، وضرب فكرة «تعريب» البحر الأحمر وتحويل مضايقه وممراته العربية الواقعة في نطاق المياه الاقليمية الى ممرات ومضايق دولية بحكم الأمر الواقع وفرض الأوضاع بالقوة.

والقوتان المقصودتان هما اسرائيل شمالا، واثيوبيا جنوبا، وقد اعتبرت كل منهما ان لها حقا واقعيا واستراتيجيا في البحر الأحمر، بكل مياهه وممراته ومضايقه، واعتبرت كذلك أن أي تهديد لهذه الممرات او المضايق هو تهديد مباشر لمصالحهما القومية يصل الى درجة اعلان الحرب.

وليس من قبيل المصادفة ان اسرائيل لعبت دوما دور الهراوة الغليظة لضرب العرب في الشمال، بتحريض من قوى دولية لها مصالح مباشرة في احكام السيطرة الدائمة على العرب، شعوبا وارضا وثروات ومواقع استراتيجية، كما ان اثيوبيا لعبت ــ في معظم الأحيان ــ نفس الدور في الجنوب، بتحريض من القوى الدولية، خاصة وانها باحتلال الساحل الارتري الذي يركب باب المندب من الغرب، أصبحت تطل مباشرة على جزيرة البترول وخليجه وعلى نقطة التحكم الجنوبية الأساسية في مروره الى الأسواق الاستهلاكية الرئيسية في أوروبا وأمريكا.

وليس من قبيل المصادفة بعد ذلك، وقد تشابهت الظروف والتقت المصالح والأهداف، ان تتعاون الدولتان ــ اثيوبيا واسرائيل ــ تعاونا لصيقا في تحقيق هذه المصالح المشتركة، وان تتبادلا توزيع العمل

والنشاط، ابتداء من تبادل المعلومات، الى التعاون الاقتصادي والعسكري والتنسيق السياسي المباشر، كما سوف نرى الآن من خلال تطور الأحداث.

٤ ــ من أمن شرم الشيخ الى أمن القرن الافريقي :

وإذا أردنا أن ندرس العلاقة بين البحر الأحمر والقرن الافريقي من جهة، وبين «نظرية الأمن» الاسرائيلية المزعومة من جهة أخرى، فمن الواجب أولا أن نؤكد الحقائق التالية :

(١) لم يكن لاسرائيل طبقا لقرار التقسيم وحتى اعلان قيامها في مايو١٩٤٨ أي حدود او نقاط وصول الى المياه جنوبا أي على خليج العقبة.

(٢) في ١٦ مارس ١٩٤٩ أي بعد أقل من شهر من توقيع اتفاقية الهدنة في ٢٤ فبراير١٩٤٩، اندفعت بقواتها جنوبا لتحتل لسانا ضيقا على خليج العقبة عند «ام الرشراش» وحولته الى ما يعرف الآن بميناء «ايلات» المجاور لميناء العقبة الاردني، مخالفة بذلك اتفاقية الهدنة وقرار ايقاف جميع العمليات العسكرية..

(٣) منذ ذلك التاريخ بدأت اسرائيل تدعي لنفسها حق المرور البريء في خليج العقبة ــ التي أصبحت تطل عليه من ايلات ــ وفي مضايق تيران التي تربط الخليج بالبحر الأحمر، طبقا لاتفاقية جنيف المعقودة في ابريل ١٩٥٨ المنظمة لحقوق المرور في البحار الدولية والاقليمية على السواء، مدعية تحت هذا الستار أن مضايق تيران هي مضايق دولية وليست اقليمية.

(٤) لم تكن مضايق تيران في اي عصر من العصور مضايق دولية على الاطلاق، لأنها تقع كلها وبالكامل في مياه اقليمية

عربية (٥١) الأمر الذي ينفي ادعاء اسرائيل السالف.

(٥) تطبيقا لهذا الموقف فرض حظر عربي على الملاحة الاسرائيلية في خليج العقبة، الذي تحتل سواحله كل من السعودية ومصر والاردن، وعلى مرور سفنها.. او تلك التي تحمل لها البضائع عبر مضايق تيران ذات المياه الاقليمية.

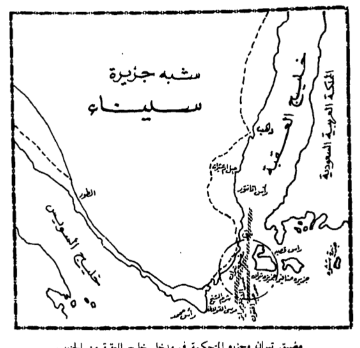
(٦) عندما قامت بريطانيا وفرنسا واسرائيل بعدوان ١٩٥٦ على مصر ركزت اسرائيل عينها على احتلال شرم الشيخ ، القبضة التي تتحكم في عنق مضايق تيران والتي منها كانت المدفعية المصرية الخفيفة تغلق ابوابه في وجه اسرائيل.

ولقد ساومت اسرائيل كثيرا بشرم الشيخ عندما فرض عليها الانسحاب من سيناء، حتى حصلت على «امتياز» تواجد قوات الطوارىء الدولية في شرم الشيخ، وتحت اعلام هذه القوات حصلت اسرائيل على حق المرور عبر مضايق تيران وخليج العقبة.. منطلقة الى البحر الأحمر والمحيط الهندي.. اي الى آسيا وافريقيا التي بنت مع دولها أوثق العلاقات الاقتصادية والسياسية والعسكرية والثقافية.. ومن ثم أصبح حق المرور الاسرائيلي في هذه المياه مسألة حياة او موت لحماية شريان التجارة بينها وبين الدول الافروآسيوية، ولحماية خط البترول بينها وبين ايران التي كانت تزودها بمعظم احتياجاتها من هذه السلعة الاستراتيجية حتى وقت قريب.

(٧) ظلت اسرائيل تمارس هذا المرور السهل، حتى تأزمت الأمور في عام ١٩٦٧ بينها وبين الدول العربية، وحشدت مصر قواتها في سيناء بعد أن تلقت معلومات عن استعداد اسرائيل لشن حرب

---

(٥١) القانون الدولي العام وقت السلم ــ الدكتور حامد سلطان، القاهرة ١٩٦٢.



مضيق تيران وجزره المتحكمة في مدخل خليج العقبة من الجنوب

خاطفة ضد سوريا ، وسارع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر باعادة اغلاق مضايق تيران في ٢٢ مايو١٩٦٧ في وجه اسرائيل وطلب من قوات الطوارىء الانسحاب بعيدا عن الحدود الدولية لمصر ، عقبها سارعت اسرائيل بشن الحرب الثالثة صبيحة ٥ يونيو١٩٦٧ .

(٨) كانت احدى نتائج نكسة ١٩٦٧ ان عاودت اسرائيل احتلال سيناء حتى ارتكزت في غربها على قناة السويس، وارتكزت في جنوبها على شرم الشيخ، لتفتح مضايق تيران من جديد في وجه ملاحتها واتصالاتها الاستراتيجية مع الدول الافروآسيوية .

(٩) وفي كل هذه الخطوات فان من الملاحظ أن اسرائيل وضعت مضايق تيران في خليج العقبة والبحر الاحمر، والوصول الى المحيط الهندي بسلام للاتصال باسيا وافريقيا، وفك الحصار العربي عنها بكسر هذا الطوق الحديدي، وضعت كل ذلك ضمن «نظرية الامن» الثابتة .

وتطبيقاً لذلك فقد اعتبرت قرار الرئيس عبدالناصر في مايو ١٩٦٧ باغلاق مضايق تيران بمثابة قرار اعلان الحرب من جانب مصر على اسرائيل ، الامر الذي عجل تاريخياً بقيام اسرائيل بالضربة الاولى في حرب ١٩٦٧ التي كسبتها بكل المعايير العسكرية والنفسية .

(١٠) رغم قيام مصر ــ بتنسيق عربي ــ باغلاق مضايق باب المندب جنوباً في وجه الملاحة الاسرائيلية خلال حرب ١٩٧٣، لكسر نظرية الأمن المصرة على ضرورة الاحتفاظ الى الابد بشرم الشيخ في القبضة الاسرائيلية الضاغطة، الا أن المحصلة النهائية

اليوم أن اسرائيل كسبت قانونيا وواقعيا حق المرور البريء في مضايق تيران وخليج العقبة ، التي أصبحت مياها دولية ، بعد كل ما قاله العرب عن أن هذا وذاك ضمن المياه الاقليمية العربية .

ولقد «تقنن» هذا الوضع مؤخرا بتوقيع معاهدة(السلام)بين الحكومتين المصرية والاسرائيلية التي جاءت مادتها الخامسة لتنص على التالي :

١ ــ تتمتع السفن الاسرائيلية والشحنات المتجهة من اسرائيل واليها بحق المرور الحر في قناة السويس ومداخلها في كل من خليج السويس والبحر الابيض المتوسط ، وفقا لاحكام اتفاقية القسطنطينية لعام ١٨٨٨ المنطبقة على جميع الدول . كما يعامل رعايا اسرائيل وسفنها وشحناتها ، وكذلك الأشخاص والسفن والشحنات المتجهة من اسرائيل واليها ، معاملة لا تتسم بالتمييز في كافة الشئون المتعلقة باستخدام القناة .

٢ ــ يعتبر الطرفان أن مضيق تيران وخليج العقبة من الممرات المائية الدولية المفتوحة لكافة الدول ، دون عائق أو ايقاف لحرية الملاحة أو العبور الجوي . كما يحترم الطرفان حق كل منهما في الملاحة والعبور الجوي من أجل الوصول الى أراضيه عبر مضيق تيران وخليج العقبة(٥٢) .

• • • •

---

(٥٢) وثائق معاهدة(السلام)بين مصر واسرائيل

(٥) مصر واسرائيل
الاتجاه جنوبا :

يجدر هنا قبل أن نقفز على الاحداث أن نسجل تطورا أساسياً في الفكر الاسرائيلي، وفي الفكر المصري العربي، تجاه ارتباط الملاحة والحركة في مياه البحر الاحمر، بين مضايق تيران شمالا وباب المندب والقرن الافريقي جنوباً .

فقد رأينا ان اسرائيل اكتسبت منذ عدوان ١٩٥٦ حرية المرور والملاحة عبر خليج العقبة فمضايق تيران الى البحر الاحمر عبر باب المندب الى المحيط الهندي، دون عائق جدي، باستثناء أيام معدودة فيما بين ٢٢ مايو ١٩٦٧ وصبيحة ٥ يونيو من نفس العام، وهي الفترة التي ظل فيها مضيق تيران مغلقاً في وجه اسرائيل .

ورغم أن عمليات حرب الاستنزاف فيما بعد حرب ١٩٦٧ على الجبهة المصرية قد تركزت أساسا على العمليات البرية، فان بعض العمليات البحرية قد غيرت الكثير في الفكر الاسرائيلي تماما كما غيرت في الفكر المصري ، فقد أفزعت هذه العمليات وأربكت بعض الشيء أصحاب نظرية الأمن الاسرائيلي، وفي نفس الوقت وبنفس الدرجة شجعت قادة نظرية المبادأة بالهجوم على الجانب المصري.

فقد قامت الضفادع البشرية المصرية ببضع عمليات محدودة في خليج السويس أو بمعنى أصح عبر خليج السويس، بعد أن قامت زوارق الصواريخ المصرية بضرب واغراق المدمرة الاسرائيلية ايلات في ٢١ اكتوبر سنة ١٩٦٧ بالقرب من المياه الاقليمية لبور سعيد تعبيرا عن اصرار الارادة المصرية على التحدي والصمود ولم يكن قد مضى على

هزيمة ١٩٦٧ الا شهور قليلة.

لكن العملية البحرية التي تركت انطباعاً غائراً، وغيرت بالتالي تفكير الطرفين المتصارعين، حدثت في عام ١٩٧١، عندما فوجئت اسرائيل والعالم كله بهجوم بحري خاطف ومجهول على الناقلة الضخمة «كورال سي» في قلب مياه البحر الاحمر خلال رحلتها الى اسرائيل.

وبصرف النظر عن بعض ردود الفعل العالمية التي رأت في هذا الهجوم عدوانا على حرية الملاحة في البحار الدولية، فإن الهجوم الناجح ترك بصماته على الفكر العسكري المصري، الذي وجد في نجاحه دفعاً جديداً لضرورة مطاردة العدو حتى في أعالي البحار، والتعرض لسفنه وأساطيله في كل مكان وليس عبر خليج السويس أو بالقرب من سواحل بور سعيد فحسب.

وفي نفس الوقت ترك الهجوم بصماته كذلك على الفكر العسكري الاسرائيلي، الذي كان يرى حتى ذلك الوقت ان احتلاله لمضايق تيران وشرم الشيخ وتحكمه فيهما يؤمن له حرية الملاحة عبر خليج العقبة ثم البحر الاحمر حيث المياه الدولية الواسعة المفتوحة.

إلا أن عملية كورال سي كشفت لاصحاب نظرية الأمن الاسرائيلية ان الأمن ليس له حدود، وان الهجوم المضاد ليس عليه قيود، ومنذ ذلك التاريخ بدأ التفكير العسكري الاسرائيلي يتجه هو الآخر جنوباً، حيث القرن الافريقي وباب المندب.

ولم يكن هناك سوى اثيوبيا لتساعده في هذه المهمة الشاقة، التي أطالت من خطوط عملياته الدفاعية.

ومن خلال اثيوبيا نجحت اسرائيل في الحصول على تسهيلات

عسكرية وبحرية في السواحل والجزر الارترية المطلة على باب المندب والتي تحتلها اثيوبيا ، خاصة في مينائي عصب ومصوع وفي أرخبيل جزر دهلك، التي أقامت عليها اسرائيل تحت الغطاء الاثيوبي مراكز مراقبة واتصال وربما مجموعات عمل عسكرية محدودة ، بالاضافة الى تدعيم الطيران الاسرائيلي ليصل مدى قوته الضاربة حتى باب المندب اذا ما زود بالوقود في الجو.

وقد رددت بعض المصادر أن أثيوبيا سهلت لاسرائيل التواجد في جزيرتي «جبل الطير وأبو عيل» اليمنيتين في مدخل باب المندب بعد أن احتلتهما اثيوبيا منذ سنوات ماضية وأقامت عليهما فنارات بحرية ونقاط انذار واستطلاع ومراقبة.

وفي نفس الوقت نفذت اسرائيل استراتيجية جديدة لبحريتها تعمل في عدة اتجاهات: (٥٣)

١ ــ دعم اللنشات الحديثة السريعة من طراز «سعر» وتسليحها بصواريخ جابرييل.
٢ ــ الاعتماد على الصناعة الاسرائيلية في توفير المعدات البحرية المتطورة خاصة الصاروخ جابرييل.
٣ ــ شراء غواصات جديدة من بريطانيا تناسب مواصفاتها عملياتها البحرية المقبلة (خاصة في مياه البحر الاحمر حتى باب المندب).
٤ ــ تطوير الضفادع البشرية (لتعمل في أعالي البحار).
٥ ــ تخصيص طائرات للعمل مع قواتها البحرية سواء للاستطلاع أو الحماية، وركزت في هذا المجال على طائرات الهليوكوبتر والمقاتلات والقاذفات المقاتلة.

---

(٥٣) حرب رمضان ــ اللواء حسن البدري وآخرين.

ويضاف الى ذلك أنها على المستوى الاستراتيجي ضاعفت من جهودها لتدعيم علاقاتها الوثيقة باثيوبيا التي منحتها تسهيلات عسكرية وبحرية ذات قيمة عسكرية واضحة، عند باب المندب لترقب من خلالها التحركات العربية، ولترصد كذلك أي عمليات هجوم منتظرة مثل تلك التي تعرضت لها «كورال سي» في عرض البحر الاحمر.

ولقد لعبت اسرائيل على الامبراطور هيلاسي لاسي امبراطور الحبشة في ذلك الوقت لعبة الاصل العرقي المشترك!! فرغم أن الامبراطور أرثوذكسي يرتبط روحياً بالكنيسة المصرية، فانه كان يتباهى بعلاقته القديمة بالتاريخ اليهودي والاصول اليهودية، الشيء الذي سهل لاسرائيل كثيراً من الأمور، مقابل أن تمده هي بالاسلحة والمدربين وبالتعاون الاقتصادي المتزايد، وتساعده في كتم ثورة ارتريا وساحل الصومال الغربي.

وفي نفس الوقت كان الامريكيون عنصر ربط وارتباط آخر بين اسرائيل واثيوبيا ، فحتى ذلك التاريخ كانت اثيوبيا الامبراطورية لصيقة الارتباط بالسياسة الامريكية وبالمعسكر الغربي بصفة عامة ، وكان الوجود الامريكي المباشر قائماً خاصة في قاعدة «كاجنيو» القريبة من أسمرة عاصمة ارتريا المحتلة، وفي هذه المنطقة كانت توجد أضخم قاعدة للاتصالات الامريكية خارج الأراضي الامريكية ذاتها، ومنها كانت ترصد كل حركة في المحيط الهندي وبحر العرب وخليج عدن والخليج العربي والبحر الاحمر ، أي كانت ترصد منابع البترول وطرق امداداته وتدفقه الى أوروبا وأمريكا بما يعنيه ذلك من أهمية استراتيجية بالغة لواشنطن، ومن ثم فقد ساعدت على توثيق علاقات

الود والصداقة ثم التعاون الاقتصادي والعسكري فيما بين اثيوبيا صديقتها ـ جنوبا ـ المطلة على القرن الافريقي وباب المندب، باحتلالها للساحل الارتري، وبين اسرائيل صديقتها الاخرى ـ شمالا ـ المطلة على خليج السويس ومضايق تيران باحتلالها لسيناء ولشرم الشيخ بصفة خاصة.

على الجانب المقابل، بدأت مصر منذ ١٩٧١، وبعد أن لمست نجاح عملية الكورال سى في الاتجاه جنوباً هي الأخرى، فقد أحس قادة الفكر العسكري المصري أنهم أهملوا طويلا البحر الاحمر بامتداداته الساحلية، رغم أنهم يتمتعون فيه بميزة استراتيجية لا تتوفر للعدو الاسرائيلي وتتمثل في الآتي:

(١) ان لمصر سواحل طويلة على البحر الاحمر بها عدة موان وقواعد بحرية يسهل العمل منها، بعكس اسرائيل.

(٢) ان الساحل السوداني يمثل امتدادا استراتيجيا للساحل المصري، على نفس البحر ويضيف اليه عمقا جديداً.

(٣) ان الساحل السعودي فاليمني هو الساحل المواجه شرقاً على الأرض الاسيوية للبحر الاحمر، الامر الذي يمكن بالتنسيق استخدامه عند الضرورة.

(٤) ان اليمنين ـ الشمالي والجنوبي ـ هنا عمليا المتحكمتان في أهم النقاط الاستراتيجية لباب المندب، يضاف اليهما اقتراب الساحل الصومالي من مدخل البحر الاحمر ناحية المحيط الهندي.

(٥) بينما اسرائيل لا تتمتع الا بميزة العلاقات الوثيقة مع أثيوبيا التي منحتها بعض التسهيلات غير المؤكدة التأثير عسكريا في موانى وجزر الساحل الارتري المحتل.

ولقد أدى كل ذلك بالفكر المصري الى احساسه بضرورة تدعيم النشاط البحري في البحر الاحمر حتى باب المندب، لعرقلة انسياب الملاحة الاسرائيلية، ولاشعار اسرائيل أن التمسك بشرم الشيخ ليس هو الوصول الى النصر الدائم، وليست هي بنقطة الحدود الآمنة النهائية.

وفي ظل هذا المفهوم تقدمت مصر بمذكرة لمؤتمر وزراء الدفاع العرب في اطار الجامعة العربية خلال النصف الاول من عام ١٩٧١ حول أهمية التنسيق العسكري والبحري في البحر الاحمر.

وفي الفترة من ١٩٧١ الى ١٩٧٣ قامت لجنتان عسكريتان مصريتان بزيارة استطلاع ودراسة الى كل من اليمن الديموقراطية والجمهورية العربية اليمنية، وأحيطت أعمالهما ونشاطهما بنطاق عميق من السرية. وقد استطلعت اللجنة الاولى جزيرة بريم في مدخل باب المندب وساحل عدن الجنوبي ومضيق باب المندب وجزيرتي حنيش الصغرى وحنيش الكبرى وذقر وقمران.

وركزت في استطلاعها على الحصول على معلومات مفصلة عن منطقة جنوب البحر الأحمر والجزر المنتشرة بها من حيث الموقع والأهمية الاستراتيجية وطبيعة الأرض والساحل ومدى الصلاحية والسعة التكتيكية ومصادر المياه والسكان وأسلوب الدفاع عنها وامكانية المراقبة والانذار والنقل والامداد والعمل منها والعوامل الجوية السائدة. (٥٤)

وتبين للجنة أن جزيرة «بريم» بحكم موقعها الجغرافي في مدخل باب المندب ذات أهمية قصوى، مع ربطها بالوضع النسبي للساحل

(٥٤) استراتيجية البحر الأحمر في اطار حرب ١٩٧٣ دراسة أعدها العميد أ.ح صلاح الدين فهمي عضو الامانة الفنية للجنة العسكرية لتسجيل تاريخ ثورة ١٩٥٢ ـ ندوة جامعة عين شمس.

اليمني عند راس الشيخ سعيد، بالاضافة الى سهولة الدفاع عنها والتمسك بها، كما أن تدخل اسرائيل ضدها أمر مستبعد، الا في حالة الارتكاز على مجموعة الجزر الاثيوبية (الارترية) والساحل الاثيوبي ، وهذا أمر من الجائز وقوعه نتيجة للوجود الاسرائيلي القائم طبقاً للتسهيلات الاثيوبية في مجموعة جزر دهلك وميناثي عصب ومصوع. ومن هذه المواقع يمكن لاسرائيل إما الاكتفاء بالمراقبة والانذار وإما تطوير الاتجاه الى التعرض لاي نشاطات بحرية مصرية وعربية في المنطقة.

وفي ابريل ١٩٧٣ قامت لجنة عسكرية مصرية أخرى بمحاولة ثانية للدراسة على الطبيعة في كل من اليمن الديموقراطية (عدن) واليمن الشمالية (صنعاء). وضمّت اللجنة أحد قادة التشكيلات البحرية الرئيسية وثلاثة مختصين آخرين في التخطيط من القيادة العامة للقوات المسلحة.(٥٥)

ويبدو أن اللجنة قابلت مجموعة من الصعوبات في عدن حيث كان الوضع بالغ الحساسية، بينما أشاد أعضاؤها في تقريرهم بالتفاهم الذي قوبلوا به في صنعاء التي سهلت لهم استطلاعاً بحريا وجويا لجزر جبل الطير والزبير وأبوعيل وذقر وحنيش الكبرى والصغرى وبريم.

وكان الهدف من أعمال الاستطلاع والدراسة على الطبيعة التي قامت بها اللجنتان في عامي ١٩٧١، ١٩٧٣ اعداد تصور كامل عن امكانية تعرض النشاط العسكري المصري لخطوات المواصلات البحرية الاسرائيلية، عبر جنوب البحر الاحمر وبالذات في مداخل باب المندب وعند القرن الافريقي، وذلك كله في اطار الاهداف الاستراتيجية

(٥٥) استراتيجية البحر الاحمر ــ مرجع سابق.

العامة التي كانت مصر تعدها لحرب ١٩٧٣.

وحتى ما قبل يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ كان الموقف البحري لكل من مصر واسرائيل في البحرين الابيض والاحمر كالتالي: (٥٦)

*** اسرائيل:

تتمركز وحداتها البحرية في ميناء أشدود وحيفا على البحر الابيض المتوسط وفي ايلات وشرم الشيخ ومراسي خليج السويس — راس سدر وابورديس — على البحر الاحمر.

*** مصر:
تتمركز وحداتها البحرية في الاسكندرية وبورسعيد على البحر المتوسط. وفي سفاجة والغردقة على البحر الأحمر.

وبمقارنة القوتين البحريتين يلاحظ تفوق مصر على اسرائيل في أسلحة المدمرات والغواصات ووحدات بث وكسح الالغام، بينما تتفوق اسرائيل على مصر نسبيا في لنشات الصواريخ وتخصيص مجهود جوي أكبر لمعاونة القوات البحرية خاصة في طائرات الهليكوبتر التي تعمل مع البحرية.

وفي اوائل اكتوبر ١٩٧٣ اعلن عن بدء تنفيذ المناورة السنوية لقوات مصر البحرية، وفي صمت تحركت الغواصات المصرية في البحر الابيض المتوسط الى مناطق محددة لها تحمل مظاريف مغلقة بين طياتها السر الذي يحدد المهام القتالية، كما تحركت غواصات البحر الاحمر تحت ستار اجراء اصلاحات لها في احد موانى باكستان، أما المدمرات فقد تمركزت واحدة بميناء طرابلس الليبي بينما تحركت

(٥٦) حرب رمضان — مرجع سابق.

مدمرات البحر الاحمر جنوبا الى باب المندب مباشرة. وفي الوقت المناسب تم شحن الصواريخ البحرية وتجهيز لنشات الصواريخ والمدفعية الساحلية في هدوء تام حتى اندلعت حرب ٦ اكتوبر ١٩٧٣ في الساعة الثانية ظهراً.(٥٧)

ومنذ الساعات الاولى لبداية الحرب أعلنت مصر رسمياً أن البحر الاحمر بمياهه الدولية من خليجي السويس والعقبة شمالا حتى باب المندب والقرن الافريقي جنوبا منطقة عمليات عسكرية تحظر الملاحة فيها.

وبذلك استطاعت مصر اغلاق باب المندب بتسهيلات عربية ملموسة، وعرقلة خطوط المواصلات البحرية الاسرائيلية واسقاط نظرية الامن القائمة على التمسك بشرم الشيخ الى الابد.

فإذا سقطت شرم الشيخ في يد اسرائيل، أمكن اقامة حاجز عسكري آخر عند باب المندب ، وهكذا فان الحرب ليس لها حدود أو قيود ، اذا تحقق الحد الادنى من التنسيق العربي بين الممسكين بمداخل البحر الاحمر عند القرن الافريقي وأولئك الممسكين بمدخله عند السويس.



(٥٧) حرب رمضان ــ مرجع سابق.

الفصل الثالث

ظلال القوى العظمى على صراعات القرن الافريقي

١- اثيوبيا تنظر شرقاً .
٢- المواجهات المسلحة بين اثيوبيا والصومال .
٣- القرن الافريقي فيما بين الحربين .
٤- روح التحدي ومقدمات الحرب الثانية .
٥- اصدقاء الأمس اعداء اليوم !
٦- من المسرح السياسي الى المسرح العسكري .
٧- أرتريا تكسر حصار الصمت .
٨- انكسار دائم أم انحسار مؤقت !!

(١) أثيوبيا تنظر شرقا

أدت المصالح السياسية والعسكرية والاستراتيجية باسرائيل، في ظل الحصار العربي، الى أن تنظر جنوبا ، تجاه (المخنق) الجنوبي للبحر الأحمر عند القرن الافريقي ، حيث يقتسم العرب واثيوبيا مناطق السيطرة .. والتحكم في مضايق باب المندب والجزر المتناثرة عبره وعند مداخله.

ولقد أدت نفس المصالح والمطامع والمطامح بأثيوبيا الى أن تنظر شرقا ، الى نفس المخنق ذي الأهمية الاستراتيجية البالغة، خاصة في ظل تعقد صراعات القوى العظمى، وتصاعد أهمية هذا الطريق بعد تدفق البترول من الخليج والجزيرة العربية وايران الى الدول الصناعية في أوروبا وأمريكا.

الفارق الأساسي بين التوجه الاسرائيلي، والتوجه الاثيوبي تجاه الجنوب والشرق هو فارق زمني ، فقد كانت اثيوبيا هي الأسبق.

ولقد رأينا أن اثيوبيا الامبراطورية منذ عصر منليك الثاني (١٨٨٩ - ١٩١٣) مرورا بعصر هيلاسي لاسي ثم أخيرا عصر انقلاب ١٩٧٤ كانت ومازالت تؤكد يوما بعد يوم اهتمامها الاستراتيجي بالاطلال على باب المندب، وتمسكها الحديدي بالساحل الصومالي (الصومال الغربي وأبو) وبالساحل الأرتري كذلك، المطلين على البحر الأحمر والمحيط الهندي المتمركزين فوق القرن الافريقي.

وبتلخيص شديد فإن اثيوبيا الحديثة تقول :

ooo إن امبراطورية اثيوبيا التاريخية القديمة كانت قائمة في الماضي مدة ثلاثة آلاف سنة حيث لم تكن هناك في التاريخ دولة باسم الصومال.

●●● إن حدود هذه الامبراطورية كانت تصل الى الخرطوم غربا وبحيرة فيكتوريا جنوبا، وسواحل البحر الأحمر والمحيط الهندي شرقا وشمالا، أي انها كانت تضم كل أراضي الصومال وارتريا وكينيا الحالية وجزءا كبيرا من السودان!!

●●● إنها طبقا للاتفاقيات التي عقدتها الحبشة مع الدول الأوروبية المتنافسة في المنطقة خلال القرن التاسع عشر ــ بريطانيا وفرنسا وايطاليا خاصة اتفاقيات ١٨٩٧ ــ قد أصبح لها حق قانوني وواقعي في كل أراضي الصومال الغربي وأبو وهرر. (٥٨)

●●● إنها ضمت ارتريا في ظل وضع فيدرالي عام ١٩٥٢ ثم أدمجتها في الامبراطورية عام ١٩٦٢ كخطوة استعادت بها أراضيها القديمة!!

وتطبيقا لهذه المبررات التي تسوقها اثيوبيا فإنها دخلت عمليا كطرف أساسي وشريك في محاولة الدول الاستعمارية الأوروبية اقتسام الأراضي في القرن الافريقي وسواحل البحر الأحمر، خلال القرن التاسع عشر، وثبتت ذلك في القرن العشرين. وقد استفادت اثيوبيا كثيرا من مساعدة الدول الأوروبية المتصارعة على هذا القرن، استفادت من حيث الأراضي والتوسع وبسط النفوذ، والتزمت الدول الثلاث ــ بريطانيا وفرنسا وايطاليا ــ في اتفاق مشترك بحماية ودعم حدود الامبراطورية الاثيوبية من أي تهديد منذ القرن التاسع عشر.

لكن الاستفادة الاستراتيجية الأساسية التي حصلت عليها اثيوبيا من كل ذلك كانت متمثلة في الخروج من حصار الأرض اليابسة، لتطل على البحر والمياه المفتوحة.

وبعد ان كانت دولة «برية» محاصرة ومغلقة في اسار الهضبة

(٥٨) راجع الفصل الثاني والمراجع في نهاية الكتاب.

الحبشية أصبحت دولة بحرية لها سواحل تطل على مياه المحيط الهندي عبر خليج عدن وعلى البحر الأحمر وتتحكم من الغرب في باب المندب.

ولقد واجهت اثيوبيا في سبيل التمسك بهذه الاستراتيجية عاملين مضادين:

الأول: هو العامل الصومالي الارتري الذي رفع راية المعارضة للتوسع الاثيوبي، ومناهضة تمسك الامبراطورية الاثيوبية بحدود تزعم انها تاريخية.

الثاني: هو العامل العربي بشكل عام الذي سارع بتأييد التحرك الصومالي الارتري، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر، تضامنا مع الصوماليين والارتريين، أصحاب الأصول العربية القديمة التي امتزجت بالعنصر الافريقي منذ الهجرات التاريخية الأولى.

بينما وجدت اثيوبيا عوامل مساعدة أخرى في تنفيذ هذه الاستراتيجية أهمها:

الأول: الدول الاوروبية والامريكية بشكل عام التي تعاطفت مع اثيوبيا منذ القدم لاعتبارات سياسية ودينية.

الثاني: اسرائيل التي وجدت في اثيوبيا الصديق التقليدي والدولة غير العربية الوحيدة المطلة على البحر الأحمر ، وجاءت المصالح السياسية والعسكرية لتضع اثيوبيا واسرائيل في جبهة واحدة لمواجهة الجبهة الغربية المعادية.

الثالث: أما الاتحاد السوفيتي الذي كان على الدوام في صف المعارضة للتوسع الاثيوبي، وحامل لواء النقد العنيف

لسياسات الامبراطورية الاثيوبية في كبت حرية الصوماليين والارتريين وحرمانهم من حق تقرير مصيرهم، فقد كان حتى سنة ١٩٧٤ يساند حركة التحرر الارتري والكفاح الصومالي المطالب باستعادة أراضيه الواقعة تحت الاحتلال الاثيوبي، لكن حدث انقلاب في موازين التحالفات والصداقات في القرن الافريقي منذ عام ١٩٧٤، عندما وقع الانقلاب العسكري ضد الامبراطور هيلاسي لاسي، ورفع ضباط الثورة الاثيوبية شعارات الاشتراكية ، فتبدل الحلفاء وأعلن السوفيت دعمهم للنظام الجديد في أديس أبابا، رغم أن هذا النظام ظل إلى الآن يتمسك بكل مطالب ومزاعم الامبراطور المخلوع في ملكية أراضي الصومال وارتريا.

وهكذا نرى أن تذبذب عامل الجذب قد لعب دورا أساسيا في منطقة القرن الافريقي في مختلف المراحل التاريخية سواء على مستوى تغير واختلاف السيادة على الأرض أو على مستوى التحالفات والصدامات والعداوات رغم ثبوت أطراف الصراع المحليين تقريبا، والمتمثلة في الطرف الاثيوبي من ناحية، والطرف الصومالي والارتري من ناحية أخرى.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن الصوماليين يختلفون عن الارتريين من النواحي القومية والعرقية، وان كانوا يتفقون في كثير من النواحي الأخرى ، أهمها بالطبع تلاقي المصالح واتفاق الأهداف السياسية المتمثلة في مقاومة الاحتلال الاثيوبي لكل من الصومال الغربي وأبو ولأرتريا.. (٥٩) واذا كان العرب قد وجدوا أنفسهم في موقف

(٥٩) معظم الارتيريين ينتسبون الى عنصر التيجري وتدين غالبيتهم بالاسلام. إلا أن الصوماليين.لهم أصول حامية قرشية الأصل،ويقال إن الصوماليين انحدروا من فرعين رئيسيين من قريش هما: «ساب وصومالي». وقد انحدر من صومالي ٤

التعاطف والالتقاء الاستراتيجي مع الصوماليين والارتريين لأسباب متنوعة، تبدأ بالعوامل العرقية والدينية وتنتهي بالمصالح السياسية ، فإن اثيوبيا وجدت نفسها كذلك في موقف التعاطف والالتقاء الاستراتيجي مع اسرائيل أيضا لأسباب متنوعة، أهمها البعد التاريخي للعلاقات بين ممالك الحبشة القديمة واليهود، وأخطرها التقاء الطرفين في مواجهة سياسية بالغة الشدة مع العرب ، والمعادلة واضحة المعالم.

*** العرب — في معظمهم — يساعدون الصومال وارتريا ضد السيطرة الاثيوبية و يعادون اسرائيل في نفس الوقت.

*** اثيوبيا تعادي معظم العرب المطالبين باستقلال ساحل الصومال الغربي وارتريا لتحرمها من الاطلال على سواحل خليج عدن فمياه المحيط الهندي وعلى باب المندب والبحر الأحمر، بكل ما يمثله هذا من ثقل استراتيجي.

*** اثيوبيا واسرائيل تتعاونان لتحرما العرب من أحكام قبضتهم على باب المندب والقرن الافريقي وسواحل وجزر البحر الأحمر الارترية الاصل التي تحتلها اثيوبيا الآن. فبين الدولتين مصلحة مشتركة فرضتها تلك العقدة الجيوبوليتيكية القابضة على المدخل الجنوبي للبحر الأحمر ، ولذلك تبادلت الدولتان التنسيق

قبائل رئيسية هي العيسى واسحق وهوايا ودارود والأخيرة أكبر القبائل الصومالية على الاطلاق. بينما انحدر من ساب قبيلتان هما: «ديجل ورهانوين» .. وتدين القبائل الست هذه بالاسلام وتنقسم فيما بينها الى ٨٥ قبيلة فرعية يعيش معظمها على الرعي في الوديان والسهول، و يشتغل بعضها في الزراعة خاصة في وديان النهرين الرئيسيين بالصومال «جوبا وشبيلي» و يلاحظ أن هذه المجموعات القومية الصومالية تتوزع على أراضي الصومال الحالية وعلى الجزء الشمالي من كينيا وعلى منطقة الحدود الصومالية الاثيوبية المتداخلة وخاصة الأراضي التي احتلتها اثيوبيا من الصومال.

السياسي والعسكري، ابتداء من التعاون في جمع المعلومات واقامة نقاط الرصد والانذار والمراقبة في جزر دهلك وحالب، الى التعاون العسكري الفعال خاصة بعد أن أوقفت الولايات المتحدة الامريكية امداداتها من الأسلحة والمعدات العسكرية لأثيوبيا منذ ١٩٧٦، ١٩٧٧، بعد أن ثبت السوفيت أقدامهم في اثيوبيا «الاشتراكية» وتغيرت نتيجة لذلك موازين التحالفات ، وتبدلت نتائج الاستقطاب.

انفصل الصومال عن السوفيت ومال أكثر الى خط المحافظة والاتجاه غربا، وارتمى الاثيوبيون في حضن السوفيت وأزاحوا الوجود الأمريكي التقليدي.

وعلى المستوى العربي تطلع الصوماليون أكثر الى مساعدة الدول العربية وخاصة دول الخليج العربي، بينما وثقت اثيوبيا علاقاتها أكثر بالنظم العربية الراديكالية خاصة مع جمهورية اليمن الديموقراطية، [الكلام الآن عن مرحلة أسبق من هذه ببضع سنوات].

ولقد كان من الطبيعي أن تتصادم الارادات المحلية والعالمية في القرن الافريقي نتيجة لكل ذلك، وان تتعارض المصالح والأهداف في ناحية، وتتفق في ناحية أخرى.

إلا أن الحرب المسلحة كانت هي النتيجة الحتمية لتصادم الإرادات، وتعارض المصالح والأهداف الاستراتيجية ، فجاءت المواجهة المسلحة الأولى بين الصومال وأثيوبيا في بداية عام ١٩٦٤، وسرعان ما أعقبتها المواجهة المسلحة الثانية بين البلدين في عام ١٩٧٧

ولم تكن هذه وتلك الا تعبيرا عن تصادم الارادات وتعارض المصالح ، كما انها لم تكن الا اختبارا عمليا لصراعات القوى العظمى واستغلالها للأطراف المحلية في تجربة «الصدام المحدود» في

ظل سياسة الوفاق السوفيتي الأمريكي ، الذي حد من فرص الحروب العالمية الشاملة، ولكنه لم يمنع أو حتى يقيد من الحروب المحلية المحدودة، ولم يصادر حرية القوتين العظميين في حماية مصالحهما الاستراتيجية حتى ولو وصل الأمر الى عمليات عسكرية ذات هدف محدد أو حروب محلية تجرى طبقا لمقاييس متفق عليها.

كيف بدأت الحرب ، وفي أي ظروف نشأت وتطورت ثم توقفت !؟

* * * * *

(٢) المواجهات المسلحة بين أثيوبيا والصومال :

في البداية نقول إن الخريطة السياسية للقرن الإفريقي هي خريطة بالغة التعقيد ، بسبب تداخل العناصر والأصول العرقية والحضارية المختلفة ، وبسبب تصارع الإرادات السياسية حول الحدود ، وبسبب تعرض هذه الحدود أصلا لعشرات التعديلات والتغييرات خاصة خلال القرن الأخير.

لكننا نستطيع القول إن خريطة القرن الافريقي من الناحية الجغرافية ، تضم مساحات الأرض الهائلة التي تمتد عبر النتوء الشرقي للساحل الشمالي الشرقي لافريقيا، المطل على خليج عدن والمحيط الهندي والمداخل الجنوبية للبحر الأحمر، والممتد الى الداخل حتى حدود أثيوبيا وكينيا والسودان والصومال .

أما تقسيم الخريطة من الناحية السياسية فهو يضم ببساطة ٤ قوى سياسية حالية ، هي أثيوبيا والصومال وجيبوتي وأرتريا .

وتتمتع أثيوبيا والصومال بشكل ومضمون « الدولة » من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية ، وتشكلان القوتين الأساسيتين للصراع في القرن الافريقي ومحور الصدام القديم الجديد معاً .

أما جيبوتي — آخر المستعمرات الفرنسية المستقلة — فهي لا تكاد تشكل دولة بالمعنى المفهوم ، لأنها تفتقر — رغم الاستقلال — لمقومات الدولة اقتصاديا وسياسيا وعسكريا .

بقي الشعب الأرتري ، ورغم أنه يحسب في نطاق « القوى » السياسية في القرن الافريقي ، فهو خاضع للاحتلال الأثيوبي و يشن —



خريطة الصراع في القرن الافريقي
بأطرافه الثلاثة : الصومال — أثيوبيا — أرتريا

حرب تحرير طلبا للاستقلال ، ومن ثم فهو ليس في نطاق الدول ، وان كان في نطاق الصراع يحسب كمحور من محاور تحريك الصدام في القرن الأفريقي ، وهو بهذا المفهوم يضاف غالبا لصالح الصومال ضد الاستراتيجية الأثيوبية القائمة على الحرب حتى الموت من أجل التمسك بالصومال الغربي وأرتريا عينها التي تطل على مضايق باب المندب وسواحل البحر الأحمر.. وهنا نعود للتأكيد على حقيقتين :

الأولى أن مملكة الحبشة فوق المضبة مملكة قديمة لها مميزات عرقية ودينية وثقافية ، وان امبراطورية أثيوبيا الحالية هي نتاج السياسة التوسعية لمملكة الحبشة المضبة التي أفرزت دولة لها حدود سياسية تتعدى حدودها القومية الأصلية لتضم شعوبا وقوميات ولغات وديانات مختلفة ومتناقضة .

الثانية انه نتيجة لهذا التوسع أصبحت أثيوبيا خليطا من القوميات تتصادم فيما بينها من ناحية ، وتتصادم مع القوميات المجاورة من ناحية أخرى ، وجاء هذا التصادم المستمر على أنقاض شعوب وقوميات ودول ودويلات قديمة ، كما جاء فوق بركان هائل من العداوات والخلافات العرقية والدينية والثقافية والسياسية شجع الاستعمار الأوروبي خلال القرن التاسع عشر على تغذيتها وبلورتها الى حد العداء المستحكم .

وفي ظل هاتين الحقيقتين أصبحت الحدود السياسية القائمة تختلف اختلافا كليا عن الحدود القومية ، ففي ظل صراع الدول الاستعمارية الأوروبية ــ التي دخلت أثيوبيا شريكا لها ــ في اقتسام القرن الافريقي ، والتكالب على أراضيه ، تم توزيع المكاسب والأسلاب بين الدول المتصارعة بمقاييس سياسية لم تراع أي قواعد لوحدة الشعوب أو

لقاء القوميات أو تشابه اللغة والدين والثقافات، وإنما تم توزيع المغانم بمنطق أن يأخذ كل ما يستطيع الحصول عليه.

وكان من نتيجة هذا الوضع غير الطبيعي أن تداخلت الحدود وفصلت بين أبناء القومية الواحدة، ووزعت أعضاء القبيلة الواحدة على أكثر من دولة، وكان الهدف الرئيسي هو تفتيت وحدة القومية الأساسية في القرن الأفريقي، وهي القومية الصومالية التي جسدت إلى حد كبير حضارة وثقافة ولغة ودين وشعب موحد.

وعلى هذا الأساس نشأ وتطور صراع الإرادات القومية والسياسية في القرن الأفريقي، فقد ظلت خلافات الحدود هي التي تحكم حركة هذا الصراع وتوجهه، وستظل كذلك ربما إلى فترة طويلة، وليست هذه السمة ــ سمة صراع الحدود ــ قاصرة على حالة الصومال وأثيوبيا في القرن الافريقي، بل هي ظاهرة سياسية عامة تسود القارة الأفريقية كلها بفعل السياسة الاستعمارية القديمة، التي كانت قائمة أساساً على المبدأ الاستعماري البريطاني «فرق تسد».

وكان من نتائج صراع الامبراطوريات الأوروبية الاستعمارية وتكالبها على بسط نفوذها خلال القرن التاسع عشر على أفريقيا واقتسام ثرواتها الهائلة أن تم تفتيت وتقسيم الأراضي بشكل يتناقض مع مصالح الشعوب والقبائل الأفريقية، بل يعادي بينها حتى لو كانت ذات أصول عرقية واحدة.

وهكذا ظلت مشكلة الحدود الأثيوبية الصومالية قائمة حتى اليوم، تمثل برميل البارود الدائم التجدد والتفجر بسبب تعقد الأوضاع الجغرافية والسياسية بينهما منذ القدم، ونتيجة لطموح أثيوبيا الامبراطورية في التوسع وبناء دولة مترامية الأطراف، لها عمق داخلي،

ولها ساحل تطل منه على العالم الخارجي بعد طول عزلة وانعزال فوق الهضبة الحبشية. وفي مواجهة ذلك طموح الصومال إلى إقامة دولة «الصومال الكبير» ذات الأصل العرقي والثقافي والحضاري والدين الواحد لكي تضم الأجزاء الصومالية الخمسة الموزعة والمشتتة وهي:

جمهورية الصومال الحالية والتي تضم جزأين كانا تحت الاحتلال البريطاني والايطالي، وجيبوتي التي كانت تسمى الصومال الفرنسي قبل الاستقلال. والجزء الرابع هو الصومال الغربي وأبو الواقع تحت الاحتلال الأثيوبي، أما الخامس فهو منطقة الحدود الصومالية الكينية ــ شمال شرق كينيا ــ التي ضمها الاستعمار البريطاني لمستعمرته في كينيا قبل الاستقلال. (٦٠)

---

(٦٠) يتكون العلم الصومالي من خمسة أقسام ترمز إلى أقسام الصومال الخمسة كما أن المادة السادسة من أول دستور للصومال بعد الاستقلال في ١٩٦٠ تنص صراحة على العمل لتحقيق وحدة كل الأراضي الصومالية بأقسامها الخمسة هذه، لكن الوضع تغير قليلا في الدستور الجديد الذي وضعه نظام الرئيس محمد سياد بري في عام ١٩٧٩، بعد عشر سنوات تقريبا من سيطرته على الحكم والغائه الدستور السابق. ففي ٣٠ أغسطس ١٩٧٩ أجري استفتاء شعبي في الصومال على مشروع الدستور الجديد ووفق عليه بالأغلبية العظمى. ويلاحظ أن المادة السادسة عشرة منه تناولت مشكلة «الوطن الصومالي الكبير» بمفهوم مختلف أثار ارتياحا في الدول المجاورة التي في نزاع مع الصومال بسبب الحدود خاصة أثيوبيا وكينيا. فقد نصت المادة على أن تدعم جمهورية الصومال تحرير الأراضي الصومالية ــ المحتلة ــ فقط بالوسائل الشرعية والسلمية.

ومن الواضح أن هذا التغيير في معالجة قضية الأراضي الصومالية المحتلة قد جاء بعد تجارب مريرة تعرضت فيها مقديشو لهزات سياسية واقتصادية عنيفة، منها حرب الحدود مع كينيا التي استمرت ــ عبر عمليات فدائية ــ ٤ سنوات في الستينات، ثم الحرب الأولى ــ ١٩٦٤ ــ والثانية ٧٧ ــ ١٩٧٨ مع أثيوبيا، ثم استقلال جيبوتي رسميا في عام ١٩٧٧.

وقد أدى صراع الإرادات السياسية وتعارض المصالح والأهداف الاستراتيجية بين أثيوبيا والصومال الى استمرار نزاعهما التقليدي الذي يخفت أحيانا فلا نسمع له إلا صوت المبارزات السياسية والدبلوماسية ، و يعلو أحيانا أخرى في شكل حروب ومواجهات مسلحة دامية وعنيفة ، كتلك التي شهدتها المنطقة في عامي ١٩٦٤ ، ١٩٧٧ .

ولقد غرس الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر على أرضية الصراع الصومالي الأثيوبي كثيرا من المتاعب والعقبات التي حالت دون تسوية هذا الصراع والاتفاق على حل وسط ، كما حدث بين دول كثيرة ، فقد كان لاقتطاع أجزاء صومالية كثيرة وضمها لأثيوبيا خلال فترة توسعها أبعد الأثر في تعميق الكراهية والعداء بين الشعبين المتجاورين على مر الزمن . فقد رأينا أن أثيوبيا احتلت منطقة « هرر » في عام ١٨٨٧ ، ثم حصلت على « أوجادين » كمنحة من بريطانيا في عام ١٨٨٩ نظير معاونة أثيوبيا العسكرية لبريطانيا في اخماد الثورة المهدية بالسودان ، ثم ضمت في نفس العام منطقة « هود » .

ونتيجة لغزو إيطاليا لأثيوبيا في عام ١٩٣٤ ، وبانتهاء الحرب العالمية الثانية أعيد تقسيم الممتلكات الايطالية في القرن الافريقي كله ، فاستعادت اثيوبيا كل الأراضي التي كانت إيطاليا قد استولت عليها منها ، ووضعت منطقتا أوجادين وهرر تحت الإشراف البريطاني حتى عام ١٩٥٥ ، عندما سلمت بريطانيا هاتين المنطقتين مرة أخرى لأثيوبيا على غير رغبة سكانهما الأصليين .

لكن عام ١٩٦٠ كان يحمل لمنطقة القرن الأفريقي رياحا ساخنة أخرى ، فقد استقل في ٢٦ يونيو من ذلك العام الصومال البريطاني ، وبعد أربعة أيام فحسب أعلن اندماج واستقلال الصومال البريطاني والايطالي معا في ظل جمهورية الصومال لتخرج الى العالم بأول

كيان سياسي موحد من بين أقاليم الصومال الخمسة القديمة.

ومنذ البداية وفي أول دستور للصومال المستقل جاء النص صريحا على أن تعمل الجمهورية الوليدة على استعادة سيادتها ووحدتها بأن تضم باقي الأقاليم الخمسة أي الصومال الفرنسي ــ العفر والعيسى ــ وساحل الصومال الغربي وأبو من أثيوبيا والأقليم الشمالي الشرقي لكينيا.

وأصبح هذا النص نذير سوء لكل من أثيوبيا وكينيا، فقد كان عليهما أن يستعدا للمتاعب القادمة ، تلك المتاعب التي لم يطل انتظارها كثيرا ، فسرعان ما بدأت اشتباكات الحدود بين الصومال وكينيا، وإن كانت متفرقة، كما أن المواجهة المسلحة الشاملة الأولى بين الصومال وأثيوبيا انفجرت في عام ١٩٦٤.

لكن قبل ذلك الانفجار كانت هناك أحداث كثيرة ترسم له الطريق وتمهد له، ويبرز من بين هذه الأحداث حدثان لهما أهمية بالغة في تطور الصراع الدائر في القرن الافريقي حتى اليوم:

الحدث الأول:

هو قيام حكومة الصومال المستقل الجديدة خلال العام الأول لتكوينها بتوقيع أول اتفاقية عسكرية مع الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٦١.

**** الحدث الثاني:**

بدء الشعب الارتري كفاحه المسلح في نفس العام ــ ١٩٦١ــ بعد تشكيل جبهة تحرير ارتريا المطالبة بحق تقرير المصير والاستقلال عن اثيوبيا.

وقد كان الحدثان يعنيان ببساطة ان الصومال لن تقف مكتوفة الأيدي ــ وهي الدولة الحديثة التكوين الضعيفة التسليح ــ في مواجهة اثيوبيا التي استفادت كثيرا من المعونات الأوروبية والأمريكية خاصة في مجالات التسليح، وان يد الغرب لن تظل مطلقة في القرن الافريقي، فإن موافقة السوفيت في ذلك الوقت المبكر على عقد اتفاقية تسليح مع دولة الصومال الناشئة بكل ما تتطلبه من تدريب وتعاون عسكري تعني ان قدم السوفيت قد امتدت الى القرن الافريقي، وهو القرن الذي لا يجهلون أهميته الاستراتيجية البالغة كنقطة اقتراب من بحيرة البترول الضخمة في الخليج وايران والجزيرة العربية، ومركز تحكم في مضيق باب المندب ومداخل البحر الأحمر الجنوبية.

بالاضافة الى ذلك فان اثيوبيا ــ الدولة الكبيرة التي كان الغرب الأوروبي الأمريكي قد راهن على استقرارها وعلى دورها الاستراتيجي ليس في القرن فحسب، بل في كل القارة الافريقية ــ أصبحت الآن تغلي فوق براكين الثورة من جراء تحرك الصومال للمطالبة بهود وأوجادين من ناحية، وتحرك الارتريين في الشمال للمطالبة بحقهم في الاستقلال الوطني من ناحية ثانية ، الأمر الذي يعني بالضرورة انتشار هذه الروح «الجهنمية» بين قوميات وسلالات اخرى تحت السيطرة الامهرية الحاكمة في اثيوبيا.. اي ان النار بدأت تأكل البيت من داخله.

وكان ذلك ما حدث بالفعل ، فقد تدافعت الأحداث بسرعة،

فبينما نجح الامبراطور هيلاسي لاسي في اخماد انقلاب عسكري ضده في اديس ابابا خلال النصف الثاني من عام ١٩٦٠، سارع الصومال الى اختبار قوته العسكرية في صدام مباشر ــ وان كان محدودا ــ مع اثيوبيا على الحدود في ١٩٦١.

وبينما اقدم هيلاسي لاسي على ادماج ارتريا في امبراطوريته عام ١٩٦٢، توترت العلاقات بشدة بين الصومال وبريطانيا بسبب اصرار هذه على ضم الاقليم الشمالي والشرقي لكينيا التي كانت لا تزال تحت احتلال العلم البريطاني.

وبينما بدأ الاتحاد السوفيتي في امداد الصومال لأول مرة بالاسلحة بشكل واضح في عام ١٩٦٣، قامت اثيوبيا وكينيا بتوقيع معاهدة دفاع مشترك في نفس العام ، كان الغرض من ورائها التعاون ضد مطالبة الصومال «بنزع» الاقليم الشمالي الشرقي من كينيا والصومال الغربي من اثيوبيا.

وبينما تعرضت الصومال لموقف حرج خلال المؤتمر الأول لرؤساء افريقيا باديس ابابا في مايو ١٩٦٣ بسبب رفضهم الطلب الصومالي بالاعتراف بحق تقرير المصير للمناطق الصومالية الواقعة تحت السيطرة الاثيوبية والكينية، وبسبب اقرار ميثاق منظمة الوحدة الافريقية الذي نص على «عدم المساس بالحدود الراهنة بين الدول الافريقية » اشتعل قتال دام على الحدود الصومالية الأثيوبية في بدايات عام ١٩٦٤ نجحت خلاله حركة التحرير الصومالية في اعلان قيام حكومة مستقلة في اقليم اوجادين ، وسرعان ما امتدت نيران القتال الى أكثر من مكان الحدود.

وشهد عام ١٩٦٤ مزيدا من الصدامات المسلحة بين الدولتين ابتداء من اختراق الطيران الصومالي للمجال الجوي الاثيوبي عدة مرات، الى هجوم صومالي مكشف على مدينة «جيكجيكا» الى هجوم آخر على «توج وجالي» وعلى مدينة «دير جوربالي».

واشتعلت الجبهة الاثيوبية الصومالية بطول ٩٠٠ ميل على الأقل

بقتال شامل، تدخلت خلاله منظمة الوحدة الافريقية الوليدة، التي استطاعت ايقاف القتال وسحب قوات الطرفين الى مسافة ١٥ كيلومترا على جانبي الحدود، تمهيدا للاتفاق على تسوية سلمية مرضية للطرفين، بعد ان استمرت هذه المواجهة المسلحة الاولى بين الدولتين شهرين، عرفت خلالهما الدولتان طعم الحرب، وان لم يحقق اي منهما أهدافه السياسية والعسكرية من هذه الحرب ، فكان طبيعيا ان يستعد لجولة أخرى.

***

(٣) القرن الافريقي فيما بين الحربين :

وبرغم أن وزيري خارجية اثيوبيا والصومال عقدا اجتماعا في القاهرة خلال يوليو١٩٦٤ للاتفاق على أسس التسوية السلمية لأزمة الحدود، واللجوء الى مؤتمر القمة الافريقي الذي كان مقررا عقده بالقاهرة آنذاك ، ورغم ان نفس هذا المؤتمر اعاد تأكيد قراره باحترام الحدود القائمة والحالية بين الدول الافريقية، فإن الشهر التالي اي اغسطس من نفس العام شهد العودة الى حرب الاتهامات والاتهامات المضادة ، فقد اتهم الصومال اثيوبيا بانها تحشد قواتها على الحدود استعداد للهجوم ، بينما اتهمت اثيوبيا الصومال بالشيء نفسه.

ولقد اقتصر الأمر على تبادل الاتهامات من خلال حروب الميكروفون في معظم الأحيان، الأمر الذي كان يعني ان اللجوء الى العمليات العسكرية قد خفت حدته تحت تأثير عدة عوامل محلية واقليمية ودولية.

**** على المستوى المحلي:**

أثبتت المواجهة الأولى للصومال أنها لا تستطيع عمليا مجاراة

اثيوبيا من الناحية العسكرية ، فقد ثبت تفوق الجيش الاثيوبي على الجيش الصومالي الوليد، بفضل المعونات العسكرية الأوروبية والأمريكية التي طالما تدفقت على الأمبراطورية الأثيوبية.

يقابل ذلك ان الجيش الصومالي كان مجرد جيش مبتدىء حديث التكوين يفتقر الى التدريب والتسليح الجيد، وبرغم الاتفاقية العسكرية الموقعة بين مقديشو وموسكو في العام الثاني للاستقلال فإن نتائجها لم تكن قد وضحت بعد على الجيش، فلم تكن الامدادات قد تدفقت، ولم يكن التدريب قد تم على مثل هذه الاسلحة الحديثة.

** وعلى المستوى الاقليمي :

كانت القارة الافريقية ممثلة في منظمة الوحدة الإفريقية الناشئة ضد تورط أعضائها في منازعات ثنائية، وخاصة في منازعات الحدود، لانها تعلم ان «خلافات» الحدود سوف تجر حتما «حروب» الحدود بين الأغلبية العظمى من الدول الافريقية.

ولذلك فان المنظمة الناشئة سارعت في مواجهة حرب الحدود الصومالية الاثيوبية، باتخاذ خطوتين :

الاولى: تتمثل في قرارها الذي يتمسك باحترام الحدود الراهنة بين الدول الاعضاء عند الاستقلال، الأمر الذي يعني تكريس الوضع القائم ، والذي منه تستفيد اثيوبيا.

والثانية : تتمثل في تدخلها بجهد دبلوماسي مكثف لوقف العمليات العسكرية ثم التحرشات على الحدود ثم حرب الاذاعات والاتهامات. ولقد نجحت في ذلك الى حد كبير ، وان كان نجاحها جزئيا ووقتيا فقد استطاعت منظمة الوحدة الافريقية بفضل جهود الوساطة هذه ان تعمل على

تهدئة الموقف وتجميد الصدام العسكري، لكنها في النهاية لم تستطع وضع حل نهائي لهذه الأزمة المزمنة، وتركت باب الحرب مفتوحا في المستقبل.

** اما على المستوى الدولي:

فبرغم سريان رياح الحرب الباردة بين الدولتين العظميين ـ أمريكا والاتحاد السوفييتي ـ حتى ذلك الوقت الذي وقع فيه الصدام العسكري الاول بين اثيوبيا والصومال فإن موسكو وواشنطن كانتا في الواقع قد بدأتا الخطوات الأساسية الاولى لمرحلة التفاهم الدولي حول ضرورة التخلص نهائيا من كابوس الحرب الباردة، وبالتالي ضرورة الدخول في مرحلة جديدة من التفاهم الأقوى، وهي المرحلة التي افرزت فيما بعد سياسة الوفاق الدولي السائدة الآن بين العملاقين. ولقد جاء الموقف الامريكي تجاه الازمة الصومالية الاثيوبية الاولى متشابها الى حد ما مع الموقف السوفيتي، فعندما انفجر الموقف على الحدود وجهت الحكومة الامريكية نداء لطرفي النزاع تحثهما فيه على ضبط النفس، «وتسوية نزاعهما بطريقة سلمية وفي اطار افريقي» بينما أكدت الحكومة السوفيتية للطرفين ايضا على ضرورة تسوية هذا النزاع الاقليمي ـ وكل نزاع أو خلاف على حدود مشتركة ـ بطريقة سلمية، «اذ لا يوجد اي صراع يتطلب لتسويته حتمية اللجوء الى القوة المسلحة».

وفي ظل كل هذه العوامل المحلية والاقليمية والدولية خفتت لهجة الحرب في القرن الافريقي، وخضعت الدولتان طرفا النزاع للقيود والضغوط التي فرضتها تلك العوامل السالفة الذكر، سواء كان خضوعا عن قبول او خضوعا عن كره.

غير ان المحصلة الأساسية كانت سريان فترة من صمت الاشتباكات والاتهامات اعقبت وقف اطلاق النار في عام ١٩٦٤ وحتى عام ١٩٦٩، عندما وقع تطور جذري في نظام الحكم الصومالي بقيام الثورة العسكرية في نوفمبر من نفس العام تحت زعامة الجنرال محمد سياد بري، لتزيح الحكم المدني الذي تسلم قيادة البلاد منذ الاستقلال.

ولقد حركت الثورة الصومالية الكثير من المشاعر في الشعب الصومالي سواء داخل جمهورية الصومال المستقلة، او في تلك المناطق الصومالية الأصل الواقعة تحت السيطرة الأجنبية.

ومنذ البداية ركز «العسكر الصوماليون» على نقطتين هامتين كسبوا بهما التأييد الشعبي الجارف داخليا وخارجيا.

الأولى: الاصلاح الداخلي والغاء الاحزاب السياسية ــ ٦٩ حزبا في مرحلة ما قبل ثورة ١٩٦٩ ــ واعلان الاشتراكية العلمية فلسفة سياسية للصومال، وايقاف العمل بالدستور الأول الصادر بعد الاستقلال.

الثانية: بدء الكفاح لتحقيق الوحدة القومية لأقاليم الصومال الخمسة الأمر الذي يعني اعادة تعبئة الشعب الصومالي لتحرير اراضيه الواقعة تحت السيطرة الاجنبية، و يعني في نفس الوقت اعادة بناء الجيش وتحديث تسليحه وتدريبه.

وقد سارع الحكام الجدد في الصومال الى التوجه صوب الاتحاد السوفيتي طالبين الدعم والمعونة في مواجهة الدعم الأوروبي الأمريكي لاثيوبيا، وكان من الطبيعي ان يلتقط السوفيت الخيط، لأسباب استراتيجية هامة هي العثور على موضع لقدم في أقصى جنوب البحر الأحمر، بعد ان كانوا قد وطدوا آنذاك القدم الأولى في أقصى شمال

هذا البحـــر.

وبالـفـعل وجد السوفيت ــ حتى في ظل الوفاق الدولي ــ وفي ظل استراتيجيتهم الجديدة التي تقضي بالخروج الى البحار والمحيطات، والى الانـتـشار شـمـالا وجنوبا خاصة في القارة الافريقية والمحيط الهندي، وجـدوا ان تـنمية وتشجيع التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الصومال بعد ثورة ١٩٦٩ واجب عليهم وفرصة لهم في وقت واحد.

فالصومال دولة تحتل جزءا أساسيا من القرن الافريقي ذي الأهمية الاسـتـراتـيـجيـة الدولية البالغة، وهو القرن الذي طالما انفرد الاستعمار الـغـربـي باحتكار مواقعه وثرواته ومراكزه الحاكمة دون منافسة سوفيتية حقيقية.

وهـو ايـضـا الـقـرن الـذي يـطـل مـباشرة على حقول انتاج البترول الـضخمة في الجزيرة العربية والخليج وايران، كما يطل في نفس الوقت على خـطـوط نقله ومروره الى الغرب الصناعي المنافس، سواء عبر خليج عـدن الى مـضـيق باب المندب فالبحر الأحمر والبحر المتوسط متدفقا الى اوروبـا وامريكا، او عبر بحر العرب فالمحيط الهندي عبر قناة موزمبيق الى رأس الرجاء الصالح فالمحيط الاطلنطي حيث أوروبا وأمريكا.

كـمـا انـه الـقـرن الـذي عـبره حكمت بريطانيا وفرنسا وايطاليا في المـاضي، ثـم أمـريـكـا في الحاضر كل خطوط مواصلات الشرق والغرب ونـقـاط الـتـحـكـم في شرايين التجارة الدولية، سواء تم هذا من خلال الـوجـود الـعـسـكـري الـثـقـيـل المباشر كما كانت تفعل الامبراطوريات الأوروبـيـة الـقـديمة، او مـن خلال اقامة الـقواعد العسكرية وقواعد الاتـصـالات كـمـا فـعـلـت أمـريـكـا في قواعدها في اثيوبيا والاراضي الارترية المحتلة.

وعندما اعلنت حكومة الصومال الجديدة سياستها التي تمحورت حول الاشتراكية العلمية وتحديث الجيش وتسليحه في ظل اتفاقيات التسليح مع موسكو، فانها في الواقع قدمت للسوفيت دعوة للتعاون والعمل المباشر من ارض الصومال، التي كانت تشعر بمرارة شديدة نتيجة لضعف قدرتها العسكرية في مواجهة القدرة الاثيوبية المدعومة دائما من الغرب، وتشعر في نفس الوقت باحباط شعبي شديد نتيجة للضغوط الاقتصادية والاجتماعية والقبلية السائدة، في مواجهة طموحات قومية واجتماعية، تمثلت في اعادة بناء دولة الصومال ذات القومية الموحدة بكل اجزائها المقتطعة، وتحقيق معدل مناسب من النمو يساعد على مواجهة حالة التخلف التي تحكم هذا المجتمع.

على أن الصومال كانت مدفوعة الى التعاون الوثيق مع السوفيت تحت الحاح الضغط الاجتماعي والاقتصادي ، وفي نفس الوقت لمواجهة التحدي الاثيوبي الذي يحتل جزءا أساسيا من تراب الوطن الأم ويلقى في سبيل ذلك دعما أوروبيا أمريكيا لا حدود له. بل إنه كان يلقى دعما ــ ولو معنويا ــ من بعض النظم العربية المحافظة، التي كانت ترى في حكم الامبراطور الاثيوبي رمزا للاستقرار ومركزا لمكافحة الشيوعية في القرن الافريقي والقارة كلها.

ولقد عصفت الانواء بالقرن الافريقي طويلا ودفعت به بعيدا في هذا الاتجاه.

** الصوماليون يحاولون اعادة بناء دولتهم الأم من الداخل في ظل شعار الاشتراكية العلمية، مع ميل واضح تجاه الاتحاد السوفيتي يصل الى درجة التحالف.
** والاثيوبيون هم الآخرون يشددون على التمسك بما حصلوا عليه من الارض خاصة في ارتريا والصومال الغربي وأبو ، والدعم

يتوالى عليهم سياسيا وعسكريا واقتصاديا من المعسكر الغربي.

** السوفيت يتوسعون في الانتشار خارج نطاق العزلة التي عاشوها داخل الاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية ، فبعد ان نجحوا في اقامة رأس جسر ثابت وقوي في كوبا بدءوا بالاتجاه ناحية دول العالم الثالث خاصة في الشرق الاوسط والقارة الافريقية ، وكانت الصومال نقطة ارتكاز بالغة الأهمية الاستراتيجية في لعبة صراع القوى العالمية ، وفيها ثبّت السوفيت قدما جديدة خاصة بعد ١٩٦٩.

** الامريكيون لم يسلموا او يستسلموا، فقد ادركوا منذ البداية خطورة خروج الاتحاد السوفيتي من سياسة العزلة والابتعاد والتقوقع داخل حدود معسكره الاشتراكي ، ولقد جربوا نتيجة ذلك في الحرب الفيتنامية التي كانت آنذاك تدق القلب الامريكي بعنف، وتدك الروح في المعسكر الغربي بصفة عامة، وهم اذا كانوا يواجهون أزمة ساحقة في فيتنام فان المؤكد انهم لن يسمحوا للسوفيت بفتح فيتنام جديدة ، ولقد كانت الصومال مشروع فيتنام جديدة يحاول السوفيت فتح جبهتها لاستنزاف الجهد الامريكي في القرن الافريقي.

** أما العرب فقد انقسموا حول الصراع الاثيوبي الصومالي: البعض يؤيد اثيوبيا والبعض الآخر يدعم الصومال.

* * *

(٤) روح التحدي
ومقدمات الحرب الثانية :

اذا كانت ثورة ١٩٦٩ في الصومال قد أشعلت من جديد روح الكفاح القومي المطالبة باصرار باستعادة الأجزاء الصومالية المقتطعة، والعودة الى توحيد الوطن الصومالي الكبير بأجزائه الخمسة القديمة، وحركت في المجتمع ــ القبلي الى حد كبير ــ الرغبة العارمة في التغيير الاجتماعي والتنمية الاقتصادية تحت شعارات راديكالية، فان ذلك قد أقلق منطقة القرن الافريقي كلها.

أقلق العدو التقليدي أثيوبيا، سياسياً وعسكريا واجتماعياً أيضاً، وأقلق كينيا بدرجة أقل، ثم هو أقلق كذلك فرنسا التي كانت حتى ذلك الوقت تحتل اقليم «العيسى والعفر» وتقيم قاعدتها البحرية الاساسية في جيبوتي المتحكمة في عنق زجاجة باب المندب.

وسرعان ما انتقلت العدوى، فقد ثبت تاريخياً أن الثورة تنتقل هي الأخرى بالعدوى، وتدفع رياح التغيير من مكان الى مكان، خاصة اذا كانت البيئة ممهدة ومستعدة وناضجة. ولقد كانت اثيوبيا، هي تلك البيئة الناضجة المستعدة لاستقبال التغيير فان أي تغيير هو بالتأكيد أفضل من الوضع الاقطاعي الحاكم في الامبراطورية. فقد حبلت «الامبراطورية» ــ رغم كهولتها ــ بكل الأسباب الموجبة للتغيير، وأصبحت منذ بداية السبعينات مثل عجوز ضعيفة متهدلة، وهرمت الامبراطورية مثلما هرم الامبراطور هيلاسي لاسي.

وجذبت هذه البيئة رياح التغيير، وسواء نقلت العدوى من الصومال المجاورة التي شهدت تغييرا أساسياً منذ ١٩٦٩، أو نقلتها من مناطق أخرى، فان حتمية التغيير كانت قد اجتاحت الامبراطورية

العجوز. الأمر الذي مهد المسرح السياسي لبروز مرحلة جديدة وعنيفة أيضاً في القرن الافريقي ألقت بظلالها على افريقيا الداخل غرباً، كما ألقت بظلالها كذلك على الخليج العربي المواجه شرقا، ولن نغالي ان قلنا إن تأثيراتها امتدت كذلك الى الشمال مثلما امتدت الى الجنوب، فالتغيير الاثيوبي كان انقلابا في كل الموازين المحلية والاقليمية والدولية.

ولقد أدت هذه المرحلة الجديدة، والانقلاب الذي حدث منذ عام ١٩٧٤ في اثيوبيا الى تهيئة مسرح الاحداث في القرن الافريقي لصعود شبح الجولة الثانية من الحرب الاثيوبية الصومالية بكل أبعادها المحلية والدولية.

وكما قلنا شهدت الامبراطورية الاثيوبية منذ بداية السبعينات تدهوراً مطرداً ومتزايدا، ضعفت خلاله القبضة الحديدية التي كان يمسك بها هيلاسي لاسي الحكم، ويسيطر بها على دولة تضم قوميات وديانات وثقافات متعادية ومتنافرة. ورغم الكراهية التاريخية القديمة بين القوميات الاساسية التي تتكون منها الامبراطورية، خاصة فيما بين ألتيجري والجالا وبين الامهرية ذات التميز الطبقي، فإن هيلاسي لاسي ـ الامهري الاصل بالطبع ـ كان يمثل رمز السلطة المركزية الحاكمة الذي حوله تلتف كل القوى سواء رضيت أو كرهت.

ولقد أدى الوضع الطبقي المميز للامهرية التي استولت على الحكم والثروة والتميز الاجتماعي في اثيوبيا الى اثارة حقد القوميات الاخرى وكراهيتها، وبالتالي الى تحرك الروح القومية فيها مطالبة بحقها هي الاخرى في الحكم والثروة. وتحت تصاعد الضغوط الاجتماعية والاقتصادية الشديدة التي عصفت بالطبقات الشعبية واشاعت الاوبئة والفقر والمجاعات، كان طبيعياً أن يتفجر الصراع الاجتماعي داخل

الامبراطورية التي تهدلت سلطتها وهرمت قوتها، خاصة بعد أن هرم امبراطورها ودخل مرحلة تناقص القوة وتقلص السطوة وضعف السلطة.

ولقد توازى مع هذا التطور الاجتماعي داخل الامبراطورية تطور سياسي وقومي أشد أثراً وأبعد خطرا، وهو تصاعد الحركة السياسية والعسكرية لثوار ارتريا. ذلك الاقليم ذو القومية المميزة الذي أدمجه الامبراطور قسرا في عام ١٩٦٢. فمنذ أواخر الستينات وبداية السبعينات لقيت ثورة ارتريا تعاطفا اقليميا وعالميا واسعا ادى الى بروز دورها بوضوح على خريطة القرن الافريقي، وكسرت المعارك العسكرية التي خاضتها ضد الجيش الامبراطوري ذي القيادة الامهرية طوق العزلة والحصار الحديدي الذي فرضته اديس ابابا عليها، وبدا العالم يقرأ ويعرف ويدرك أن هناك ثورة طاحنة في ارتريا على ساحل القرن الافريقي المطل على البحر الاحمر تهزكيان أثيوبيا وكيان المنطقة كلها.

وهذا الأمر سنعود اليه تفصيلا فيما بعد.

ولقد تضافرت كل هذه العوامل، التي أنهكت السلطة الامبراطورية في اديس أبابا، مما أدى الى انتشار حركات التمرد العسكري داخل الجيش الاثيوبي في أكثر من مكان، وأدى تضافرها الى تفجير روح التذمر العامة ضد فشل السلطة الهرمة في حل المشكلات الاساسية للمجتمع الاثيوبي، وفي حل تناقضاته القومية والاجتماعية وايقاف تدهوره السياسي والعسكري والاقتصادي أمام الازمة الداخلية الخانقة، وأمام تزايد الجرأة العسكرية لثوار ارتريا واكتساحهم للجيش الامبراطوري في معظم المعارك وتحريرهم لاكثر من ٨٠٪ من ارتريا وسيادتهم المطلقة على الريف، وحصارهم القوي حول المدن الرئيسية التي يتمركز فيها الجيش الاثيوبي المنهار.

ولقد أدى كل ذلك الى نجاح التمرد العسكري داخل الجيش الامبراطوري، وتصاعد انتشاره في القطاعات المختلفة، فيما بين فبراير وسبتمبر ١٩٧٤ عندما بلغ نضجه، فاستولى المجلس العسكري على السلطة في ١٢ سبتمبر من نفس العام، واسقط النظام الامبراطوري واعتقل هيلاسي لاسي حتى مات في ٢٥ أغسطس ١٩٧٥ ثم خاض سلسلة من التصفيات الدامية حتى استقر الحكم للكولونيل مانجستو هايلي ماريام.

و بصعود العسكر الاثيوبي الى السلطة في اديس ابابا خلال سبتمبر ١٩٧٤، بعد ٥ سنوات من صعود العسكر الصومالي الى السلطة في مقديشو في اكتوبر ١٩٦٩، أصبح المسرح السياسي في القرن الافريقي على شفا تحد جديد وتغير أكيد.

فقد أصبح سباق التحدي والمواجهة بين عسكر البلدين المتخاصمين هو أهم سباق، ليس في القرن الافريقي وحده بل في كل افريقيا التي شهدت أقطارها الاخرى مواقف مشابهة كثيرة، وتغيرات أكثر وانقلابات عسكرية متتالية، غيرت من موازين القوى و بدلت التحالفات وأشعلت الصراعات والعداوات القديمة الجديدة معاً.

و بالاضافة الى سباق التحدي والمواجهة بين عساكر الصومال وأثيوبيا، برزت عناصر أخرى في ساحة الصراع مهدت الطريق لحتمية الصدام إذ أن الاسباب الرئيسية للصراع والصدام بين عسكر البلدين ظلت كما هي، مثلما كانت خلال حكم المدنيين في الصومال وحكم الامبراطور في اثيوبيا، وهي الحالة التي أدت الى جولة الحرب الاولى بينهما في عام ١٩٦٤، واعني بذلك ثبات عوامل الصراع القومي بين الدولتين بصرف النظر عن تغير نظام الحكم هنا وهناك، مع اضافة روح جديدة عند الطرفين أذكت نيران الصراع، اذ أثار النظام

الصومالي الجديد الروح القومية واشعل رغبة الكفاح عند الشعب الصومالي لاستعادة أراضيه في الصومال الغربي وأبو، التي يطالب بتحريرها من الاحتلال الاثيوبي، بينما أدى نجاح العسكر الاثيوبي البارز في السيطرة على الحكم، واسقاط «الامبراطورية» الاقطاعية في اثيوبيا الى اذكاء الروح القومية أيضا التي تمسكت «بوحدة» اثيوبيا الثورة بكل حدودها وتخومها كما كانت في العصر الامبراطوري، وخاصة ارتريا والصومال الغربي.

وبينما تفاءل النظام الصومالي بنجاح العسكر الاثيوبي في الوصول الى الحكم، مؤملا في امكان التفاهم المشترك حول التوصل الى حل جذري لقضية الصومال الغربي، خاصة بعد بروز عوامل مشتركة كثيرة بين الطرفين،فهم أولا عسكريون مثلهم، وهم ثانيا يرفعون راية الاشتراكية العلمية، تماما مثلهم، وهو ثالثاً مدوا منذ البداية مثلهم يد الصداقة والتحالف الى الاتحاد السوفيتي، الذي سارع بعونهم ودعمهم كما فعل مع الصوماليين من قبل. بينما تفاءلوا بكل ذلك اذ بالنظام الجديد في اديس ابابا يرفع علم التشدد المطلق فيما يتعلق بحماية «وحدة اثيوبيا ضد الحركات الانفصالية الرجعية»، ويتطرف في اتجاه القمع أكثر مما كان يفعل الامبراطور، ويعلن أنه سيسحق الحركات الانفصالية في ارتريا والصومال الغربي وأبو بالقوة المسلحة مهما كانت النتائج، متجاهلا التفاؤل الصومالي بضرورة لجوء «النظام العسكري الاشتراكي» الجديد في أديس أبابا الى حل قضية القوميات حلا سلميا، كما تقول الاشتراكية العلمية، وكما فعل الاتحاد السوفيتي نفسه مع قومياته المتعددة، تطبيقاً للماركسية اللينينية.

* * *

(٥) أصدقاء الأمس
أعداء اليوم:

وفي نفس الوقت شهدت خريطة الصراع تغيرا في المواقف على المستوى الاقليمي والدولي.

•• ففي المنطقة المواجهة شرقا للقرن الافريقي، كانت بريطانيا قد أعلنت منذ بداية السبعينات خطتها في سحب وجودها العسكري من شرق السويس.

وقد أدت هذه الخطوة البريطانية الى اشتعال السباق الدولي حول ملء هذا «الفراغ» الذي تركته بريطانيا. الأمر الذي يعني زيادة حدة الصراع الدولي خاصة بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي لاقامة قواعد ونقاط تمركز لهما في المحيط الهندي وبحر العرب والخليج العربي، لحماية — أو تهديد — مناطق انتاج البترول الضخمة، وشرايين نقله الى الغرب الصناعي، ونقاط التحكم الاستراتيجي القابضة على هذه الشرايين، سواء كانت في القرن الافريقي أو باب المندب أو البحر الاحمر كله شمالا، أو كانت في المحيط الهندي وعبر مضيق موزمبيق جنوبا.

•• وفي الشمال عند الطرف المعادل للقرن الافريقي، أي في مصر، كانت الأزمة مع السوفيت قد تعقدت تعقدا بالغا أدى الى إنهاء القاهرة للوجود السوفيتي الثقيل — ١٧ ألف جندي وخبير عسكري — في عام ١٩٧٢، مما أدى بالتالي الى حرمان السوفيت من هذا التمركز العسكري الهائل في أهم دولة في افريقيا وفي منطقة الشرق الأوسط كله. والى فقدهم التسهيلات العسكرية

التي كانوا قد حصلوا عليها خاصة في مرسي مطروح والاسكندرية وبورسعيد على ساحل البحر الابيض المتوسط، وفي الأدبية والموانى الاخرى على البحر الأحمر.

فإذا كان الوجود العسكري السوفيتي بهذا الثقل قد ثبت أقدامه في مصر ــ قلب الشرق الاوسط والحاكمة لاهم شرايين نقل البترول للغرب ــ بعد حرب ١٩٦٧ ونتيجة لأزمة الهزيمة التي دفعت مصر الى الارتباط أكثر بالاتحاد السوفيتي طلبا للمعونة السياسية والعسكرية، في مواجهة التفوق الاسرائيلي الساحق المدعوم مباشرة من واشنطن واذا كان هذا الوجود العسكري السوفيتي قد أحدث انقلابا خطيرا في موازين القوى بالشرق الاوسط، وأصاب صراع القوى العظمى على مناطق التحكم الاستراتيجي بخلل على الجانب الامريكي الاوروبي، وحقق نجاحاً للتحرك الاستراتيجي الواسع الانتشار على الجانب السوفيتي، فان قرار إنهاء الوجود السوفيتي من مصر في عام ١٩٧٢ ــ بكل ملابساته وآثاره وأبعاده السياسية والعسكرية ــ قد أحدث هو الآخر انقلابا مضادا على خريطة الصراع الدولي، وخاصة في لعبة «الشطرنج» التي أصبحت تمارسها أمريكا والاتحاد السوفيتي معا على رقعة الدول الصغرى، وبشكل أوضح تلك التي تمتلك الثروات البترولية والمعدنية، أو التي تقبض على مداخل ومخارج الممرات والمضايق الدولية وتطبق على نقاط التحكم الاستراتيجي.

وهكذا بدأت مرحلة تبادل المواقع، وتغيير التحالفات بين الدولتين العظميين. فخسارة السوفيت في مصر وطردهم منها وحرمانهم من موانيها ومواقعها الاستراتيجية الهامة في الشمال ادى الى العكس لامريكا، التي كسبت مرتين، الاولى باخراج السوفيت عسكريا

وسياسيا من هذه المنطقة الهامة ـ مصر ـ ذات الثقل السياسي الاستراتيجي والحضاري وحرمانهم من التمتع بميزاتها الجوبوليتكية، والثانية بتدعيم علاقات واشنطن بالقاهرة نتيجة للتوجه المصري الجديد تجاه الغرب الاوروبي الامريكي وفك الارتباط السابق بالمعسكر الاشتراكي.

وضمن لعبة تبادل المواقع أعاد السوفيت تقييم سياستهم في الشرق الاوسط والعالم الثالث كله، في ضوء التجربة القاسية التي تعرضوا لها في مصر، وبدءوا في تطبيق سياسة جديدة في لعبة الصراع مع أمريكا على العالم الثالث، تقوم على سرعة الحركة والجرأة في التدخل والمساندة، والاقدام على استخدام «التواجد العسكري» بشكل أكثر قدرة وحركة من ذي قبل.

وتطبيقاً لهذه السياسة دعم السوفيت مواقعهم في الصومال، لتعويض خسارتهم في مصر، واستعاضوا قاعدة بحرية هامة في ميناء بربرة الصومالي وفي العاصمة الساحلية مقديشو نفسها، بدلا من خسارتهم لمواني البحر الاحمر المصرية شمالا، وفي نفس الوقت زادوا من نشاطهم العسكري في الدول الافريقية التي ترتبط معهم بصداقات، وكثفوا لاول مرة من وجود أساطيلهم البحرية في المحيط الهندي وبحر العرب وخليج عدن التي وجدوا فيها دعماً وتسهيلات جمة من النظام الراديكالي الحاكم في اليمن الديموقراطية.

حتى إذا ما جاءت الثورة العسكرية «الاشتراكية» في اثيوبيا، ورفع العسكر الاثيوبي راية الماركسية بعد تصفية الموجات الاولى فيما بينهم ليستقر النظام الراديكالي، كان هذا كله ايذانا بتغير جديد في المواقع على رقعة الشطرنج الممتدة من السواحل المصرية والعربية

والفلسطينية على البحر الابيض المتوسط شمالا حتى سواحل الخليج البترولية ونتوء القرن الافريقي جنوباً.

وفي ظل هذا التغيير الذي أملته سياسة تعويض المواقع وتبادلها وسياسة مطاردة النفوذ الغربي اينما كان، سارع الاتحاد السوفيتي الى نجدة ومساندة النظام الجديد في أديس أبابا، والى تثبيت اقدامه على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر، بعد أن فقد المدخل الشمالي بكل ما يعنيه المدخل الجنوبي من أهمية الاقتراب المباشر من حقول انتاج البترول العربي، ويخنق مروره عبر باب المندب، محققا بذلك سياسته النشطة الجديدة على خريطة الصراع الدولي والمواجهة مع أمريكا، لضمان تحقيق المصالح القومية لكل منهما باعتبارهما القوتين العظميين في عالم اليوم.

*** ولم يكن التحرك الامريكي والنجاح الذي حققه منذ بداية السبعينات في الشرق الأوسط، والتحرك السوفيتي المضاد ونجاحه في القرن الافريقي، في نفس الفترة سوى الجزء المكمل لصراع القوتين العظميين، الذي كان يجرى على قدم وساق على امتداد الخريطة الواسعة للقارة الافريقية كلها، وعلى امتداد تخوم المنطقتين ــ افريقيا والشرق الاوسط ــ بما تحويانه من مراكز تحكم وطرق مرور دولية، ومضايق ومعابر استراتيجية. وقبل هذا وذاك بما تضمانه من المناجم الضخمة للمواد الخام وخاصة المعادن والبترول، ابتداء من نحاس زائير، الى يورانيوم تشاد، إلى فوسفات المغرب والصحراء الغربية، الى غاز وبترول الجزائر وليبيا، وصولا الى بحيرة البترول الضخمة في ايران والخليج والجزيرة العربية.

ولقد شهدت السبعينات تزايد حدة صراع القوتين حول احكام

سيطرتهما وتأمين خطوط اقترابهما من مناجم المعادن وحقول النفط، وتحكمهما في شرايين نقلها بعد بروز ظاهرتين عالميتين :

الاولى: هي تصاعد ازمة الطاقة الخانقة في الدول الاوربية والامريكية التي تقود المعسكر الصناعي الغربي، في ظل الارتفاع السريع للاسعار واللهفة الشديدة على استهلاك البترول وتخزينه والتخوف الواضح من جانب المنتجين من ان تؤدي زيادة الضخ والاستهلاك الى سرعة الاستنزاف وبالتالي النضوب !

الثانية: هي رغبة السوفيت في مزاحمة الغرب الراسمالي ــ او مقاسمته ــ على الموارد الخام وخاصة البترول. خاصة بعد ان تعمدت المخابرات الامريكية المركزية تسريب معلومات تقول: إن السوفيت ابتداء من الثمانينات سوف يحتاجون لاول مرة الى استيراد البترول من خارج اراضيهم، اي انهم سوف يحتاجون الى البترول العربي والايراني بشكل خاص لقرب حقول انتاجه من الاراضي السوفيتية وسهولة نقله اليها.

والظاهرة الاولى تعني ان الغرب الاوروبي الامريكي سوف يقبض بكلتا يديه على احتكاراته الهائلة التي تسيطر على مناجم المواد الخام في افريقيا فضلا عن سعيه للسيطرة على حقول البترول الضخمة في الخليج والجزيرة العربية. بينما تعني الظاهرة الثانية ان السوفيت لن يتركوا هذه الثروة الفلكية نهبا دائما للغرب الرأسمالي وحده، بل انهم سيدخلون مزاحمين ومنافسين حتى يصلوا الى مرحلة الاشتراك أو التقاسم، مع ما يتطلبه ذلك من دعم ونشر للنفوذ السياسي، والتواجد العسكري حول أو بالقرب من مناطق انتاج هذه الثروات.

وبذلك تكون القوتان العظميان تطبقان بطريقة متقاربة أو متباعدة استراتيجياتهما القومية والكونية.

•• بقى تغير آخر على خريطة الصراع الدولي اثر بالضرورة على علاقات القوى في القرن الافريقي، وهو التغير الكبير الذي احدثته حرب اكتوبر ١٩٧٣ بين العرب واسرائيل، وانعكاسات نتائجها السياسية والعسكرية على كل المنطقة من سواحل البحر الابيض المتوسط شمالا، حتى القرن الافريقي والمدخل الثاني للبحر الاحمر جنوبا.

وقد ابرزت هذه الحرب الاهمية الاستراتيجية القصوى ــ كما سبق ان اسلفنا ــ للتحكم في مضايق القرن الافريقي والمداخل الجنوبية للبحر الاحمر عند باب المندب، وخطورة ذلك ليس على اسرائيل فحسب ــ التي واجهت مأزق اغلاق مصر لباب المندب في حرب ١٩٧٣ــ ولكن بنفس الدرجة على اثيوبيا نفسها خاصة في ظل اوضاعها الجديدة التي فقدت خلالها الصداقة التقليدية مع النظم العربية المواجهة لها من الشرق في الخليج والجزيرة العربية.

•• اما التغير الهام الاخير الذي برز على ساحة الصراع فهو بلا شك تلك الصحوة القومية التي اجتاحت شعوب المنطقة، في ظل نتائج التغيرات الاجتماعية والاقتصادية، ورغبة هذه الشعوب في التحكم في ثرواتها سواء أكانت مواد خاما أو مراكز تحكم استراتيجية، بصرف النظر عن الارتباطات الدولية المتناقضة مع السوفيت أو مع الامريكيين.

وقد أصبحت مطالب شعوب العالم النامي ــ الثالث ــ في احداث اصلاحات سياسية واقتصادية واجتماعية دافعاً لهذه الشعوب

لمواجهة لعبة الصراع الدولي وتقسيم مصائر الدول وتوزيع مناطق النفوذ بين الدول العظمى، وفي نفس الوقت برزت كعامل ضغط ومواجهة وتحد لاطماع وخطط الدول العظمى واستراتيجياتها، وشكلت تهديدا مباشرا لهذه الخطط والاستراتيجيات.

ولقد تعرضت الاستراتيجية السوفيتية لمتاعب جديدة في القرن الافريقي، في مواجهة النجاحات الجديدة التي تحققت لها. فما كاد الامر يستقر للعسكر الاشتراكيين في اثيوبيا حتى راهنت موسكو عليهم رهانا أساسياً، نظرا لما تتمتع به اثيوبيا من مميزات كثيرة؛ سياسية وبشرية وحضارية و اقتصادية وعسكرية، ولقد كان طبيعيا ان يحاول السوفيت الاحتفاظ بالحصانين: الاثيوبي والصومالي معا في مضمار واحد رغم علمهم انهما يجريان في طريقين متعارضين، وان المصالح القومية الاثيوبية كانت وما زالت تتناقض مع المصالح القومية الصومالية، وان صراع «الاوجادين» ليس مجرد صراع حدود كما حاول البعض تبسيطه وتسطيحه، لكنه في الاساس صراع بين قوميتين طال بهما العداء والتناحر، واشتد الصدام وصولا الى مرحلة العنف والدم الدائم التدفق على الجانبين دون أمل في ايقاف هذا النزيف الا بحل جذري لمشكلة الصراع القومي على الارض والشعب المقسم.

وكان الحل الامثل بالنسبة للاستراتيجية السوفيتية هو اقامة تحالف تقدمي يربط بين أهم ثلاث دول تطل من الغرب والشرق على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر، وتخنق باب المندب من جانبيه وهي: اثيوبيا والصومال واليمن الديموقراطية. وهو الحل الذي حاول الزعيم الكوبي فيدل كاسترو مناقشته خلال زيارته الشهيرة للمنطقة خلال مارس ١٩٧٧.

ولو تحقق هذا الحل لشكل ضربة استراتيجية قاتلة للسياسة الامريكية في المنطقة.

إلا أن عنصر الصراع القومي وتضارب المصالح الاثيوبية مع الصومالية، بالاضافة الى التحرك الامريكي المضاد، لعب دوره في افشال المخطط السوفيتي، وبالتالي في احداث الازمة الصومالية السوفيتية، التي انتهت بمثل ما انتهت اليه العلاقات المصرية السوفيتية من قبل.

ففي ظل الدعم السوفيتي ــ العسكري والسياسي والاقتصادي ــ الهائل لنظام مانجستو ماريام في أديس أبابا، شعر النظام الصومالي ان السوفيت يخونونه، ويلقون بثقلهم خلف العدو التقليدي، وبالتالي يشجعون النزعة العسكرية الاثيوبية النامية للاعتداء على الصومال، في ظل حملة التسلح حتى الأسنان التي تولاها السوفيت لدعم النظام الاثيوبي.

وهكذا سارع الصومال الى طرد الخبراء والقوات السوفيتية خاصة من القاعدة البحرية الهامة في بربرة ابتداء من نوفمبر ١٩٧٧، وتأزمت العلاقات بينهما الى درجة خطيرة وصلت الى حد القطيعة الكاملة بعد تبادل الاتهامات.

وقد انقلبت بذلك موازين التحالفات الاستراتيجية في القرن الافريقي ، فاصدقاء الامس أصبحوا اعداء اليوم، وانتقل الود والدعم الغربي من اثيوبيا الى الصومال، مقابل انتقال الود والدعم السوفيتي من الصومال الى اثيوبيا، وبنفس الشكل وفي نفس المأزق وقعت حركة تحرير ارتريا منتقلة من تعاطف اصدقاء الامس اعداء اليوم الى

تعاطف اصدقاء اليوم الذين كانوا اعداء الامس .

ولقد ادى تغير موازين التحالفات الى مشاكل سياسية وعسكرية واقتصادية خطيرة للصومال وارتريا بشكل خاص . ففي البداية فقد الطرفان المعونات الاقتصادية والعسكرية الكبيرة التي كانا يأخذانها من الاتحاد السوفيتي، مقابل اضافة المزيد من هذه المعونات الى جانب اثيوبيا، حيث تولت دول المعسكر الاشتراكي بزعامة الاتحاد السوفيتي وبمبادرات سريعة من كوبا والمانيا الديموقراطية مهمة اعادة بناء الجيش الاثيوبي وتحديثه ومده بالاسلحة الحديثة والمعقدة ابتداء من الصواريخ الى الطائرات الميج ٢١، ٢٣ الى الدبابات الثقيلة، بالاضافة الى قيامهم ببناء تنظيم عسكري مواز للجيش، وهو «ميليشيا الشعب الثورية» التي بلغ عددها في فترة من الفترات ربع مليون مسلح .

وفي ظل أضخم جسر عسكري مده السوفيت في تاريخ العالم لنقل الاسلحة من موسكو، ونقل الجنود من كوبا الى اثيوبيا، انتعشت النزعة العسكرية في أديس أبابا الى حد الغليان، وأصبح همها الوحيد هو الاجهاز نهائياً على متاعب الدولة في الاوجادين وارتريا، حيث تعرض الجيش الاثيوبي خلال السنوات السابقة لمهانة واذلال بالغين، نتيجة لنجاح الثوار في المنطقتين في اكتساح خاميات الجيش ومعسكراته وفي أسر آلاف من الجنود المنهارين والمتخاذلين .

وعلى الجانب الآخر، وقعت الصومال وارتريا فريسة الضياع والوعود التي لم تتحقق عملياً، ففي الوقت الذي فقدتا فيه الدعم السياسي والمادي من الجانب السوفيتي، لم تتلقيا في الواقع تعويضاً عن هذا الدعم بالشكل الذي يمكنهما من مواجهة التحدي الاثيوبي، فلا

الدول العربية أوفت بوعودها في المساعدة الاقتصادية والعسكرية، ولا واشنطن سارعت لالتقاط الخيط والتحرك لانقاذ الصومال ـ بشكل خاص ـ من المأزق الحرج الذي أصبحت فيه محاصرة بين فقدان صديق الامس وحضار عدو اليوم، وتصاعد نزعة الحرب بين أركان النظام في أديس أبابا. وفي نوفمبر ١٩٧٧ سارع الرئيس الصومالي بتوجيه نداء للولايات المتحدة الامريكية لمده بالاسلحة، وردت الخارجية الامريكية بعد هذا النداء بثلاثة ايام مؤكدة تمسكها بعدم بيع السلاح للصومال ولاثيوبيا ايضا التي كانت قد امتلات بترسانة سوفيتية كوبية. وان كان الموقف قد تغير تدريجياً فيما بعد، خاصة خلال عامي ٨٠ ـ ١٩٨١ بعد اعطاء الصومال تسهيلات عسكرية لواشنطن في بعض مطاراتها وموانيها مثل مقديشو و بر برة التي كانت قاعدة سوفيتية من قبل.

وفي ظل الجو العاصف برياح العنف الدامي، تهيأ المسرح في القرن الافريقي للجولة الثانية من حرب المواجهة بين الصومال واثيوبيا التي جرت في وديان وصحراء الأوجادين و بين غاباتها وأحراشها الكثيفة.

والواقع أن المراحل الأولى للحرب الثانية بين الصومال واثيوبيا بدأت عمليا منذ مايو ١٩٧٧، عندما أعلن النظام الاثيوبي الحاكم أن حكومة الصومال تقف خلف كل المتاعب التي تثار في وجه النظام الاثيوبي الجديد. واتهمت أديس أبابا الصومال رسميا بثلاثة اتهامات محددة هي:

(١) ان الجيش الصومالي هو الذي يدرب و يسلح رجال العصابات و يدفعهم الى «أوجادين» لشن الغارات واعداد الكمائن للجيش الأثيوبي واثارة الاضطراب في هذا الاقليم.

(٢) ان مقديشو تقدم في نفس الوقت مساعدات عسكرية كبيرة لجبهات التحرير العاملة في ارتريا لمواصلة عملياتها العسكرية ضد الجيش الاثيوبي.

(٣) ان الصومال يقدم المساعدة والدعم السياسي والعسكري «للحزب الشعبي الثوري» في اثيوبيا، وهو التنظيم السياسي القوي الذي أعلن مناهضته للنظام الجديد في أديس أبابا وشن عدة هجمات جريئة في المدن المختلفة وداخل العاصمة نفسها.

وقد رافق هذا الاتهام الذي فتح باب الحرب السيكلوجية بين البلدين على مصراعيه ــ تمهيدا لباب الحرب الساخنة ــ بروز عدة عوامل أساسية ساعدت على تدهور الموقف بين البلدين وزيادة حدة التوتر، منها:

*** تعهد فرنسا في بداية عام ١٩٧٧ بمنح الاستقلال الكامل لمستعمراتها في اقليم «العيسى والعفر» بمينائها الاستراتيجي «جيبوتي»، وهو الاقليم الذي يضم قبائل تنقسم في أصولها ما بين الأصل الصومالي والأصل الحبشي، والذي عليه تتنازع اثيوبيا والصومال، لما له من أهمية حيوية، خاصة اذا علمنا انه عن طريق ميناء جيبوتي تستورد اثيوبيا ثلثي وارداتها من الخارج.

ومنذ الاعلان الفرنسي تصاعد التوتر، اذ اتهمت اثيوبيا الصومال بالاستعداد لغزو الاقليم واحتلاله بالقوة وضمه اليها وان اثيوبيا لن تسمح بهذا الغزو حتى لو أدى الى حرب شاملة. وقد كان من نتيجة ذلك ان ارتفعت حدة التصريحات والاستعدادات على جانبي الحدود استعدادا للحظة الصدام حول اقليم العفر والعيسى (جيبوتي) هذه المرة وليس حول أوجادين فحسب.



أسرى الجيش الأثيوبي في حراسة مقاتلي جبهة تحرير الصومال الغربي.

- صاحب ذلك تصاعد شديد في انتصار الثوار الارتريين على الجبهة الأخرى ضد الجيش الاثيوبي، أدى الى سيطرتهم العملية على الأغلبية المطلقة من مساحتها وحصارهم المشدد حول المدن الرئيسية، خاصة العاصمة «أسمرة» وميناثي عصب ومصوع وقطع الطرق الرئيسية، خاصة تلك التي تربط هذه المدن الرئيسية الثلاث في ارتريا بالعاصمة الاثيوبية أديس أبابا. وتحول الجيش الاثيوبي الى مراكز ومعسكرات متفرقة ومحاصرة، لا تصلها الامدادات الا بالطائرات من الجو، الأمر الذي وضع النظام العسكري الحاكم في أديس أبابا في أسوأ مأزق تعرض له منذ جاء الى الحكم واعدا بتحطيم «المخربين من دعاة الانفصال سواء في ارتريا أو أوجادين».

- في نفس الوقت كانت الهجمات التي يشنها ثوار الصومال الغربي وأبو في اقليم «الأوجادين» ضد الثكنات العسكرية للجيش الاثيوبي وضد طرق المواصلات قد بلغت مداها، واتسمت بالجرأة أكثر من أي وقت مضى، تمثلت في قيامهم بتخريب أهم خطوط السكك الحديدية في البلاد، اذ فجروا خط السكك الحديدية الذي يربط بين أديس أبابا وميناء جيبوتي مرورا بالأوجادين وهو الخط الحيوي للتجارة الاثيوبية.

- على ناحية الحدود الغربية كان الموقف يشتعل هو الآخر، فقد تبادلت الخرطوم وأديس أبابا حملة الاتهامات والاتهامات المضادة. فمنذ ابريل ١٩٧٧ حذر الرئيس السوداني جعفر نميري اثيوبيا من القيام بعدوان على حدود السودان. واتهم الاتحاد السوفيتي وليبيا وكوبا بمساعدة أديس أبابا عسكريا لشن هذا العدوان. وسرعان ما رد الكولونيل مانجستو باتهام نميري بأنه يسلح و يدرب «المتمردين» الارتريين، وفي نفس الوقت وجه

للصومال نفس الاتهام على أساس انها دولة رجعية انتهازية ترفع شعارات «الاشتراكية العلمية» كذبا !! ولم تنج مصر بالطبع من حملة الاتهامات الاثيوبية هذه، فقد اتهمها مانجستو بأنها تدفع السودان للتحرش بأثيوبيا كما انها تساند الصومال وارتريا في هذه الحرب غير المعلنة، التي كما وصفها «لن تكون حربا قاصرة على الصومال واثيوبيا وحدهما ولكنها ستجر القارة الافريقية كلها.».

• ووسط هذا التوتر الذي ساد القرن الافريقي، كانت اثيوبيا قد اتفقت مع الاتحاد السوفيتي وكوبا على خطة أبعد مدى، فقد تدفقت على اثيوبيا موجات كثيفة من الجنود الكوبيين والخبراء العسكريين السوفيت وخبراء الأمن الألمان الشرقيين. وقالت التقديرات المحايدة: إن الكوبيين وصلوا الى ٢٥ ألف جندي وبلغ عدد السوفييت ما بين ١٥٠٠ــ ٢٠٠٠ خبير، وكذلك جاء نفس العدد تقريبا من المانيا الديموقراطية.

وبهذه الخطوة الجريئة دخل القرن الافريقي منحنى جديدا اذ تورطت قوة عظمى هي الاتحاد السوفيتي سواء بشكل مباشر أو بالوكالة المخولة لكوبا والمانيا الديموقراطية بالدخول طرفا مباشرا في الصراع الدائر عن طريق التواجد العسكري الكثيف الذي لم يكتف بجسور الأسلحة الحديثة، وانما تعدى ذلك الى وجود الجنود المقاتلين أنفسهم.

ولم تكن هذه الخطوة السوفيتية الكوبية هي الأولى من نوعها، بل انها جاءت نتيجة النجاح الذي سبق أن حققته في أقصى غرب القارة، بعد نزول الجنود الكوبيين والخبراء السوفيت خلال معركة استقلال انجولا في عام ١٩٧٥. وهكذا طبق السوفيت خطة التحرك العسكري والسياسي السريع منتقلين

بوجودهم العسكري من أقصى جنوب غرب القارة في انجولا ــ حيث تمركز أكثر من ٣٠ ألف جندي كوبي ــ الى أقصى الشرق عند القرن الافريقي في اثيوبيا.

وقد شكلت هذه الجرأة العسكرية السوفيتية عنصرا جديدا في خريطة الصراع بين القوتين العظميين، وفي اقتحام مناطق الصراع بالقارة الافريقية بشكل لم يعهده العالم، وبصورة فاجأت مخططي الاستراتيجية الامريكية والغربية وأربكت مؤقتا خططهم السياسية والعسكرية.

* * * * *

(٦) من المسـرح السياسي
الى المسرح العسكري:

وقد كانت كل هذه الظواهر، مؤشرات حاسمة على نضج مقدمات المواجهة الثانية بين الصومال واثيوبيا، وعلى ان المسرح السياسي والعسكري قد أعد تماما للحظة الصدام الدموي المحتوم. فدارت عجلة الحرب مدفوعة بقوى داخلية وخارجية دون أن يستطيع أحد ايقافها قبل أن تحقق الهدف المرسوم لها.

فعوامل الصراع المحلي بين اثيوبيا من ناحية والصومال وارتريا من ناحية أخرى كانت قد اشتعلت الى درجة الغليان وأبرزت الحاجة الملحة الى حسم الأمور لصالح طرف من الطرفين المتصارعين على الأقل لفترة مؤقتة ان لم يكن نهائياً.

وعوامل الصراع الدولي بين القوتين العُظميين اللتين وزعتا تعاطفهما ومساندتهما على طرفي الصراع المحلي أذكت روح القتال والجرأة على الصدام بين الصومال واثيوبيا أساسا.

مقاتلات في صفوف جبهة تحرير الأوجادين يتدربن قرب ديرداوا.

وقد أكدت هذه العوامل مرة أخرى ثبات عناصر الصراع المحلية المبنية على أسس قومية قديمة، وتغير عناصر الصراع الدولي، نتيجة لاختلاف المصالح الاستراتيجية للقوتين العظميين، وانحياز إحداهما لهذا الطرف المحلي أو ذاك طبقا لتغير التخطيط الاستراتيجي والرغبة في تحقيق المصلحة.

وفي ضوء ذلك كله تدهور الموقف مبتدئا من مجرد اشتباكات متفرقة، على الجبهتين الأساسيتين ــ جبهة الأوجادين وجبهة ارتريا ــ إلى صدام مسلح شامل، كان طرفاه الأساسيان الجيش الأثيوبي المدعوم بالمقاتلين الكوبيين والخبراء السوفيت من ناحية، والجيش الصومالي من ناحية أخرى، بينما كانت قوات التحرير الارترية تخوض حربها وحدها في الشمال دون تنسيق محدد مع الجيش الصومالي.

ومنذ يوليو ١٩٧٧ بدأت الحرب الخفية في الأوجادين وارتريا تخرج من مرحلة المعارك غير المعلنة الى حرب شرسة معلنة تدق أسماع العالم في شكل انفجار رهيب في القرن الافريقي.

ففي ذلك الشهر أعلنت مقديشو رسميا ان قوات تحرير الصومال الغربي قتلت في الأوجادين ١٥٠٠ جندي اثيوبي في معارك واسعة، وفي نفس الشهر بدأت معارك ارتريا تأخذ اتجاها حاسما لصالح الثوار الذين بدءوا يغزون المدن الرئيسية بعد أن سيطروا على الريف، وكان سقوط المدينة الاستراتيجية «كيرين» المتحكمة في شبكة الطرق الرئيسية إيذانا بدخول الحرب مرحلة تصعيد جديدة.

وعادت حرب الاتهامات ترافق حرب المدافع، فإثر هذين الحدثين، اتهمت اثيوبيا «قوى أجنبية» بالتورط في الحرب الدائرة في كل من الأوجادين وارتريا، اتهمت مصر والعراق بمد الصومال بالخبراء

وأطقم المدفعية وبالأسلحة لخوض حرب الأوجادين ، واتهمت السودان مجددا بمساندة الارتريين بالمساعدات عبر الحدود المشتركة بينهما ، ووزعت اتهامات أخرى غير محددة على دول البترول العربية. وردت مقديشو متهمة «قوى أجنبية» أخرى بالتورط في القتال لصالح الأثيوبيين ، وكانت تشير بذلك الى الوجود العسكري الكوبي أساسا ، «الأمر الذي سيحول المنطقة الى ساحة صراع دولي تهدد باشعال الحرب العالمية الثالثة من القرن الافريقي».

- في أغسطس ١٩٧٧ شنت جبهة تحرير الصومال الغربي أول هجوم كاسح على مدينة كبيرة في الأوجادين ، وهي «ديرداوا» .
- انتشرت حركات التمرد والصدام العسكري في مناطق أخرى مثل هرر وتيجري ضد القوات الاثيوبية التي فشلت في اخمادها .
- في سبتمبر ١٩٧٧ أجبرت قوات تحرير الصومال الغربي القوات الاثيوبية على الانسحاب من مدينة جيكجيكا في الأوجادين تحت الهجوم العنيف الذي شنته ، بينما استمرت القوات الارترية على الجبهة الأخرى في احتلال المدن الرئيسية فسقطت مدينة «اغوردات» ، ثم أحكم الثوار الحصار العنيف حول العاصمة أسمرة .
- في اكتوبر من نفس العام خرج الرئيس الصومالي سياد بري عن صمته ، وأعلن لأول مرة علنا أن علاقات بلاده بالاتحاد السوفيتي قد بلغت مرحلة خطيرة من التدهور ، نتيجة للامدادات الضخمة من الأسلحة السوفيتية لأثيوبيا وتدفق الجنود الكوبيين على أديس أبابا .
- في نوفمبر التالي طردت الحكومة الصومالية ١٥٠٠ خبير عسكري سوفيتي من الصومال ، تعبيرا عن القطيعة التي سادت بين

البلدين الصديقين، ضمن حملة عداء متبادل.

وقد ردت موسكو على ذلك باتهام الصومال بأنه السبب في تدهور العلاقات نتيجة لرفض الاتحاد السوفيتي تأييد «المطامع الاقليمية الصومالية في أراضي دولة مجاورة هي أثيوبيا ورفضه دعم الصومال عسكريا وسياسيا في اشعال نيران حرب جديدة في أوجادين.»

- على الناحية الأخرى من أطراف الصراع الدولي، أعلنت واشنطن رفض تقديم السلاح للصومال، وفي يناير ١٩٧٨ قررت الدول الغربية الكبرى عدم التورط عسكريا في حرب القرن الافريقي، رغم التورط السوفيتي الكوبي بالجنود والخبراء، و بانفاق بليون دولار على المعونات العسكرية للأثيوبيين.
- رغم ذلك، قامت قوات تحرير الصومال الغربي ــ التي كانت تختفي وراءها عمليا الجيش النظامي الصومالي ــ باكتساح معظم قرى ومدن الأوجادين حتى انها أحكمت سيطرتها على حوالي ٩٠٪ من مساحته، بينما كانت القوات الارترية قد وصلت الى نفس النتيجة تقريبا، وأصبح حلم الاستقلال للاقليمين قاب قوسين أو أدنى أمام تقهقر أثيوبي سريع.

وفي ظل الحرب الدائرة في القرن الافريقي، التي وصفتها الدوائر العالمية بأنها أضخم حرب تدور في العالم آنذاك، تحققت عدة أشياء على صعيد ميدان القتال:

(١) على الجبهة الأرترية:

استولى الثوار على كل الريف ومعظم المدن، ولم يبق في يد الجيش الاثيوبي المحاصر سوى العاصمة أسمرة و ٤ مدن رئيسية أخرى.

(٢) على جبهة الأوجادين:
استطاع الجيش الصومالي وجبهة تحرير الصومال الغربي اكتساح الاقليم وحرروا أكثر من ١٠٠ مدينة ومركز هام، بينما تراجع الجيش الأثيوبي منسحبا صوب أديس أبابا نفسها.

(٣) في أثيوبيا نفسها:
كانت الجبهات والأحزاب المعارضة لنظام مانجستو ماريام تشعل اضطرابا داخليا مقلقا، حيث كانت تعمل ضده كل من: جبهة تحرير تجري، وجبهة تحرير رومو، والحزب الأثيوبي الشعبي الثوري، والاتحاد الديموقراطي الأثيوبي.

(٤) على حدود السودان:
كان الموقف المتوتر قد بلغ مداه حيث تبادلت الدولتان الاتهامات بل والاشتباكات العسكرية نتيجة لدعم السودان لحركات التحرير الأرترية والسماح لها باتخاذ نقاط تمركز وفتح طرق الامداد من السودان الى الأرض الأرترية المحررة.

وبدا الموقف كما لو كان قد وصل الى حد الهزيمة القاسية للنظام العسكري الحاكم في اثيوبيا. لكن الحقيقة أن شبح الهزيمة لم يكن شبحا مقلقا للأثيوبيين وحدهم بقدر ما كان للسوفيت والكوبيين الذين تعهدوا بالمساعدة، وتدخلوا مباشرة بالتواجد العسكري المباشر.

ولم يكن في وسع السوفيت كقوة عظمى لها خططها الاستراتيجية ومصالحها القومية وهيبتها العالمية السماح بايقاع هذه الهزيمة بأي ثمن، كما لم يكن في وسعهم السماح بتكرار «ابتلاع الغصة» التي عانوا منها في مصر عام ١٩٧٢.

والأهم من ذلك أنهم أرادوا تلقين الصومال درسا قاسيا نتيجة لطردهم من بربرة بهذا الشكل المهين مؤكدين أن «الخروج الهادىء

من مصر» لن يتكرر بهذه السهولة مرة أخرى، كما أنهم في نفس الوقت أرادوا للمرة الثانية أن يثبتوا للولايات المتحدة وأوروبا وللعالم أجمع قدرتهم على التدخل والحسم الى جانب أصدقائهم في اللحظة المناسبة، بعد أن نجحوا من قبل في أنجولا عام ١٩٧٥، ثم هم أرادوا أن يثبتوا للعالم وللمرة الألف أنهم يتحركون على خريطة الصراع الدولي، طبقا لاستراتيجية كونية تحقق مصالحهم كقوة عظمى، مستخدمين اذا تطلب الأمر نفس أساليب وسياسات القوة العظمى المناوئة، وان الوفاق الدولي بين القوتين العظميين، لم يمنع إلا اللجوء الى الحرب النووية العالمية الشاملة، ولكنه سمح بمساحات واسعة من حركة الصراع المحدود، والتنافس المحسوب، وبالتالي فإن الاستراتيجية السوفيتية تمارس هذا الحق، خاصة اذا كان يتعلق بالاقتراب من طرق امدادات البترول، ومناطق انتاجه الغنية في الخليج وايران والجزيرة العربية.

وفي ظل هذا المفهوم أعاد الخبراء السوفيت والجنود الكوبيون المتدفقون على اثيوبيا تنظيم وتدريب الجيش الأثيوبي و(الميليشيا الثورية)، ووضعوا خطة الهجوم المضاد التي ركزت أولا على الاوجادين، حيث رأى الحلفاء الجدد ضرورة اصطياد الصوماليين فيها وضربهم ضربة قاضية في ظل حملة تأديب قاسية، جزاء ما ارتكبوه ضد النظام الحاكم في اثيوبيا من ناحية، وضد السوفيت من ناحية أخرى.

وبدأت خطة الهجوم الاثيوبي المضاد في الاوجادين ــ منذ أوائل فبراير ١٩٧٨ ــ بغارات جوية مكثفة على مواقع الثوار في الاقليم، امتدت لتضرب ميناء بربرة الصومالي ــ القاعدة السوفيتية السابقة ــ ومدينة «هارجيسا» العاصمة الصومالية الثانية، وأكبر مدينة في الشمال الصومالي والتي كانت مركز الدعم العسكري لثوار الاوجادين

لقربها من الأعماق الاثيوبية مباشرة.

وفي نفس الفترة بدأت القوات الاثيوبية المحاصرة في ديرداوا وهرر خطة هجوم مضاد لاول مرة بعد حصار زاد على ستة أشهر، وبدا الثوار الصوماليون والجيش النظامي الصومالي نفسه خطة الانسحاب التكتيكي من كل الاوجادين تحت الضغط العسكري الشامل. فاخلوا جيكجيكا بعد أن سيطروا عليها سبعة أشهر.

وفي ظل التقدم الاثيوبي تحت القيادة السوفيتية الكوبية تزايد التقهقر الصومالي، حتى انسحبت القوات النظامية كليا من الاوجادين في منتصف مارس ١٩٧٨، منهية الجولة الثانية من المواجهة المسلحة بين الصومال واثيوبيا.

لكن مثلما أثار الصوماليون العالم كله باجتياحهم السريع للاوجادين في أواخر عام ١٩٧٧، أثاروا اندهاش العالم كذلك لتقهقرهم المفاجيء في مارس ١٩٧٨. فكيف حدث ذلك!؟

في الاجابة على هذا السؤال يقول المؤرخ العسكري المصري اللواء حسن البدري: ــ (٦١)

«لقد بلغت المساعدة ــ السوفيتية الكوبية لاثيوبيا ــ ذروتها بكماشة الجنرال بتروف النائب الأول لقائد القوات البرية السوفيتية الذي أعاد احتلال معظم اقليم الاوجادين الصومالي خلال مائتي ساعة فحسب.

لقد أطلق بتروف كماشته التي شكلها من وحدات الدبابات

(٦١) كماشة بتروف في القرن الافريقي ــ مقال للواء حسن البدري نشر بالأهرام ١٩٧٨/٥/١٣.

ت ٥٥، ت ٦٢، وعربات القتال المدرعة في تعاون وثيق مع الطائرات الميج ٢١، والسوخوي، تساندها وحدات المدفعية الخفيفة الحركة، فأطبق بها على ممر «كاراماردا» الواقع على السفوح الشرقية لسلسلة جبال «أحمر» الوعرة بحركة التفاف مزدوجة من الشمال والجنوب، كانت قوات الاقتحام الرأسي بالحوامات قد أمنت لها المسالك الجبلية حول هذا الممر الحيوي.

ولقد أثار انتباه النقاد العسكريين انه رغم وعورة هذه المنطقة الجبلية فإن حركة الكماشة نجحت في أن تحقق معدل اندفاع سريع للغاية، تحت وقاية غلالات النيران الزاحفة أمام الدبابات وارسال عربات القتال المدرعة المشحونة بالجنود الكوبيين.

وبمجرد أن طهرت هذا الممر الجبلي الهام، راح بتروف يضرب خطوط الدفاع الصومالية فيما بين مدينتي هرر وديرداوا الشهيرتين، حتى يهيء الظروف المناسبة لحشد قواته للمرحلة التالية من العملية الهجومية واستدراج المزيد من القوات الصومالية نحو مدينة جيكجيكا توطئة لتدميرها في معركة حاسمة.

وعندما دخلت هذه القوات في الفخ المنصوب لها هناك، أطلق بتروف قوات الجنرال الكوبي «ارنالدواكوا» البالغ عددها ١٢ ألف مقاتل، والمسلحين بالدبابات الحديثة ت ٦٢ وعربات القتال المدرعة في تعاون وثيق مع الطائرات، لتلتف على جانبي المواقع الدفاعية الصومالية، بينما راحت المشاة الأثيوبية تضغط عليهم من الأمام، لتشبيتهم في أماكنهم، وتجذب انتباههم بعيدا عن حركة الالتفاف الحاسمة.



دبابة سوفيتية الصنع استولى عليها ثوار الأوجادين في الهجوم على هرر.

وبمجرد أن التقى فكا حركة الالتفاف، شرق جبال أحمر في آخر أيام فبراير ١٩٧٨، أصبح المسرح جاهزا للاقتحام الذي استهله بتروف بشن ١٣٠ طلعة جوية «لتليين» دفاعات جيكجيكا، وبمجرد أن سقطت هذه المدينة في يد قواته المهاجمة، استغل بتروف النجاح حتى الحدود الصومالية على مواجهة نحو ١٥٠٠ كيلومتر، فوصلت قواته الى تلك الحدود، في نهاية اليوم الثامن من بدء الحرب محققة رقما قياسيا للحروب الخاطفة في المسارح الجبلية الوعرة.»

هكذا استعاد العسكر الاثيوبيون كرامتهم وشرفهم العسكري على أيدي الحلفاء السوفيت والكوبيين بعد طول تراجع وامتهان واذلال.

وفور أن فرغوا من جبهة الأوجادين، تحولوا الى الجبهة الأخرى لنفض اليد منها هي الأخرى، الى ارتريا.

(٧) ارتــــريا تكســـر

حصـــار الصمـــــت:

بعد أن فرغ الأثيوبيون من قضية الأوجادين في مارس ١٩٧٨ كان واضحا أن خطتهم تتجه شمالا الى ارتريا،(٦٢) لانهاء الوضع

---

(٦٢) تقع ارتريا على الشاطىء الغربي للبحر الأحمر على شكل مثلث محصور بين اثيوبيا والسودان وجيبوتي، تمتد فيها الصحراء على الطريقة الافريقية بينما غابات السافانا تغطي مساحات فسيحة تمتلء بالبحيرات والمستنقعات، عبر كل مساحة ارتريا التي تبلغ ٥٠ ألف ميل مربع تنضغط فيها عوالم المرتفعات الاثيوبية والصحراء السودانية الشمالية والغابات الافريقية والاستوائية والبراري البركانية القاسية.

تتشكل المنطقة عند قلبها من هضبة مليئة بالمستنقعات والصخور الجرداء

المتأزم هناك. ذلك الوضع الذي تعدى مرحلة القلق ـ في ظل اشتباكات متباعدة ـ الى مرخلة هجوم واسع شنته جبهات التحرير الثلاث (جبهة تحرير ارتريا، والجبهة الشعبية، والقوات الشعبية) على المدن الرئيسية بعد أن أحكمت قبضتها على الريف والمدن الصغرى وقطعت الطرق الرئيسية، وأصبح الجيش الأثيوبي في جزز محاصرة ومنعزلة لا رابط بينها بريا أو بحريا.

وخلال سبعة عشر عاما من عمر الثورة الارترية، لم يكن حلم الاستقلال قريب المنال بمثل ما كان في نهاية عام ١٩٧٧ وبداية عام ١٩٧٨.

لكن الهجوم الأثيوبي المضاد الذي ركزت فيه أديس أبابا كل

= والوديان الضحلة والمنحدرات العميقة، تنتشر فيها نباتات الصنوبر واليوفوربيا الشمعدانية الشكل. بينما يمتلىء الجانب الشرقي من الهضبة بالغابات. وتنحدر الهضبة شرقا لتتحول الى أراض منخفضة تنتهي الى السودان. أكبر الأنهار هو مأرب الذي يعرف باسم قاش وبحيرة عنسيبا وتجري نحو السودان أيضا. ويسكن ارتريا ٤ ملايين نسمة من أصول مختلفة لها امتدادات خارج ارتريا، بعضهم مسلمون والبعض الآخر مسيحيون وقليل منهم وثنيون. وقد عرفت ارتريا تاريخيا باسم (مردي غيز) أي أرض الأحرار، ومردى بحري أي أرض البحر، ومارب ميلاش أي الخط الفاصل بين ارتريا وأثيوبيا. وقد اعترف بوجودها السياسي المستقل أباطرة الأحباش القدامى. لكن موقعها الاستراتيجي عرضها لموجات من الغزاة الذين أرادوا أن يسيطروا عبرها على طرق التجارة بالبحر الأحمر. وكانت أشهر هذه الموجات الغزوة الحبشية بعد سقوط مملكة اكسوم والغزوة التركية في عام ١٥٥٧، والغزوة المصرية بعد افتتاح قناة السويس والغزوة الايطالية التي بدأت في سنة ١٨٨٥، ثم الغزوة البريطانية التي ورثت الادارة في ارتريا عن الايطاليين منذ عام ١٩٤١ حتى أدمجتها أثيوبيا في أمبراطوريتها، ومنذ سبتمبر ١٩٦١ تشهد ارتريا الكفاح المسلح لتحرير أبنائها.

قوتها العسكرية بعد أن فرغت من حرب الأوجادين، بدد هذا الحلم مؤقتا على الأقل، وأضاع جهد سبعة عشر عاما، تماما مثلما بدده وأضاعه تمزق حركة الثورة الارترية الى ثلاث جبهات متناحرة معظم الوقت لا تتقارب إلا في أحيان نادرة.

وقبل أن ندخل في تفاصيل الموقف يجدر بنا التعرض لموقف والكوبيين تجاه الحرب الارترية لما لذلك من أهمية بالغة في تغيير ميزان القوى.

لقد لقيت حركة التحرير الارترية منذ بداية اعلانها في أوائل الستينات تعاطف موسكو وكل الدول الاشتراكية، وتلقت مساعدات مادية وأدبية ملموسة، وبخاصة الجبهة الشعبية لتحرير ارتريا التي يقودها أسياسي افروركي ورمضان نور، على أساس انها يسارية قريبة الى الماركسية.

غير ان تغير موازين التحالفات في القرن الافريقي ــ التي سبق أن تعرضنا لها ــ وضع السوفيت في صف الاثيوبيين ضد ارتريا التي كان ينظر اليها «كحركة تحرير وطني»، فأصبحت بين يوم وليلة «حركة انفصال».

واذا كان هذا هو الموقف النظري فإن الموقف العملي ــ أي اشتراك السوفيت والكوبيين في حملة الهجوم الاثيوبي الشامل ضد ارتريا منذ مايو ١٩٧٨ ــ قد تعرض لكثير من الغموض، بعكس موقفهم في الهجوم على ثوار الصومال الغربي (الأوجادين) قبل ذلك بشهرين.

لقد رأينا انقساما واضحا حتى في جانب الارتريين: بين متهم للسوفيت والكوبيين بالمشاركة العسكرية الفعالة والمباشرة في حملة الهجوم السوفيتي التي اكتسحت الثوار، وبين قائل إن السوفيت والكوبيين

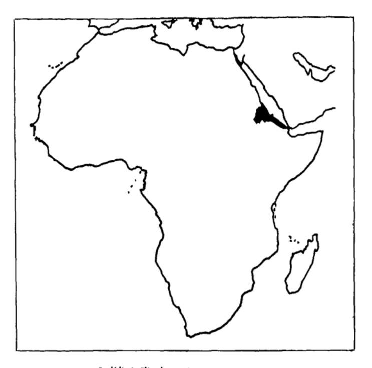
اختلفوا مع حلفائهم الجدد الاثيوبيين حول هذه الخطوة، وبالتالي لم يشتركوا عمليا، وان كانت مساعداتهم الحربية الضخمة هي التي مكنت الاثيوبيين من تحقيق الاكتساح الشهير الذي بلغ ذروته مع منتصف عام ١٩٧٨، وهو على أي حال انقسام مازال قائما بين فصائل الثورة الارترية.

ومن الغريب أن تكون الجبهة الشعبية لتحرير ارتريا «اليسارية» ذات العلاقات الوطيدة مع موسكو وهافانا من قبل هي أكثر المتشددين في اتهام العاصمتين بمساندة الاثيوبيين ومشاركتهم في القتال المباشر ضد ثوار ارتريا، مستدلة على ذلك بأن طلائع الجبهة رصدت في أكثر من مكان بميدان القتال جنرالات سوفيت وضباطا وجنودا كوبيين يقاتلون جنبا الى جنب مع الاثيوبيين، كما سبق أن أثبتوا مشاركة قوات عربية من اليمن الديموقراطية في هذا القتال الى جانب الاثيوبيين ايضا، وذلك عندما أسقطوا طائرة ميج كانت تقصف مواقعهم وأسروا طيارا يمنيا كان يقودها.

وعلى العكس من ذلك كان موقف جبهة تحرير ارتريا، وهي الجبهة الأم، التي يفترض انها معتدلة الاتجاهات، فقد أعلنت رسميا أنها لا تملك دليلا واحدا على اشتراك السوفيت والكوبيين في القتال.

ولكن كيف كان المسرح على الجبهة الارترية قبيل بدء الهجوم الاثيوبي الشامل؟

في منتصف عام ١٩٧٧، التقيت بأحمد ناصر رئيس المجلس الثوري لجبهة تحرير ارتريا ــ التي تمثل أول وأقوى الجبهات الثلاث في ارتريا ــ التي تفتت منذ عام ١٩٧٠، ولاول مرة خرج عن صمته وتحدث علناً عن الواقع الارتري حيث كانت الثورة وقتها قد سيطرت تقريبا



ارتريا .. مثلث صغير ملتهب في القرن الافريقي.

الاعراق والقبائل الرئيسية	اللغة المحلية	طريقة الحياة	الدين
سكان المرتفعات الوسطى	التجرينية ـ بحروف مكتوبة من اصل سامي .	مزارعون مقيمون . كثافتهم عاليه . ينظمون في مجتمعات قروية تتألف من عائلات كبيرة. تدير شؤونهم محليا لجان من رئيس او « شيخ » يعين تقليديا اما حكومياً ، تحت امرة المسنين الذين يمثلون العائلات. من عائلة محددة .	اغلبية من الاقباط واقلية من المسلمين ـ الجبيرتي .
البيجا	البدو (البيجا) من الاصل الكوشي	مجتمعات بدوية متماسكة التركيب السلالي تتحول في مجموعات صغيرة بحثا عن الكلأ . طورت مع الزمن قانونا لضبط أمورها الخاصة يتلاءم مع بيئتهم وحاجاتهم .	مسلمون
بني عامر قبيلة من البيجا	التيقري من اصل سامي	تعيش غالبيتهم حياة بدوية، لكن بعضهم يعيش حياة زراعية مستقرة حول اغوردات .	مسلمون
الحباب	التيقري من اصل سامي	حياة بدوية	مسلمون
الساهو	الساهو فرع من الحامية قريبة من لهجة عفار .	غالبيتهم اقرب الى البداوة. يقطنون في المناطق الساحلية شتاء ، ويرحلون غربا الى الهضبة عبر مناطق يسكنها اناس يتكلمون التيقرينية . ينتظمون في عشائر تتوحد في خمس قبائل هي : المساورتا ، الحارو، الميناتيري، الغدرسيلا، والساتي . تدير شؤونهم مجالس من كبار السن .	اكثرية مسلمه بعض المسيحيين
البلين	البلاية فرع من الحامية	عشيرتان : بيت تاركي وبيت تاوكي . لهما لغة مشتركة . تعيش عشيرة بيت تاركي حياة أكثر استقراراً . أما بيت تاوكي فتعيش حياة بدوية او شبه بدوية .	بيت تاركي معظمهم من المسيحيين وأما بيت توكي فمعظمهم من المسلمين .
الدناكيل (عفار)	العفارية ـ لهجة كوشية قريبة من لهجة الساهو .	يعيشون حياة بدوية . ينتظمون في اتحادات، وقبائل، وعشائر متعددة .	مسلمون
البازيا	البازا لهجة نيلية (نهر النيل)	يزارعون مستقرون . يحفظون نسبهم، وعشائرهم وعائلاتهم متماسكة التركيب .	مسلمون
الكوناما	البازية لهجة نيلية (نهر النيل) .	مزارعون مستقرون . لا يحفظون نسبهم ، وعائلاتهم متفككة التركيب .	اغلبية وثنية

توزيع سكان ارتريا من حيث الأصول العرقية والدينية واللهجات واللغة المحلية وطريقة الحياة.

على مقاليد الأمور بشكل أثار اهتمام العالم بعد أعوام طويلة من التعتيم الاعلامي والتجاهل المقصود. قال لي الرجل الذي كان ساعتها في الثلاثين من عمره:

* أمام الثورة الارترية الان مهمتان أساسيتان هما ما يلي:

أولا: استغلال التطورات السياسية الجارية الان على الساحة العربية والارترية والاثيوبية ثم الدولية.

عربياً — نحن الآن نكتسب أرضاً جديدة ودعماً متزايداً من الدول العربية، حتى تلك التي كانت ترتبط باثيوبيا بعلاقات تقليدية، اننا نلقى التعاون والمساعدة من الدول العربية الاساسية خاصة مصر وسوريا والعراق والسودان والسعودية والجزائر، الواقع ان اشقاءنا العرب أدركوا أخيرا مغزى الكفاح الارتري، ومعنى استقلال بلادنا المطلة على مضيق باب المندب والمتحكمة في أرخبيل جزر «دهلك» بقرب المدخل الجنوبي للبحر الاحمر، يكفي أن استقلالنا يعني زوال الوجود الاسرائيلي من هذه المنطقة الاستراتيجية، ويعني إحكام حزام الأمن العربي في كل البحر الأحمر، وبدون استقلالنا تظل ثغرة الموت قائمة في هذا الحزام.

اثيوبيا — ليس هناك فارق كبير بين نظرة هيلاسي لاسي الرجعية المستبدة تجاه استقلال ارتريا، ونظرة المجلس العسكري الحاكم الآن الذي يرفع شعارات اشتراكية وتقدمية، كلاهما يصر على سحق الثورة الارترية. ونحن نصر على المقاومة حتى بلوغ الاستقلال، ولاثبات ذلك يكفي أن يطلع اي انسان على الوثيقة السرية محدودة التداول «عن السياسة الخارجية

لاثيوبيا والمسألة الارترية» التي أصدرها المجلس العسكري، واستطعنا تهريبها من قلب أديس أبابا وترجمناها من اللغة الامهرية الى العربية واللغات الأجنبية الاخرى. لكن التيار يجري في اثيوبيا عكس ما يتصوره المجلس العسكري، الذي رأيناه وما زلنا نراه يأكل بعضه بعضا في مسلسل التصفيات الدموية.

دولياً - لا شك أن نضال ١٦ عاماً متصلة، دفعت فيها ثورتنا أغلى التضحيات، وبقاء عنصر الاستمرارية، وتزايد النفس النضالي الطويل، قد أقنع العالم أن الذي يجري على الارض الارترية ليس تمرداً داخلياً أو حركة انفصالية كما تصوره أديس أبابا الامبراطور، أو أديس أبابا مانجستو، لكنه بالقطع ثورة وطنية وحركة تحرير، تماما كحركات التحرير في فلسطين وزيمبابوي وناميبيا، أصدقاؤنا في العالم يتزايدون ليس بفضل الدعاية الاعلامية، بل بفضل تضحيات الفلاح الارتري المقاتل، ودور الثورة هنا أنها نظمته ودربته وسلحته ليقاتل دفاعاً عن أرضه ووطنه.

ثانياً: المهمة الثانية للثورة الآن هي الوحدة الوطنية. لقد بدأنا منذ ١٦ عاما في ظل تنظيم واحد هو جبهة تحرير ارتريا. وفي عام ١٩٧٠ بدأت عدوى الانقسامات تنتقل الينا، فحدث أول انقسام، حيث خرجت مجموعة فرعية من الجسم الأصلي هي قوات التحرير الشعبية بقيادة عثمان صالح سبي، ورمضان نور، وأسياسي افروركي. وفي عام ١٩٧٥ انقسمت هذه المجموعة الى مجموعتين، احداهما بقيادة أسياسي والثانية

بقيادة عثمان سبي، كل واحدة تتهم الاخرى بالانحراف يمينا أو الانحراف يسارا ولكن بقيت جبهة التحرير كقاعدة أساسية تمثل التنظيم الام بقيادة المجلس الثوري (٤١ عضواً) والذي انتخب لجنة تنفيذية من تسعة أعضاء، ورغم أن المشكلة الان هي التقسيم العقائدي والسياسي للمقاتلين الارتريين، وتسرب عدوى المزايدات العربية والتشرذم، فإننا ما زلنا نصر على أن طريق الثورة هو حتمية العودة الى مسيرة الوحدة الوطنية لكل المقاتلين، فنحن ضد «الانشطارات الاميبية» في حركة الثورة الوطنية، والتوجه العام لنا هو ضرورة توحيد كل فصائل الثورة.

- عن الموقف العسكري في الميدان: كل الريف تسيطر عليه فصائل الثورة، وتديره عن طريق السلطة الوطنية، التي تنظم الحياة في الريف، ابتداء من الميليشيا والدرك الى الزراعة والانتاج والقضاء والتعليم وجباية الضرائب. لا وجود لاثيوبيا — حتى منتصف ١٩٧٧ — الا في ٩ مدن فقط تحتلها بقواتها العسكرية التي تصل الى ٣٢ ألف جندي، تتحكم في هذه المدن، وفي مقدمتها الفرقة الخامسة المسماة بالامهرية (نبل بال) أي اللهب، وهي الفرقة التي دربتها اسرائيل خصيصاً لتواجه بها اديس أبابا عمليات قوات التحرير الارترية.

مشكلة الجيش الاثيوبي هي كيفية امداد قواته المقاتلة في ارتريا، لان قواتنا تسيطر على الريف، وتتحكم في طرق المواصلات بين المدن الرئيسية، وبالتالي أصبحت هذه المدن كالثكنات العسكرية المحاصرة، ولذلك تمدها أديس أبابا بالمؤن عن طريق الطائرات.

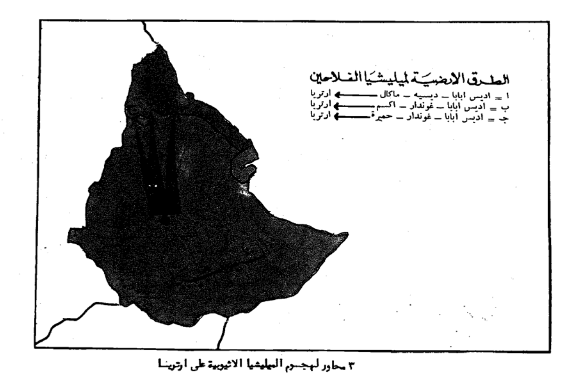
ولقد حاول المجلس العسكري الاثيوبي أن يفك هذا الحصار، فنظم ماسماه بمسيرة الفلاحين الاثيوبيين للزحف على الريف الارتري من خلال ٣ محاور رئيسية، لكننا أحبطنا هذا الزحف وأفشلناه تماماً. وعاد النظام الاثيوبي يدور في حلقة مفرغة للخروج من مأزق حصار قواته في المدن.

وبالطبع الخطوة القادمة لنا سوف تكون بدء حرب المدن، لاسقاط هذه القلاع المحاصرة، أما الطرق الرئيسية فقواتنا تسيطر عليها بنسب متفاوتة، ولنضرب لذلك مثلا بطريق عصب أديس أبابا، وهو الطريق الاساسي لامداد اثيوبيا بالبترول والواردات ــ ويبلغ طوله ٦٧٠ كيلو مترا ــ لقد استطعنا أن نشل الحركة عليه بنسبة ٥٠٪ وجهدنا مركز الان لقطعه تماما خاصة أن معظمه يمر بمناطق نسيطر عليها.

أديس أبابا تعد الآن هي الأخرى خطة جديدة للهجوم علينا وسوف ينقلون المعارك الى حدود السودان التي تشكل لنا شريان الامدادات الرئيسي وذلك لتحقيق هدفين:

(١) محاصرة الثورة الارترية وخنقها واغلاق طرق امدادها من الغرب، وضربها من الخلف ثم التقدم للزحف عليها من الخارج للداخل بعد أن نكون قد وقعنا في الحصار الخانق.

(٢) اصطناع مشاكل حدود مع السودان واثارة المتاعب القديمة عن طريق الاستفزازات والاشتباكات العسكرية، على أمل اجبار السودان تحت هذا الضغط العسكري على التخلي عن دعم ثورتنا، مقابل تخلي اثيوبيا عن ايوائها لمعسكرات المعارضة السودانية اللاجئة اليها.



٣ محاور لهجوم الميليشيا الاثيوبية على ارتريا

وبالفعل تحقق توقع زعيم جبهة تحرير ارتريا. فمنذ ابريل ١٩٧٨، بعد انتهاء العمليات العسكرية الاساسية في حرب الاوجادين، لصالح الاثيوبيين، بدأت كل الانظار تتجه شمالا الى بؤرة التوتر الثانية ارتريا.

كان الموقف في أديس أبابا من الناحيتين السياسية والعسكرية في قمة انتصاره وانتشائه، بعد نتائج الاكتساح الساحق الذي حققوه بمساعدة الكوبيين والسوفيت على أعدائهم الصوماليين، كل شيء كان في جانبهم.

وفي ظل هذه الصحوة العسكرية المنتصرة، كسر الزعيم المزهو مانجستو ماريام عدة زجاجات مليئة بالدم في احتفال ضخم بأديس أبابا وسط صيحات عشرات الآلاف، تعبيراً عن الاستعداد الدائم للحرب، ومهددا بسحق الصومال في عقر دارها وغزو مقديشو ذاتها ومعلنا بدء الهجوم الجديد الساحق ضد ارتريا.

ومن الواضح أنه عند هذه النقطة ثارت بعض الخلافات غير المعلنة والمكتومة بين الحلفاء الذين حاربوا جنباً الى جنب في معركة اوجادين.

لقد شهد شهر ابريل ١٩٧٨ عدة علامات مميزة تميط اللثام عن الموقف الغامض لكل من كوبا والسوفيت تجاه الحرب الارترية التي طالما دربوا رجالها وسلحوهم وناصروهم كحركة تحرير في الماضي.

●●● في الاسبوع الأول من ابريل ١٩٧٨ قام مانجستو ماريام بزيارة سرية لموسكو ناقش خلالها الوضع في القرن الافريقي على ضوء الانتصار الذي تحقق في الاوجادين والاستعداد لدفع جيشه الى

ارتريا، ولم يتسرب شيء محدد عن موقف السوفيت أو عن وجود خلافات حادة بين الجانبين حول ارتريا.

●●● في ٧ ابريل أعلن متحدث رسمي باسم الخارجية الامريكية أن كوبا تواصل تدعيم وجودها العسكري المباشر في ارتريا، وان جنودها يشاركون بشكل مباشر في القتال الدائر ضد ثوار ارتريا.

●●● في نفس اليوم قالت الجبهة الشعبية لتحرير ارتريا ان اثيوبيا بدأت الاعداد لهجوم شامل لاستعادة سيطرتها على البلاد عن طريق دفع جيشها خلال ٣ محاور هي: محور هجوم يتجه مباشرة الى أسمرة لفك الحصار الطويل المضروب حولها، ومحور هجوم يبدأ من اقليم تيجرى الاثيوبي على طريق أسمرة أديس أبابا، والمحور الثالث يتم من خلال انزال بحري كثيف لفك حصار ميناء مصوع.

●●● في ٢١ ابريل قام منجستو بزيارة العاصمة الكوبية هافانا ليبحث مع فيدل كاسترو المشكلة الارترية واقتراح كوبا بالتوصل الى حل سلمي لها.

ومن هذا الاجتماع تسرب أن الكوبيين والاثيوبيين يختلفون حول هذا الحل حيث رأى الكوبيون ضرورة اجراء مفاوضات مباشرة بين أديس أبابا وحركات التحرير الارترية لوضع حد للحرب والتوصل الى تسوية مرضية للطرفين. بينما رأى الاثيوبيون أن الحل الوحيد هو القوة العسكرية واستئناف العمليات الحربية لسحق «هؤلاء المتمردين».

●●● بعد ذلك باسبوع – في ٢٦ ابريل – أعلن كاسترو موقفه هذا عندما قال في تصريحات صحفية أن مشكلة القوميات يمكن أن

تحل طبقاً للأسس والمبادىء اللينينية. ولم يفصح أكثر من ذلك فلا هو نجح في وضع الحل السلمي الوسط، ولا هو أعلن صراحة دخوله مع الاثيوبيين في القتال ضد الارتريين.

*** لكن في مايو ١٩٧٨ حذرت الولايات المتحدة الامريكية من أن أي تورط عسكري كوبي أو أية قوات أجنبية أخرى ـ مشيرة الى السوفيت ـ في الهجوم الشامل الذي بدأته القوات الاثيوبية على ارتريا ينذر بعواقب وخيمة ذات خطورة بالغة تفقد القارة الافريقية استقرارها.

*** في نهاية يونيو من نفس العام، أعلنت جبهة تحرير ارتريا أن اثيوبيا بدأت فعلا هجومها الشامل، وان قواتها نجحت في اختراق خطوط دفاع الثوار الارتريين الامامية في المنطقة المحيطة بحصار اسمرة، وانها تتوغل في مناطق تبعد ٦ كيلومترات فقط من أسمرة، بينما تتقدم قوات أثيوبية أخرى جنوباً في المناطق الساحلية المحيطة بميناء عصب في «حركة كماشة» لمحاصرة الثوار باستخدام كل قوة نيرانية ممكنة من الطائرات المقاتلة وقاذفات القنابل والدبابات والمدفعية.

وقال الثوار أيضاً إنهم التقطوا اشارات باللاسلكي لتحرك هذه القوات الاثيوبية الضخمة تكشف عن وجود خبراء سوفيت كبار يقودون هذا الهجوم بالفعل بينما بقي الجنود الكوبيون في المواقع الخلفية لحماية العاصمة والمدن الرئيسية وخاصة في الاوجادين واقليم تجرى، حتى يتفرغ الجنود الاثيوبيون للمشاركة في الهجوم على ارتريا.

هكذا بدأت الحكومة الاثيوبية هجومها الشامل برا وبحرا وجوا على ارتريا للانقضاض على الثوار من خلال حركة كماشة واسعة النطاق، تشبه الى حد كبير كماشة بيتروف الواسعة التي سبق تنفيذها ضد الصوماليين في حرب الأوجادين.

ومع بدء هذا الهجوم الذي حشدت له أديس أبابا مائة ألف من القوات النظامية والميليشيا، دخل مسلسل الاحداث الدامية في القرن الافريقي احدى مراحله الملتهبة المليئة بالدماء، لتتصاعد أضخم حرب «محدودة» شهدها العالم منذ انتهاء حرب اكتوبر ١٩٧٣ بين العرب واسرائيل، وبعد أن هدأت احداث غزو شابا في زائير.

وقد كان واضحا ان الحكومة الاثيوبية مصرة على الحل العسكري للازمة الارترية، رغم طرح عدة حلول بديلة ، مستندة في اصرارها على عدة عوامل ظهرت على خريطة العلاقات الدولية، منها ما هو مرتبط بحركة الصراع الدولي، ومنها ما هو مرتبط بالصراع الاقليمي والمحلي في المنطقة وأهم هذه العوامل هي:

(١) النجاح السريع الذي احرزه الاثيوبيون في اجتياح الاوجادين وهزيمة الصومال في أخطر وأوسع المواجهات المسلحة في القرن الافريقي، في ظل غطاء الدعم العسكري السوفيتي الكوبي لستين الف جندي اثيوبي حاربوا معركة الاوجادين.

(٢) استغلال اديس ابابا لطبيعة المرحلة الحالية التي تمر بها العلاقات السوفيتية الامريكية، ولطبيعة الصراعات الدائرة بين القوتين العظميين والقوى الأصغر حول اعادة تقسيم مناطق النفوذ في العالم، خاصة في افريقيا وتنافسها على اقتسام مناطق انتاج الطاقة والمواد الخام، والتحكم في الممرات والمضائق المائية

الدولية.

ولقد ثبت صدق حدس السوفيت والاثيوبيين تجاه رد الفعل الاوروبي الامريكي من ناحية، وتجاه بطء استجابة الدول العربية للتدخل سواء الى جانب الصومال او ارتريا بطريق مباشر او غير مباشر من ناحية اخرى.

ولم تكن ردود الفعل هذه الا اشارة الضوء الأخضر لمضي العسكر الاثيوبي بمساعدة المعسكر الاشتراكي في تنفيذ سياستهم تجاه الصومال ومن بعدها ارتريا.

(٣) نجاح الاثيوبيين في طرح قضية الاوجادين وارتريا على السواء على انها «قضية انفصالية»، الأمر الذي يشكل حساسية بالغة عند كثير من الدول الافريقية، ومن ثم فلا غرابة ان وجدت اثيوبيا تأييدا من معظم الدول الافريقية خوفا من شبح بيافرا وكاتنجا جديدتين. بينما لم تستطع الصومال او حركة تحرير ارتريا او حتى الدول العربية المساندة لهما كسر حاجز الخوف هذا، وطرح القضية على انها قضية تحرير وحق تقرير مصير.

وقد كانت كل هذه العوامل في صالح اثيوبيا التي اعدت جيشها لاقتحام ارتريا. أما على الجانب الارتري نفسه فقد كانت الثورة بسبب انشقاقها الى ثلاث جبهات مختلفة، وتوزع جهدها السياسي والعسكري، قد فقدت اولا قدرتها على العمل الجماعي، وفقدت ثانيا فرصتها الذهبية، عندما كانت اثيوبيا تتقهقر امام اجتياح الصومال للاوجادين، فكانت النتيجة انه بعد ان ركز المعسكر الاشتراكي معوناته وجهده خلف نظام مانجستو ماريام حاكم اديس ابابا الاشتراكي «وقائد كوبا افريقيا»، استطاع استعادة توازنه السياسي، وتسليح جيشه وتدريبه، وبفضل اجتماع الخبرة العسكرية والقوة القتالية الحديثة

التسليح للاثيوبيين والكوبيين والسوفيت استطاع استعادة الاوجادين. وفور أن نفض يده من المشكلة الصومالية تفرغ تماما بكل هذه القوى للمشكلة الارترية.

وبذلك فقد الارتريون ميزة أساسية لتحقيق هدفهم الاستراتيجي في الاستقلال، بعد ان كانوا قد أثبتوا قدرتهم خلال عامي ١٩٧٦، ١٩٧٧ على مواجهة الجيش الاثيوبي، ونجحوا في صد الهجومين الأساسيين اللذين دفع بهما المجلس العسكري الحاكم في اديس ابابا تحت اسم المسيرة الحمراء مرة ومسيرة الفلاحين مرة اخرى.

الا ان الهجوم الشامل الثالث الذي بدا عمليا في يونيو ـ يوليو ١٩٧٨ كان له طابعه الخاص وتنظيمه الواضح، فقد اعلنت اديس ابابا ان هدفه التكتيكي هو فك حصار الارتريين حول العاصمة اسمرة ومصوع وتأمين طريق عصب اديس ابابا، بينما هدفه الاستراتيجي هو القضاء تماما على الثورة الارترية كما حدث في الاوجادين. بل كما قال وقتها مانجستو مريام «اننا بدأنا حملة حمراء على ارتريا أكثر تنسيقا من حملة الاوجادين»

وهكذا أثبت العسكر الاثيوبيون اصرارهم على اتباع القوة وحدها سبيلا لتسوية المشكلة الارترية، وعلى استخدام السلاح وسيلة وحيدة للتحاور، مع ان احمد ناصر رئيس المجلس الثوري لجبهة تحرير ارتريا كان قد اعلن آنذاك عن استعداده للدخول في مفاوضات دون شروط مسبقة من الطرفين للتوصل الى تسوية سلمية للأزمة، الأمر الذي فسر وقتها على انه نتيجة لنصيحة وجهت الى القائد الارتري من السوفيت خلال زيارة قيل انه قام بها سرا الى موسكو، وعلى انه نتيجة لجهود سوفيتية كوبية المانية مشتركة للتوسط بين حركات التحرير الارترية

وبين نظام العسكر الاشتراكيين في اديس ابابا، لوضع حد للقتال على عدة أسس أهمها:

(١) اعطاء الحكم الذاتي لارتريا ــ ٣ ملايين نسمة و١٢٠ الف كيلو متر مربع ــ واقامة نوع من الاتحاد بينها وبين اثيوبيا.

(٢) اقامة اتحاد فيدرالي «تقدمي» بين كل من اثيوبيا وارتريا واليمن الديموقراطية، يضمن للعقيدة الاشتراكية اقداما ثابتة حول مضيق باب المندب من الشرق والغرب على السواء، كما يضمن مراقىء امينة للاسطول السوفيتي في ميناءي عصب ومصوع وكذلك في ارخبيل جزر دهلك المنتشرة بالقرب من الساحل الارتري الممتد على مسافة الف كيلو متر على ساحل البحر الأحمر.

ولقد ساعدت الظروف السياسية والعسكرية السائدة في افريقيا بشكل خاص نظام اديس ابابا على تنفيذ خطة سحق الثورة الارترية، ولا شك أنه لا يمكن الفصل بين الاشتعال المستمر في القرن الافريقي وبين الاشتعال الآخر الذي يهب بين فترة وأخرى في نقاط الصدام الساخنة في القارة الافريقية، مثل ذلك الموقف المتوتر بين انجولا وزائير، وبين تشاد وليبيا، وبين السودان واثيوبيا، وبين الصومال واثيوبيا، وبين المغرب والجزائر وموريتانيا والبوليساريو حول الصحراء الغربية، ففي كل واحدة من هذه المواقع هدف استراتيجي، سواء كان نحاس شابا، او يورانيوم تشاد او فوسفات وحديد الصحراء، كما ان وراءه عوامل ايديولوجية وسياسية وعناصر نزاع اقليمية ومحلية، أصبحت تلعب دورها في اذكاء نار المعارك التي تقسم افريقيا الى أكثر من معسكر، وأصبحت تتيح للقوى العظمى فرصة ان تعيد توزيع نفوذها، لتصل في النهاية الى اقتسام القارة، في ظل الاستقطاب السياسي،

والتدخل العسكري المباشر كما نشهد الآن، سواء من المعسكر الغربي ممثلا في الوجود الفرنسي والبلجيكي مدعوما الى اقصى حد بالمساعدة المادية والمعنوية الأمريكية، أو من المعسكر الاشتراكي ممثلا في الوجود العسكري الكوبي الذي بلغ حجمه ٤٦ الف جندي وخبير موزعين على ١٤ دولة في افريقيا، وإن تركز معظمهم في كل من انغولا غربا واثيوبيا شرقا.

ويجدر بنا هنا أن نسجل ان كلا من الوجود الغربي والشرقي يزعم لنفسه الشرعية، و يبسط على نشاطه في افريقيا أردية التخفي تحت معاهدات واتفاقيات الصداقة والتعاون والمساعدة، وهو بذلك ــ سواء كان الزعم صادقا او كاذبا ــ يحقق بوجوده المباشر أهدافا سياسية واقتصادية وعسكرية وأيديولوجية ايضا، فاذا كان الفرنسيون قد تركزوا يوما ما في تشاد مثلا باسم اتفاقية التعاون العسكري فالسوفيت ذهبوا الى انجولا بناء على اتفاقية تعاون مماثلة، واذا كان المظليون البلجيك قد هبطوا في شابا بناء على استدعاء من زائير فكذلك فعل الكوبيون عندما تدفقوا على اثيوبيا.

ومن الملاحظ انه بعد ان استقرت الأوضاع السياسية والعسكرية بشكل نسبي في غرب القارة الافريقية، حيث ثبتت كوبا والمعسكر الاشتراكي الأقدام في انجولا، وثبت الغرب ــ بعد التدخل الفرنسي البلجيكي في شابا ــ أقدامه هو الآخر في زائير، بدأت المواجهة تأخذ طريقها في سباق المصالح متجهة الى الشرق، حيث القرن الافريقي، ليمتد حزام التقسيم، وتوزيع مناطق النفوذ السياسي والعقائدي من انجولا غربا الى اثيوبيا شرقا، بديلا عن الخط السياسي والعسكري الفرنسي المشهور خلال عصر الاستعمار التقليدي ؛ خط جيبوتي داكار.

ويلاحظ كذلك أن هناك في القرن الافريقي وعلى مقربة من اللهب الاثيوبي الصومالي الارتري، عدة أنواع من الوجود العسكري، وأهم أنواع هذا الوجود هي:

(١) الوجود السوفيتي الكوبي الثقيل بكل المعاني السياسية والعسكرية في اثيوبيا التي اصبحت بالنسبة للمعسكر الاشتراكي «كوبا افريقيا».

(٢) الأسطول السوفيتي المتزايد الحجم والسابح فيما بين البحر الأحمر، والمحيط الهندي ويقدر عدده في أضعف حالاته بحوالي ٤٦ قطعة حربية. وقد وجد له مرافىء سخية في أرخبيل جزر دهلك وكذلك في عصب ومصوع على الساحل الغربي، وفي عدن وجزيرة سُقُطرة اليمنية على الساحل الشرقي، مطبقا بشكل مباشر على المداخل الجنوبية للبحر الأحمر معوضا خسارته في الموانيء المصرية شمالا التي طرد منها في عام ١٩٧٢، وفي قاعدة بربرة الصومالية جنوبا التي خرج منها بشكل مفاجيء بعد توتر العلاقات الصومالية السوفيتية، بسبب حرب الاوجادين ومساندة موسكو للنظام العسكري في أديس أبابا.

(٣) الاسطول الفرنسي الذي مازالت قطعه تسبح بحرية في مياه المحيط الهندي، وتلجأ الى قاعدة «صديقة» في جيبوتي — المستعمرة الفرنسية السابقة — والتي مازال يعسكر فيها ٤٥٠٠ جندي من المشاة الفرنسيين طبقا لاتفاقية بين البلدين.

(٤) الأسطول الأمريكي المتضخم في المحيط الهندي الذي يدعم وحداته يوما بعد يوم في هذه المياه لمواجهة الاسطول السوفيتي المتزايد في المنطقة، وليكون قريبا من مناطق حقول البترول العربية والايرانية الضخمة في الخليج والجزيرة ومن طرق مروره

خاصة مضيق هرمز الخطير وبحر العرب متدفقا الى البحر الاحمر أو قناة موزمبيق الى رأس الرجاء الصالح فالمحيط الأطلنطي.

ولقد عمدت الولايات المتحدة الامريكية خلال السنوات الماضية الى تدعيم أسطولها في المحيط الهندي، بقطع من الاسطول السادس في البحر الأبيض المتوسط ومن الأسطول السابع في المحيط الهادي، لمواجهة الزائر المقيم الجديد وأعني به الأسطول السوفيتي الذي لم يكن موجودا في المنطقة قبل عشر سنوات، حيث كانت الملاحة وبالتالي السيطرة البحرية في هذه المياه قاصرة على الأساطيل الأوروبية الغربية والامريكية، وحيث كانت الاستراتيجية السوفيتية لم تزل بعد غير قادرة على مد خطوطها البحرية الدولية الى مثل هذه المياه البعيدة.

غير أن السنوات الأخيرة شهدت تطورا في حجم ونوعية تسليح الأساطيل الغربية والامريكية والسوفيتية على السواء في مياه المحيط الهندي التي تحولت الى ميدان لصراع «الحيتان الضخمة» ، لتقترب كل منها كثيراً من حقول البترول الغنية وطرق مروره، ولتدعم كل منها مرافئها ونفوذها في مناطق السيطرة الجديدة. ولذلك تدفقت القطع السوفيتية من مرافئها الضخمة في الشمال عبر المحيط الهادي الى المحيط الهندي، ودفعت موسكو مؤخرا ببعض حاملات الطائرات لأول مرة الى المحيط الهندي لتقترب من سُقُطرة في خليج عدن على مرمى قريب من دول البترول العربية ومضيق هرمز نفسه.

بينما عمدت واشنطن لمواجهة هذا التحرك السوفيتي الجديد الى زيادة وجود وحداتها البحرية في المحيط الهندي، بل انها عملت على تشكيل أسطول مستقل دائم الوجود في هذه المنطقة ــ الاسطول الخامس ــ بديلا عن الوجود المؤقت لوحدات سابحة مستعارة من

الأسطول السادس أو السابع، بالاضافة الى تشكيل قوة عسكرية استراتيجية قوامها ـ كما قالت المصادر الامريكية ـ حوالي ١١٠ آلاف جندي للتدخل عند الضرورة في الخليج العربي تحت اسم قوة الانتشار السريع.

* * * *

(٨) انكسار دائم أو انحسار مؤقت؟

ولقد استفادت اثيوبيا من تجمع كل هذه العناصر المحلية والدولية في خطة الهجوم الشامل على الأراضي الارترية، وحملة «سحق الثورة» وقد كانت الفترة ما بين اغسطس ١٩٧٨ وفبراير ١٩٧٩ هي أقسى فترات الحرج السياسي والعسكري للارتريين، مثلما كانت أقصى مراحل النصر السياسي والعسكري للأثيوبيين.

لقد استطاع الجيش الاثيوبي خلال تلك الفترة أن يستعيد سيطرته الفعالة على أهم المناطق الارترية التي حررها الثوار، خاصة المدن الاساسية والطرق الهامة. وأعادت أديس أبابا نشر قواتها في ارتريا من جديد كمروحة مفتوحة تحكم الخناق على مراكز الثوار وتحاصرهم أو تجبرهم على التقهقر.

وسواء كان نجاح الاثيوبيين بفضل المساعدة السوفيتية والكوبية غير المباشرة أو المباشرة كما تقول بعض فصائل الثورة الارترية، فإن المحصلة القائمة الآن هي أن هذه الثورة فقدت عمليا زمام المبادرة، وفقدت معه كل الأراضي التي حررتها على مدى ١٧ عاما من القتال، وكانت تصل مساحتها الى حوالي ٩٠٪ من المساحة الكلية للوطن

الارتري . ودخلت الثورة الى مرحلة الكمون من جديد، انتظارا لمتغيرات جديدة وتطورات جديدة.

لكن هل أصبح ذلك انكسارا دائما للثورة الارترية أو هو انحسار مؤقت ؟

من واقع تطور الأحداث في ميادين القتال الارترية مع بداية عام ١٩٧٩ كانت لنا هناك وقفة عند الاستراتيجية الجديدة للثورة الارترية التي تلملم انتصاراتها وتسحب قواتها أمام الهجوم الاثيوبي الساحق، وكانت الصورة على الوجه التالي: (٦٣)

لهيب ارتريا الذي يلفح وجوهنا ليس ناتجا عن المعارك الاخيرة وحدها، بل هو لهيب تصاعد في الأفق خلال ستة الأشهر الأخيرة، عندما بدأت حكومة اثيوبيا حملة الهجوم الشامل في أواخر مايو ١٩٧٨، مستخدمة ١٤٠ ألف جندي مسلحين بالطائرات الميج ٢١، ٢٣ والدبابات الضخمة والصواريخ والمدفعية الثقيلة، ترسانة أسلحة هائلة نقلها السوفيت لمساعدة حلفائهم الاثيوبيين يوجهها خبراء ومستشارون لهم خبرتهم العسكرية المتمرسة.

وعلى محاور ثلاثة انطلقت الحملة العسكرية الضخمة (١) محور أم حجر ــ تسني. (٢) محور تجري ــ اسمرة. (٣) محور اسمرة ــ مصوع. والمراقب للساحة الارترية الملتهبة لا يستطيع أن ينكر نجاح العسكر الاثيوبي واجتياحه لأهم المواقع التي حررتها قوات الثورة الارترية على مدى ١٧ عاما. لقد نجح الاثيوبيون في اعادة احتلال المدن الرئيسية في الاقليم، بعد أن حرزها الثوار بمعارك طاحنة. ومؤخرا سقطت مدينة «كرن» الشهيرة ــ ٩١ كم شمال اسمرة و٨١ كم من اغوردات ــ في

(٦٣) عن مقال للمؤلف من سلسلة «الأهرام في القرن الافريقي».

أيدي الجيش الاثيوبي.

وسقوط كرن المدوى، يعتبر في نظر الاثيوبيين تتويجا لنجاح حملتهم العسكرية الشاملة لضرب الثورة الارترية، وفي نظر الثوار يعتبر انحسارا مؤقتا لسيطرة الثورة على المدن وانسحابا تكتيكيا الى الجبال في وسط البلاد والغابات في غربها لالتقاط الأنفاس، والعودة مرة أخرى الى أساليب حرب العصابات.

لكن سقوط كرن كان بالنسبة لكل الاطراف ايذانا بنهاية مرحلة وبداية مرحلة أخرى في الحرب الدائرة عند القرن الافريقي، خاصة بعد استعادة السيطرة الاثيوبية من قبل على الأوجادين الصومالية. كانت كرن هي آخر حبات المسبحة التي سبق قبلها أن سقطت (تسنى واغوردات ومندفرة وعدى خوالا وسجنيتي ودقمحرى) وأعيد احتلال أسمرة وفك حصارها وكذلك مصوع وعصب وبارونتو وعدقية.

أصبح الوضع السائد ببساطة هو سيطرة الاثيوبيين على المدن الرئيسية والطرق الهامة، وعودة الثوار الى الاختفاء في الريف والاحتماء بالغابات واللجوء الى الجبال. وفي ظل هذا الوضع فان المواجهة سوف تستمر طويلا بأصعب مما مضى نظرا لان عوامل الصراع ما زالت قائمة ولم تحل حلا جذرياً، خاصة أن الثوار قالوا لي إنهم يريدون استدراج الجيش الاثيوبي الى هذه الميادين والمساحات الشاسعة والوعرة التي يسيطرون عليها، لانهاكه واستنزافه في حرب عصابات حقيقية وشاملة، بعد التخلص من عبء حماية المدن الكبرى والدفاع عنها. ويبدو أن الاثيوبيين سوف يقعون في هذا الفخ، فبعد أن احتلوا كرن، تقدموا في شكل كماشة تجاه معسكرات النازحين الارتريين شرق كرن، مندفعين بعدها حتى حدود السودان حيث يتجمع نصف مليون لاجىء ارتري. الأمر الذي لن يؤدي فقط الى تورط الاثيوبيين في قتال متصل مع

الثوار في هذه المساحات الشاسعة، بل يجدد تورطهم مع السودان على الحدود التي يعبرها الثوار بانسياب وحرية كاملة.

ومن خلال استطلاع واسع في مواقع كثيرة يمكن القول إن الميزان العسكري في الوقت الحالي هو بلا جدال لصالح الاثيوبيين، بفضل مخزون الاسلحة الهائل والحديث، الذي نقله اليهم الاتحاد السوفيتي مع الخبراء والمستشارين والمقاتلين الكوبيين ايضا، الامر الذي أحدث خللا خطيراً في موازين القوى العسكرية والسياسية، ليس فقط على مستوى ارتريا بل على مستوى القرن الافريقي كله.

ولقد قال لي أحد القادة المسئولين في جبهة تحرير ارتريا ــ المجلس الثوري ــ إن اثيوبيا نجحت بالفعل في تهيئة مسرح القتال سياسيا وعسكريا، محلياً واقليمياً ودولياً.

فهي نجحت في حشد جيش ضخم تدعمه ميليشيا أضخم، وقام السوفيت بتوفير السلاح الحديث من الصواريخ والدبابات الثقيلة والطائرات الميج ٢٣، ٢١. وقبل حملة الغزو الشامل لارتريا كان الاثيوبيون بمساعدة السوفيت والكوبيين قد انتهوا تماما من عملية الاوجادين، واستعادوا كل الصومال الغربي من يد الصوماليين.

يقابل هذه الايجابيات المضافة لصالح اثيوبيا سلبيات مسحوبة من الرصيد الارتري. أهمها غياب التنسيق السياسي والعسكري المشترك بين الجبهات الثلاث (جبهة تحرير ارتريا ــ المجلس الثوري ــ بزعامة أحمد ناصر ــ والجبهة الشعبية بزعامة اسياسي افروركي ورمضان نور ــ وقوات التحرير الشعبية بقيادة عثمان صالح سبي).

وعلى الساحة العسكرية، كان الثوار ــ بصرف النظر عن خلافاتهم وانشقاقهم سياسيا وعسكريا الى ثلاث جبهات ــ قد حققوا

نتائج هامة خلال ١٧ عاما من العمل والكفاح، أهمها أنهم استطاعوا ان يحرروا ٩٠٪ من الأراضي الارترية و يستولوا على أهم المدن والمواقع والطرق، ويحاصروا العاصمة أسمرة و يركبوا تلالها و يقطعوا الطرق الرئيسية وشرايين المواصلات . والأهم أنهم استطاعوا أن يكسبوا تأييد العالم وتعاطفه بما فيه الكوبيون حلفاء الأمس، الذين تحولوا في نطاق الاستراتيجيات العالمية الى أعداء اليوم ، كان الاستقلال من أثيوبيا قاب قوسين أو أدنى ولكن سرعان ما تغير الحال، وانقلب الوضع، نتيجة لدخول مصالح القوى العظمى طرفا في الصراعات المحلية والاقليمية الدائرة في العالم، خاصة في القرن الافريقي، المطل من الغرب على منابع البترول في الجزيرة العربية وايران والخليج العربي، والمواجه لمضايق باب المندب ومدخل البحر الأحمر شريان التدفق البترولي، من منابعه الى مصادر استهلاكه في الغرب الصناعي. لقد انتقلت التحالفات من اليسار الى اليمين أو العكس، خاصة تحالفات السوفيت والمعسكر الاشتراكي مع الصومال وتأييدهم المعلن للثورة الارترية ضد اثيوبيا، فأصبح تحالفاً مع أثيوبيا ضد الصومال وارتريا.

على أن من أهم مظاهر نشاط السوفيت والكوبيين في أثيوبيا اعادة تكوين وتحديث وتطوير الجيش الاثيوبي الذي انهار في ارتريا مرات كثيرة، وذاق الهوان طويلا في الصومال الغربي أمام ثوار الاوجادين. ومن أهم هذه المظاهر أيضا تدريب وتسليح مائتي ألف من الميليشيا الاثيوبية لتدعيم الجيش النظامي، فقد أدى هذا كله الى تحقيق هدف سياسي أساسي، هو تدعيم النظام العسكري الاشتراكي الحاكم ليكون بالفعل نقطة ارتكاز هامة و بؤرة اشعاع، يحقق المصالح الواسعة للمعسكر الشرقي في القرن الافريقي خاصة وافريقيا كلها والشرق الأوسط بصفة عامة، و يشجع تيارات الثورة ضد النفوذ الاوروبي الامريكي.

وبفضل هذا «الاستقرار» الذي وفره السوفيت للنظام الحاكم في اثيوبيا، وبفضل هذا التطور العسكري الضخم، وبفضل المشورة والمشاركة السوفيتية والكوبية سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، استعادت اثيوبيا سيطرتها واحتلالها للاوجادين، ثم تفرغت لارتريا ونقلت قواتها العسكرية الاساسية للجبهة الارترية، بعد أن ضمنت بقاء الكوبيين في الاوجادين لحماية ظهرها.

هكذا توفر للاثيوبيين الثقل العسكري الحديث التسليح على الجبهة الارترية التي أرّقت مضجعهم بشكل مثير منذ عام ١٩٦١. ودفع الاثيوبيون بثمانين ألف جندي من داخل الحدود الاثيوبية الى ارتريا عبر «تيجرى»، في الوقت الذي أعادوا فيه تنظيم وتسليح ٦٠ ألفا آخرين كانوا مشتتين في ارتريا خاصة في العاصمة أسمرة.

وفي غياب التنسيق العسكري بين جبهة تحرير ارتريا ــ ٢٠ ألف مقاتل ــ التي كانت تحتل معظم مناطق الحدود بالاضافة الى سهول الداخل، وبين الجبهة الشعبية اليسارية ــ ١٠ آلاف مقاتل ــ التي كانت تسيطر على المناطق الوسطى والشرقية، نجح الاكتساح الاثيوبي الذي انتظم على ثلاثة محاور قتال رئيسية تمزق ارتريا، ليحتل المدن الرئيسية أولا، ثم يعود فينتشر على شكل المروحة مستخدماً قوة نيرانية هائلة.

وقد قال لي قائد عسكري ارتري: إن الاثيوبيين كثفوا هجومهم الشامل منذ بداية اغسطس ١٩٧٨ بتكتيك جديد، هو دفع الموجات البشرية الغزيرة والمتلاحقة من المقاتلين، خاصة الميليشيا في البداية ثم الجنود النظاميين من خلفهم، بصرف النظر عن جسامة الخسائر التي الحقناها بهم على التوالي. ويضيف القائد الارتري أن موجات الهجوم هذه اصطدمت بمقاومة عنيدة من الثوار، الأمر الذي رفع عدد ضحايا

الاثيوبيين بشكل ملفت للنظر، وخفض الروح المعنوية وأدى الى عمليات هروب واسعة في صفوفهم. وقد أكدت مصادر محايدة ان خسائر الهجوم الاثيوبي تراوحت ما بين ١٥، ٢٠٪ بين قتيل وجريح غير الأسرى والهاربين.

●● لكن ماذا بعد هذا الهجوم الكاسح الذي شنته اثيوبيا على ارتريا ؟

●●● يجيب مسئول ارتري: إن مخطط الحكم العسكري الاثيوبي واضح تماما، بدأ باستعادة المدن من أيدي الثوار كخطوة أولى، ثم طور عملياته كخطوة ثانية في شكل حملات عسكرية لمطاردة قوات الثورة في الريف والجبال تدريجيا، واعادة فتح الطرق. وكخطوة ثالثة البدء باجراء بعض الاصلاحات الاقتصادية والاستقطاب السياسي بين الشعب الارتري. وهذه الاصلاحات المظهرية والشكلية هدفها سحب الارض من تحت أقدام الثورة وتصفية قواتها تماما خلال خمس سنوات من الآن كما تخطط أديس أبابا.

●● لكن الحكم الاثيوبي طرح برنامجا سياسياً لحل المشكلة الارترية، وسبق أن رفضتم القبول به، فما رأيكم فيه الآن بعد تغيرت موازين القوى على الساحة الارترية، نتيجة نجاح الحملة العسكرية الاثيوبية ؟

●●● يجيب المسئول الارتري: أولا إن احتلال اثيوبيا للمدن الارترية عبء له مشاكله، وعليها دفع ثمنه باهظاً، لقد تصور النظام الاثيوبي أن احتلال المدن من جديد وطرد الثوار منها هو نهاية المطاف، وان انهيار الثورة أصبح مؤكدا، الأمر الذي سيؤدي الى احباط وانهيار تام بين الجماهير الارترية نفسها التي طالما أيدت الثورة، وعلى أساس هذا التصور القاصر والخاطىء بنى الاثيوبيون

خطتهم في محاولة تنشيط العمل السياسي بين الجماهير الارترية بعد النجاح العسكري، مع اعادة طرح «برنامج النقاط التسع» لحل المشكلة من وجهة النظر الاثيوبية، والذي يرى اعطاء ارتريا شكلا من الحكم الذاتي ينطلق من مفهوم عجيب يقول بأن ارتريا متعددة القوميات والجنسيات، وهي قوميات تُعد في مجموعها امتداداً للقوميات الاخرى في اثيوبيا، وسيعيد الحكم الذاتي المقترح ربط هذه القوميات معا على أسس عرقية، بمعنى ربط مرتفعات ارتريا المتحدثة باللغة التجرينية بمنطقة «تجرى» في أثيوبيا، وكذلك نفس الشيء بربط منطقة «دنكاليا» — الدناكل — في ارتريا بمناطق «العفر» الواقعة تحت السيطرة الأمهرية الاثيوبية. الهدف النهائي هنا هو خلق كيانات عنصرية هزيلة حتى لو كانت متنافرة في اطار اثيوبي ضخم يلم الجميع رغم تناقضاتهم القومية والثقافية والعرقية، وهو بذلك هدف لا يختلف كثيرا أو قليلا مع نفس منطق الامبراطور هيلاسيلاسي يوم كانت المفاهيم الامبراطورية والتقاليد الاقطاعية هي السائدة.

في مواجهة هذه التحولات الخطيرة في الساحة الارترية التي رافقت الانتصار العسكري الاثيوبي الواضح، كيف تتصرف الثورة الارترية أمام اختبار البقاء وصراع التحدي .. هل هي أمام انكسار دائم ونهائي، أو هو مجرد انحسار مؤقت؟

قال لي أكثر من مسئول ارتري في جبهات التحرير المختلفة إن هناك اتفاقا ضمنيا بين فصائل الثورة الثلاث على الخط الاستراتيجي في المستقبل والذي يتضمن ٣ عناصر أساسية هي:

(١) التمسك بطرح الحل السلمي بشرط أن يكفل للارتريين حق

تقرير المصير.

(٢) تقوية ودعم قوى الثورة المسلحة للتصدي للجيش الاثيوبي.

(٣) ضرورة العمل على تحقيق الوحدة الوطنية بين فصائل الثورة الارترية، خاصة أن الواقع السياسي والعسكري الجديد يعتبر عاملا مساعدا وضاغطاً لتحقيق هذه الوحدة في مواجهة الخطر الداهم.

علينا أن نتوقع اذن حربا طويلة النفس في ارتريا قلب الجذب في القرن الافريقي تكون نموذجاً جديداً لحرب عصابات قوية الاستنزاف. قادة الثورة يعتقدون أن فقدهم للمدن وسيطرة اثيوبيا عليها هي ميزة لمستقبل الثورة وعبء على الخصم، إن قوات الثورة هي أصلا مدربة على حرب العصابات، كذلك كانت السيطرة على المدن عبئاً شد كثيرا اهتمامها وشتت تركيزها، الآن تعود استراتيجية الثورة الى قواعدها الاساسية، وتترك أساليب حرب المدن، لتعود الى قتال الجبال في ظل شعار «اضرب واهرب» وما أسهل تطبيق ذلك في جبال وسط ارتريا وغابات الغرب الكثيفة، ودروب الصحراء الوعرة ومزارع السهول الخصبة.

وتطبيقا لهذه الاستراتيجية الجديدة للثورة الارترية تحقق التقدم الاثيوبي السريع خاصة في شرق البلاد وجنوبها. لم يتم ذلك التقدم بفضل قدرة الاثيوبيين على القتال، بقدر ما تم أيضا نتيجة للانسحاب التكتيكي لقوات التحرير الارترية، لحفظ قوتها الاساسية ورصيدها العسكري وشده الى الجبال والغابات والريف بشكل عام، تمهيداً لاعادة ترتيب أوضاعها وتنظيم قواتها، وربما لتوحيدها في ظل قيادة عسكرية وسياسية مشتركة تتفادى التشرذم والتفتت وغياب التنسيق الذي أدى الى نجاح الهجوم الاثيوبي بأسرع مما كان يتصور أحد،وربما لبدء عمليات الهجوم المضاد بعد استدراج الجيش الاثيوبي الى فخ

الريف والجبال والغابات.

ويؤكد الثوار ايضا انه باستيلاء اثيوبيا على المدن انتهت قدرتها الكبيرة على الهجوم الواسع المركز، وعليها الآن أن تختار بين التمركز والبقاء في مواقع محاصرة ومعزولة، وبين الانتشار في الريف والجبال لمطاردة الثوار في كل شبر. وهذا أمر باهظ التكلفة العسكرية والاقتصادية ولن تتحمله الدولة الاثيوبية طويلا، رغم المساعدات السوفيتية الكوبية. وقد قدم السوفيت بليون دولار مساعدات عسكرية فقط لاديس أبابا خلال العام الماضي وحده بالاضافة الى الخبراء والمستشارين السوفيت والجنود المقاتلين الكوبيين.

ورغم كل هذا، وفي مواجهة سياسة الارض المحروقة والتدمير الشامل بالطائرات والقنابل الفسفورية والعنقودية التي طبقها الاثيوبيون، فقد تحققت عناصر جديدة للثورة الارترية خلال المراحل الاخيرة من القتال أهمها:

(١) التركيز على نسف الجسور والطرق لاعاقة الامدادات الاثيوبية، خاصة طريق مصوع ـ أسمرة، وطريق عصب ـ أديس أبابا الذي يمتد ٦٧٠ كيلو مترا.

(٢) تحطيم ومهاجة القواعد العسكرية الاثيوبية، وقد نجح الثوار في هذا الصدد في نسف مقر القاعدة العسكرية الامريكية السابقة في «كاجينو» بالقرب من أسمرة والذي تحول الى مقر للحكومة العسكرية في ارتريا.

(٣) بدأ الثوار باستخدام أنواع جديدة من الأسلحة الخفيفة الحديثة تلقوها مؤخراً من عدة دول عربية، من بينها صواريخ سام «السوفيتية الصنع» المضادة للطائرات.

وكل هذا سوف يساعد بلا جدال على استعادة الثورة الارترية لزمام المبادرة.



الفصل الرابع

حزام الأمن العربي في ظل الاستقطاب الدولي

١- حزام الأمن من البحر الى القرن.
٢- الدرس المصري بين السوفيت وامريكا.
٣- مفهوم اوسع للأمن القومي.
٤- المحاولة الأولى ميثاق جدة.
٥- المحاولة الثانية مؤتمر تعز.
٦- استقلال جيبوتي مأزق جديد.

(١) حزام الأمن من البحر الى القرن:

استطاعت اثيوبيا خلال فترة زمنية قصيرة ــ عشرة شهور فحسب ــ ان تحقق انجازا سياسيا وعسكريا واضحا في القرن الافريقي، وان تستعيد زمام المبادرة لأول مرة خلال ربع القرن الأخير، ففي عشرة الشهور هذه استطاعت ان تستعيد كرامتها العسكرية، وان تؤكد قوتها السياسية، بعد نجاحها العسكري الملحوظ في جبهة الاوجادين وارتريا.

وعند الحديث عن هذا الانتصار الاثيوبي السريع تثار دائما قضية التدخل الاجنبي في القارة الافريقية لصالح طرف وضد طرف آخر، فهناك من يرى ان النصر الاثيوبي تحقق فقط بفضل السوفيت والكوبيين وحدهم، الذين القوا بثقلهم خلف النظام العسكري اليساري في اديس ابابا، لدعمه ودعم انفسهم معه في هذه المنطقة الاستراتيجية الحساسة، وان السوفيت والكوبيين لم يكتفوا بمدد الاسلحة الهائل وبفيض التأييد السياسي فقط، بل تورطوا في القتال مباشرة وقاتلوا في الاوجادين وارتريا نيابة عن الجنود الاثيوبيين المعروفين بالترهل والانهيار والهرب!!

وهناك من يشكك في هذا الرأي، فالسوفيت والكوبيون موجودون علناً في أثيوبيا ــ كما أسلفنا ــ لدعم النظام الحاكم هناك ولدعم وجودهم ومصالحهم القومية في نفس الوقت، خاصة بعد ان ركزت موسكو استراتيجيتها الكونية الجديدة على أساس الانتشار على اوسع نطاق في العالم والتحرك بسرعة لمواجهة الاستراتيجية الامريكية والاوروبية في العالم.

ولكن الاثيوبيين كان لديهم ايضا الدافع القومي المشتعل للثأر من الصوماليين والارتريين الذين اذاقوهم خلال العقدين الأخيرين مرارة

الهزيمة وهوان الذل والاحباط ، ولذلك فقد فعلوا كل شيء ليضمنوا هزيمة هؤلاء الاعداء، ابتداء من تأمين المساعدة السوفيتية بلا حدود، وانتهاء بالتعبئة الشاملة في البلاد واثارة روح القتال والثأر بين جماهير الشعب خاصة بين الفلاحين الاثيوبيين.

وسواء تحدثنا عن التدخل الاجنبي بالرضا والقبول، او عن طريق القسر والالزام، فاننا نلاحظ ان قوى التدخل الاجنبي، خاصة حول القرن الافريقي، تناصر هذا الطرف او ذاك، اي انها تساعد لأسباب عديدة في اشعال اللهيب الساخن، الذي يعصف بالقرن الافريقي كله وليس اثيوبيا وارتريا والصومال فحسب،اذ ان كينيا واوغندا والسودان وبالتالي مصر ليست بعيدة عن اهداف نيران هذا الصراع، تماما مثلما هو الوضع بالنسبة لدول البترول العربية وايران الأمر الذي يعني الكثير بالنسبة للمصالح العربية من وجهة نظر قومية، وبالنسبة لحزام الأمن العربي عند طرفه الجنوبي.

وعند الحديث عن حزام الأمن العربي ــ رغم عدم وضوح معناه في مفهوم الكثيرين ــ فان ارتريا تعني الكثير في هذا الحزام. فلو تصورنا ان البحر الاحمر من مداخله الجنوبية عند مضيق باب المندب، الى مخارجه الشمالية عند قناة السويس، هو بالفعل بحر عربي بحكم ان كل سواحله وموانيه وممراته ــ باستثناء شريط ايلات الذي تحتله اسرائيل ــ تابعة لدول عربية كما سبق ان اسلفنا، لوجدنا ان السواحل الارترية الممتدة لألف كيلومتر فيما بين جيبوتي جنوبا الى حدود السودان شمالا هي أهم هذه السواحل على الاطلاق. وان استقلالها عن أثيوبيا ــ التي لا تملك تاريخيا سواحل ــ يعني امكانية سد ثغرة الموت المفتوحة حتى الآن في حزام الأمن العربي بالفعل.

وإذا كان العرب لم يدركوا خطورة ذلك حتى الآن ادراكا كافيا،

فقد أدركته القوتان العظميان ــ امريكا والاتحاد السوفيتي ــ ولهذا دعمتا وجودهما هناك عبر المراحل السياسية المختلفة، كما أدركته اسرائيل مبكرة. فسارعت منذ الخمسينات بتوطيد علاقاتها بامبراطور اثيوبيا هيلاسي لاسي وحصلت في مراحل تالية على تسهيلات بحرية وعسكرية في الموانىء والجزر الارترية المحتلة خاصة جزر دهلك لمضايقة العرب في باب المندب ومجرى البحر الأحمر كله.

واذا كانت أمريكا قد أقامت في ظل حكم هيلاسي لاسي قاعدة اتصالاتها الأساسية في «كاجنيو» قرب أسمرة العاصمة الارترية وكذلك في مصوع، وأقام السوفيت في ظل الحكم العسكر الاشتراكيين مرافئهم البحرية في عصب ومصوع، متبادلين الوجود العسكري مع الامريكيين، فان اسرائيل حافظت على علاقات وطيدة مع العسكر الاثيوبي مثلما كان الحال في زمن الامبراطورية الاقطاعية، متخطية بجهدها وأساليبها البراجماتية عقدة انتقال الحكم الاثيوبي من الامريكيين حلفائها الى السوفيت خصومها.

وهكذا قدمت اسرائيل للعسكر الاشتراكيين في اديس ابابا دعما عسكريا أكدته المصادر الامريكية نفسها، عندما أعلنت في فبراير ١٩٧٨ رسميا ان اسرائيل تقدم أسلحة ومعدات عسكرية الى اثيوبيا، التي تستخدمها في هجماتها ضد ارتريا والصومال، وأن هذه الاسلحة تشمل قنابل النابالم وصواريخ جو ارض وغيرها.

وقد فعلت اسرائيل ذلك لكي تضمن بقاء وجودها المباشر في بعض الجزر الواقعة بالقرب من باب المندب ذي الأهمية الاستراتيجية القصوى، بصرف النظر عن «رحيل» الوجود الامريكي عن اثيوبيا، «وحلول» الوجود السوفيتي مكانه الأمر الذي يفسر المعادلة الصعبة، التي تتكون من اللقاء غير المباشر بين الاهداف السوفيتية والاسرائيلية

لدعم النظام الاثيوبي الحالي وهو اللقاء الذي يضمن تدفق الدعم العسكري الاسرائيلي على نظام حكم يسانده السوفيت ضد السياسة والمصالح الامريكية.

ان القضية هنا بالنسبة لاسرائيل ليست ولاء من لمن، بقدر ما هي ادراك اسرائيل لخطورة قيام كيان عربي مستقل في ارتريا، ينهي الاحتلال الاثيوبي من ناحية والتسهيلات الاسرائيلية عند باب المندب من ناحية اخرى، وبذلك تفقد اسرائيل الدولة الوحيدة غير العربية المطلة على سواحل البحر الاحمر من الجنوب، وتبقى هي وحيدة مطلة على خليج العقبة في الشمال، وساعتها قد يدور عليها الدور.

ومثلما كان الصراع على البحر الاحمر والقرن الافريقي مشتعلا بين الامبراطوريتين الاستعماريتين بريطانيا وفرنسا خلال القرن التاسع عشر، اصبح نفس الصراع ملتهبا بين القوتين العظميين امريكا والاتحاد السوفيتي في القرن العشرين خاصة في ثلثه الأخير.

كان الصراع البريطاني الفرنسي على توزيع مناطق النفوذ وطرق التجارة الدولية بين الشرق والغرب قد فرض نفسه على حركة الصراع الدولي في القرن التاسع عشر، وترك آثاره الدامية على المناطق التي وقعت في دائرة تقسيم النفوذ والسباق الاستعماري على احتلالها. فاذا ما نجحت فرنسا في الحصول على امتياز قناة السويس في الشمال، سارعت بريطانيا لاحتلال عدن في الجنوب، واذا ما احتلت بريطانيا ساحل عدن لتطل من الشرق على مضايق باب المندب وتتمكن من المرور عبره، سارعت فرنسا لاحتلال جيبوتي في الغرب لتقوم بنفس التحرك وتوقف التحكم والتفوق البريطاني. واذا ما ثبتت فرنسا أقدامها في جيبوتي وبعض اراضي الصومال سارعت بريطانيا لتوازن هذا التقدم وتدخل في سباق الصراع على احتلال باقي الصومال.

هكذا كانت خريطة الصراع الدولي في منطقة القرن الافريقي والبحر الاحمر خلال سنوات استعمار القرن التاسع عشر.

وفي القرن العشرين استمرت نفس لعبة الشطرنج، مع اختلاف واحد هو تغير اللاعبين ، فقد تبادلت القوتان العظميان بعد الحرب العالمية الثانية، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي، نفس رقعة الشطرنج،فضمن نتائج الحرب العالمية الثانية وقعت منطقة الشرق الاوسط والقارة الافريقية داخل مناطق النفوذ الاوروبي الغربي الذي سرعان ما توارى ليسلم القياد للنفوذ الامريكي الصاعد والقوى والمؤثر والمشبع بالمال والمدجج بالسلاح حتى الاسنان والذي يميل الى استعمال عضلاته أكثر من ميله لاستخدام عقله، وليس هذا بغريب على الدور الامريكي في العالم، فقد كانت امريكا هي الدولة الوحيدة التي خرجت من الحرب العالمية الثانية جامعة بين الانتصار والغنى والقوة، ولم تنهكها الحرب بل زادتها ثراء ونفوذا ايضا.

وبمنطق اغنياء الحرب الجدد، تصرفت امريكا خلال الخمسينات والستينات في مناطق النفوذ الدولية، خاصة تلك التي تضم ثروات المواد الخام وبالتحديد المعادن الافريقية وبترول الشرق الاوسط.

في مواجهة ذلك كان الاتحاد السوفيتي لم يزل اسير الستار الحديدي الستاليني بكل سلبياته وايجابياته حتى جاء عصر خروشوف ليزيل بعض الآثار الستالينية، ويكسر حاجز الستارالحديدي، ويطل من خلال الاتحاد السوفيتي خارج حدوده لاول مرة، وليصطدم بتيارات اخرى في العالم، ويحتك بدول وشعوب اخرى، في ظل سياسة الحرب الباردة التي حكمت علاقات المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي سنوات طويلة. لكن الخروج السوفيتي الى العالم لم يتحقق عمليا الا في عصر بريجينيف الذي اختفت خلاله تماما مرحلة الحرب الباردة لتفسح

مكانها لعصر «الوفاق الدولي» بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي.

وخلال تلك المرحلة ــ أعني الخمسينات بوجه خاص ــ كانت الغالبية العظمى من شعوب القارة الافريقية والشرق الأوسط لم تزل تحت الاحتلال الاوروبي، وكان الجنود الاوروبيون هم الحكام الحقيقيين، والرايات الاستعمارية هي المرفوعة وحدها، فوق تلك الساحات الشاسعة الممتدة من شواطىء المحيط الاطلنطي غربا حتى شواطىء المحيط الهندي شرقا، ومن شواطىء البحر الأبيض المتوسط شمالا الى رأس الرجاء الصالح جنوبا.

ورغم ان الدول الاستعمارية الاوروبية ــ خاصة فرنسا وبريطانيا ــ كانت هي رسميا صاحبة النفوذ في هذه المنطقة، فإن نتائج الحرب العالمية الثانية قد أتاحت لأمريكا أن تلعب مباشرة دور المهيمن الأكبر وصاحب النفوذ الأعظم. وطبقا لقواعد الوراثة فقد تنحى النفوذ الاوروبي لصالح النفوذ الامريكي في الشرق الاوسط وافريقيا، خاصة وان البترول تفجر بشكل خرافي في منطقة الخليج العربي وشبه الجزيرة وإيران، كما تفجر فيما بعد في شمال افريقيا وغربها خاصة في ليبيا ونيجيريا.

ومثلما كانت شركات التعدين الاوروبية هي الحاكمة فيما قبل في افريقيا، أصبحت شركات البترول الامريكية هي الحاكمة الجديدة.

غير ان افريقيا والشرق الاوسط شهد منذ منتصف الخمسينات وبداية الستينات مرحلة انفجار حركات التحرير وثورات الاستقلال الوطنية، التي اندفعت بعنف ضد الاحتلال والاستغلال الاجنبي لثروات البلاد، وفجرت مشاعر الغضب ضد المحتلين والمستغلين الأجانب بشكل عام والأوروبيين بشكل خاص. وزلزلت الأرض

تحت أقدام الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الظالمة، مطالبة بتغييرات أساسية ليس فقط في مظهر الاستقلال السياسي، بل أيضا في مجال العدالة الاجتماعية والاقتصادية، لاحداث توازن في حالة الخلل التي خلفتها عهود الاستعمار والاستغلال الاجنبي.

هنا يجدر رصد عدة ملاحظات أساسية:

* كانت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ المصرية من المشاعل الرئيسية التي ألهبت الكفاح الوطني التحرري في افريقيا والشرق الاوسط، ورفعت شعارات التحرر وخاصة في الميدان السياسي والاقتصادي.
ولقد أفادت حركات التحرير العربية والافريقية من هذه المبادىء والشعارات خلال الخمسينات والستينات، بل انها استمدت منها الجرأة على مواجهة الاحتكارات العالمية بصلابة، بعد نجاح الثورة المصرية في تأميم قناة السويس في عام ١٩٥٦.
وخرج الاستعمار التقليدي بجيوشه ولكنه ترك نفوذه وخاصة في المجالات الاقتصادية وترسباته في المجالات الثقافية والاعلامية.

* وفي مواجهة جلاء جيوش الاحتلال الاوروبي عن الدول «المستقلة حديثا» خرجت امريكا بعدة مبادىء جديدة لترث مناطق النفوذ هذه دون أن تلطخ وجهها بقناع الاستعمار القبيح، ولتحتوي عنف الثورات. خرجت مثلا بمبادىء المعونة المتبادلة والنقطة الرابعة. لكن أخطر ما خرجت به نظرية «ملء الفراغ» الذي خلفه جلاء الاستعماريين الاوروبيين عن الشرق الاوسط وافريقيا. ونظرية ملء الفراغ هذه كانت تقضي باقامة أحلاف عسكرية وسياسية جديدة تضمن لها الهيمنة وتحفظ مصالحها

الاستراتيجية، خاصة في حصار الاتحاد السوفيتي بسلسلة من هذه الأحلاف، وفي ضمان تدفق معادن وبترول الشرق الاوسط وافريقيا الى أوروبا وأمريكا.

كانت جرأة حركة التحرر العربية والثورة المصرية في مواجهة واحباط نظرية الفراغ والاحلاف الجديدة نموذجا فذا ساعد الى حد كبير في التصدي لمثل هذه النظريات الامريكية الحديثة والخبيثة معا.

* * برغم فشل نظرية الأحلاف العسكرية والسياسية التي أرادت بها الولايات المتحدة تطويق السوفيت وفي نفس الوقت تقييد العرب والافريقيين وتكبيلهم، بعد رحيل الاستعمار الاوروبي فإن الاحتكارات الاقتصادية والنفوذ الفكري والجاذبية اللامعة لوجه الولايات المتحدة الجديد والنشاط السري لوكالة المخابرات التي اطلقت امريكا يدها في المنطقة، استطاع كل ذلك في النهاية ان يضمن للنفوذ الامريكي سيطرة واستقرارا طويلين واستنزافا أطول وأعمق لثروات الشعوب.

* * يضاف الى كل هذه العوامل مصاعب أخرى تركها الاستعمار التقليدي عمدا قبل أن يرحل، وشجعتها خلافات القوى العظمى الجديدة وتضارب مصالحها. واعني بذلك مثلا خلافات الحدود بين الدول العربية والافريقية، فليست هناك دولتان متجاورتان في القارة الافريقية والشرق الاوسط الا بينهما نزاع على الحدود، فقد نجح الاستعمار الاوروبي في تمزيق المنطقتين إربا إربا وتفتيت كياناتها القومية وتشتيت شعوبها ذات الأصول العرقية والحضارية والثقافية الواحدة الى عدة دول وكيانات سياسية متعادية ومتنافرة.

بالاضافة الى ذلك فقد نجح الاستعمار القديم والجديد على

السـواء في زرع وتـنـمـيـة كـيـانات عنصرية لتقوم بدور المراوة الـغليظة عند اللزوم، مثل النموذج الاسرائيلي والروديسي والجنوب الافـريقي، كلها نماذج لعبت دورها المرسوم لها لصالح الاستعمار الـقـديـم والجـديـد في الـشـرق الاوسط وافريقيا وزرعت الحروب والعداوات وعدم الاستقرار، لتضمن القوى المستفيدة دوام نفوذها وبقاء مصالحها وتدفق أرباحها.

** ثمـة عـنـصـر أسـاسي آخـر هـو سـريـان الـروح الـقـومية في المنطقة الافـريـقـيـة وفي الامـة الـعـربية، وهي الروح التي تصاعدت في أعـقـاب الحـصـول على الاستقلال وادراك شعوب المنطقة لضرورة اسـتـكـمـال هذا الاستقلال من كافة جوانبه، وخاصة من جانبه الاقتصادي حتى تضمن استغلال ثرواتها لصالح أبنائها.

وفي هـذا الصدد أيضا لعبت فكرة القومية العربية والثورة المصرية دورا مـلـحوظا في اذكاء الروح القومية في افريقيا والوطن العربي على السواء.

ولقد اتجهت هذه الروح الى ضرورة تحقيق الاستقلال الاقتصادي والـثـقـافي اكـمـالا لـلاسـتـقـلال السياسي، والى ضرورة احداث تغييرات جذرية في توزيع الدخول والثروات الوطنية لمواجهة الفقر المنتشر عند القاعدة والحد من الثراء الفاحش عند القمة المتميزة.

كـمـا اتجـهـت أيـضـا الى سياسة جديدة هي عدم الانحياز التي حـاولـت احـداث نـوع مـن التوازن بين استقطاب القوى العظمى المتـصـارعة ولـم يـكـن كـل ذلك مـرضيا للقوى الدولية القديمة والجديدة على السواء.

* * * * *

(٢) الدرس المصـــري

بين السوفيت وامريكا:

امـام كـل الملاحظات التي رصدناها سالفا، فقد تلفت العرب اولا ثـم الافـريقيون فيما بعد يمينا و يسارا بحثا عن حليف أو صديق جديد ينقذهم من هذه الشباك الخداعية المنتشرة.

وقـد اتجهـت دول كـثيـرة في هـذه المنطقة الى الاتحاد السوفيتي، بـوصـفـه دولـة كـبـرى قـادرة على تحقيق التوازن مع الولايات المتحدة، ولـيـس لهـا تـاريخ استعماري بالمعنى التقليدي المباشر للكلمة. ورحب الاتحـاد الـسـوفـيتي بالفرصة لكي يخفف من النفوذ الامريكي في ميدان التسليح والمعونات الاقتصادية.

ولـقد دخل الاتحاد السوفيتي الى المنطقة لاول مرة عمليا من الباب المـصـري، عـنـدمـا وقـعـت مصر معه عن طريق تشيكوسلوفاكيا اتفاقية الـتـسـلـيـح الاولى عـام ١٩٥٥ لـكسر الاحـتـكـار الامريكي الاورو بي للسلاح ولمواجهة القوة الاسرائيلية الباطشة الجديدة.

ولـقد جرت هذه الاتفاقية اتفاقيات أخرى تنوعت بين المجالات الـسـيـاسـيـة والـعسكرية والاقتصادية والثقافية، ووصلت الى حد توقيع معاهدة صداقة كانت سابقة من نوعها، في اعقاب وفاة الرئيس الراحل جمـال عـبـد الـنـاصر، وان لم تدم هذه المعاهدة سوى فترة قصيرة، ولم تنفذ بنودها عمليا.

ومـن جـهـة أخـرى فـإن انـدفـاع الغرب الامريكي والاورو بي نحو تسليح اسرائيل وتمويلها لتكون قاعدة عسكرية وترسانة قوية تلهب ظهر الـعـرب وتـكسر شـوكـة الحـركـة التحررية العربية، زاد من اتجاه الثورة

المصرية الى الاتحاد السوفيتي بوصفه القوة الكبرى المضادة للغرب.

ولقد كانت هزيمة مصر والعرب في عام ١٩٦٧ امام اسرائيل ايذانا ببدء مرحلة جديدة من انتشار النفوذ السوفيتي في مواجهة انتشار النفوذ الامريكي في البحر الابيض والشرق الاوسط، ثم جنوبا الى القرن الافريقي عبر البحر الاحمر، الذي دخله السوفيت وتواجدوا فيه باسطولهم لاول مرة، بفضل التسهيلات البحرية التي قدمتها لهم مصر خلال عصر الوفاق المصري السوفيتي. ولكن ينبغي ان نذكر من جهة اخرى ان حرب ١٩٦٧ قد خلفت وراءها عدة متغيرات وحقائق سياسية هامة،منها:

أولا: تركت مصر قلب الأمة العربية في حالة انكسار وضعف شديد نتيجة للهزيمة العسكرية السريعة والحاسمة امام الجيش الاسرائيلي في سيناء.

ثانيا: اراد الغرب الاوروبي الامريكي تلقين الثورة المصرية درس العمر بهذه الهزيمة المريرة، والانتقام لكل مافعله عبد الناصر ضد مصالح الغرب ابتداء من حملة العداء تحت شعار القومية العربية، ومرورا بتأميم وتمصير الاحتكارات الاقتصادية الغربية، وانتهاء بفتح الباب للسوفيت ليضعوا اقدامهم لاول مرة على ارض الشرق الاوسط وافريقيا، وليسبحوا بأساطيلهم في المياه الدافئة سواء في البحر الأبيض المتوسط، أو البحر الاحمر.

ثالثا: امام استمرار سياسة الحصار التي فرضها الغرب على الثورة المصرية، وامام نتائج هزيمة ١٩٦٧ التي فقد فيها الجيش المصري اسلحته اندفعت مصر اكثر الى احضان السوفيت، اولا للحصول على تأييدهم السياسي في مأزقها الراهن، وثانيا

لتعويض كميات الاسلحة الهائلة التي فقدتها القوات المسلحة خلال الحرب الخاطفة، وثالثا للحصول على اسلحة حديثة تستطيع اعادة توازن القوى العسكرية مع اسرائيل، التي كانت قد حصلت من امريكا واوروبا على احدث انواع الاسلحة في العالم كله.

ولقد ادى كل ذلك الى تدفق الخبراء السوفيت على مصر وبالتحديد في مرحلة حرب الاستنزاف التي تلت هزيمة ١٩٦٧، بهدف تدريب الجيش المصري وتحديثه، خاصة في ظل وصول اسلحة معقدة مثل نظم الصواريخ والطائرات الحديثة، وكذلك بهدف تولى حماية العمق المصري في مواجهة الغارات الاسرائيلية، ولكى يتفرغ الجيش المصري لجبهة قناة السويس.

وظل نفوذ السوفيت وعدد خبرائهم يتصاعد في مصر، حتى بلغ ١٧ ألف جندي وخبير عسكري في عام ١٩٧٢، عندما وصل توتر العلاقات المصرية السوفيتية الى ذروة تصاعده، وصدر قرار الرئيس السادات بطرد هؤلاء الخبراء بشكل مثير ومفاجيء انهى رسميا عهد الوفاق المصري السوفيتي، بعد ان كان قد انتهى ذلك العهد عمليا قبل ذلك.

وفي نفس الوقت افتتح رسميا عهد الوفاق المصري الامريكي، مبتدئا بذلك عصرا جديدا في الاستقطاب الدولي وتغيير موازين التحالفات، لتنتقل مصر من الصداقة مع السوفيت واوروبا الشرقية الى الصداقة مع امريكا واوروبا الغربية، بكل مايمثله ذلك من آثار وانعكاسات على الاوضاع الاستراتيجية في الشرق الاوسط وافريقيا.

ولقد احس السوفيت بالاهانة نتيجة لما تعرضوا له في مصر بعد فقد الثقة المتبادلة بين موسكو والقاهرة، وظل هذا الدرس القاسي الذي تعرضوا له في مصر يحكم كثيرا من تصرفاتهم تجاه دول العالم النامي،

ويغير من سلوكهم، ويعدل تصرفاتهم السياسية والعسكرية، محاولين اولا استرداد هيبتهم الدولية التي عرضها القرار المصري للاهتزاز امام دول العالم، وثانيا تعويض خسارتهم الاستراتيجية نتيجة خروجهم السياسي والعسكري من مصر خاصة حرمانهم من التسهيلات الجوية في المطارات المصرية ومن التسهيلات البحرية في الموانى المصرية على شواطىء البحرين الأبيض والأحمر.

وحتى وقوع الطلاق المصري السوفيتي لم يكن السوفيت قد تمكنوا من التمركز في نقاط استراتيجية هامة وحاكمة في الشرق الاوسط وافريقيا، إلا في قلب القرن الافريقي بالصومال حيث اتخذوا من قاعدة بربرة البحرية الهامة نقطة تمركز وانطلاق، على اساس القدرة على الامساك بعنق البحر الاحمر من الجنوب عند بربرة، بالاضافة الى تأمين علاقات الصداقة مع اليمن الديموقراطية الراديكالية، ومن الشمال عند الموانى المصرية في البحرين الاحمر والابيض..

وبين نقطتي التمركز والتواجد السوفيتي شمالا وجنوبا، كان الاسطول السوفيتي يسبح بحرية مطلقة وتتزايد قطعه الى حد كبير، مطمئنا إلى مرافىء صديقة وتسهيلات كبيرة في مياه البحرين الابيض والاحمر، ثم انتشر جنوبا الى مياه المحيط الهندي بكثافة ملحوظة لاول مرة اقلقت الغرب الاوروبي الامريكي قلقا مزعجا.

مقابل ذلك وباستثناء التمركز السوفيتي شمالا في مصر وجنوبا في الصومال كان النفوذ الغربي، والامريكي بشكل خاص، مطمئنا هو الآخر الى تفوقه في اهم نقاط التحكم الاستراتيجي الأخرى، دون مضايقة حقيقية من السوفيت الذين كانوا حتى تلك المرحلة بعيدين عمليا عن نقطة الاقتراب الخطر والقاتل من البترول.

لكن تواجدهم عند نقطتي الشمال المصري والجنوب الصومالي، كان بالطبع يقلق الغرب الاوروبي الامريكي ويثير مخاوفه من التوسع السوفيتي عند اطراف بحيرات البترول وبقرب طرق مروره.

وفي ظل الصراع الاستراتيجي بين القوتين العظميين ــ امريكا والاتحاد السوفيتي ــ عمل كل منهما على تأكيد تواجده السياسي والعسكري ونشر نفوذه الاقتصادي والثقافي والعقائدي في كل منطقة تدخل في اطار «اختصاصه»،لذلك كان خروج السوفيت من مصر في عام ١٩٧٢ هزيمة مضاعفة لهم وانتصارا مضاعفا للامريكيين.

ومن هذا المفهوم اندفع الامريكيون لتأكيد انتصارهم في الشرق الأوسط، واندفع السوفيت لتعويض هزيمتهم، فاتجهوا جنوبا الى افريقيا، كما اتجهوا لتدعيم علاقاتهم بكل من سوريا والعراق والفلسطينين ــ رغم وجود خلافات نظرية وسياسية معهم ــ لكن اتجاه تعويضهم الاساسي تركز على تغيير استراتيجية مواجهة التحرك الدولي لكل من امريكا واوروبا الغربية.

لقد كان الدرس الذي تلقاه السوفيت في مصر محركا لتغيير الاستراتيجية السوفيتية ــ أو هكذا يبدو الأمر على الأقل ــ فبدءوا التركيز على الانتشار عالميا في المياه واليابسة البعيدين على السواء، وتميز هذا الانتشار بسرعة الحركة وقوة اللياقة ومرونة التلبية، لتثبت الدولة السوفيتية وجودها الدولي في مواجهة الوجود الامريكي الاوروبي السائد في العالم.

وسرعان مارأينا نجاح تطبيق هذه الاستراتيجية المرنة الجديدة في النزول السوفيتي الكوبي الثقيل خلال عام ١٩٧٥ في انجولا، وهو النزول الذي حسم معركة استقلال هذه البلاد لصالح الجناح

الراديكالي بها ولصالح المعسكر الاشتراكي نفسه.

ومن انجولا في غرب افريقيا انتشر الوجود السوفيتي والكوبي خاصة في عديد من دول القارة تحت غطاء الاتفاقات والمعاهدات والمساعدات، وهو نفس الغطاء الذي يستخدمه الغرب الاوروبي الامريكي، حتى اصبح الانتشار الكوبي وحده قائما في ١٤ دولة افريقية.

لكن الضربة السوفيتية الرئيسية تحققت، بعد انجولا غربا، في القرن الافريقي شرقا.

ففي ظل سيطرة الجناح العسكري الراديكالي بقيادة الكولونيل مانجستو هايلى ماريام على نظام الحكم الجديد في اثيوبيا، بعد اسقاط هيلاسي لاسي في عام ١٩٧٤، وفي مواجهة المتاعب التي واجهها هذا النظام في كل من الاوجادين وارتريا، تمكن السوفيت والكوبيون من التدفق على اثيوبيا بكثافة واضحة مشكلين «حزاما اشتراكيا» يحزم القارة الافريقية من انجولا غربا الى اثيوبيا شرقا.

ولقد حاول السوفيت ـ ضمن خطة استراتيجية طموحة ـ الاحتفاظ بحصانين نفورين يجريان في اتجاه مضاد ، حاولوا الاحتفاظ بصداقتهم القديمة مع الصومال وتواجدهم في بربرة، وفي نفس الوقت الاحتفاظ بصداقتهم الجديدة مع اثيوبيا وتواجدهم في عصب ومصوع، على اساس تشكيل جبهة يسارية تربط هؤلاء باليمن الديمقراطية شرقا عبر باب المندب، وبذلك تكتمل لهم خطة احكام الحصار الهام على المداخل الجنوبية للبحر الاحمر، طريق مرور البترول الحيوي، وكذلك خطة اثبات الوجود السوفيتي الفعال بقرب مناطق استخراج البترول في الخليج العربي وايران والجزيرة العربية، الامر الذي يهدد المصالح

الحيوية للغرب الاوروبي الامريكي الذي طالما انفرد وحده باستغلال هذه الثروة الهائلة دون مضايقة أو اقتسام بالاضافة الى حصول السوفيت على ميزة أخرى شرق مناطق البترول، هي تواجدهم في افغانستان، وخاصة بعد عام ١٩٧٨.

(٣) مفهوم اوسع للأمن القومي:

برز تعبير الامن القومي على الصعيد السياسي واضحا في العصر الحديث، وارتبط بالاحداث العسكرية على وجه الخصوص وبالتوازنات الاستراتيجية وصراعات القوى. (٦٤)

غير ان النصف الثاني من القرن العشرين ابرز الى الوجود تهديدات جديدة لحياة الانسان حتمت بروز مفاهيم جديدة للامن القومي اتسعت مجالاتها وتعمقت اتجاهاتها. وهي تهديدات ترتبط بالعلاقة الوطيدة بين الانسان والطبيعة ذاتها. ففي دول العالم الثالث يشكل زحف الصحراء مخاطر اعظم من الغزو العسكري، والانفجار السكاني يمكن ان يدمر العلاقة بين الانسان والبيئة التي يسكنها ويمزق هيكلها الاجتماعي. كما انه بالنسبة للدول الصناعية المتقدمة يشكل النضوب السريع المتوقع لاحتياطيات البترول تهديدا للامن القومي

(٦٤) كتب فرانكلين هديل كبير خبراء مكتبة الكونجرس الامريكي تعريفا جديدا هو «الامن معناه يفوق مجرد السلامة من غزو اجنبي، انه يتضمن ضرورة المحافظة على نظام مستقر للحضارة».

أخطر من التهديدات العسكرية التقليدية.(٦٥)

ومن الطبيعي أن تتكون هذه التهديدات الجديدة نتيجة الضغط البشري المتزايد على طبيعة الارض التي نعيش عليها، سواء بشكل مباشر أو غير مباشر مثل نقص المواد الغذائية ومصادر الطاقة وتغيرات الاحوال الجوية، وكلها تترجم الى ضغوط اقتصادية على المجتمعات البشرية مثل التضخم والبطالة ونقص رأس المال الامر الذي يؤدي في النهاية الى قلق واضطراب اجتماعي يعقبه توتر سياسي وعدم استقرار عسكري.

وفي مواجهة مثل هذا التهديد الحديث، فان الترسانات العسكرية الحديثة باسلحتها التقليدية والنووية لا تستطيع ان تحل وحدها هذه المآزق الاجتماعية والسياسية، ولا تستطيع ان تخفف ازمات نقص الغذاء والوقود او توقف تزايد ازمات البطالة المقنعة والعلنية.

والذي يهم العرب في هذا المجال هو ان تصاعد عمليات استنزاف البترول من جانب شركات الاحتكار الغربي اصبح يشكل تهديدا مباشرا للامن القومي العربي من ناحية، كما ان النضوب النهائي لهذا البترول او انقطاعه لفترة محدودة يشكل تهديدا للامن القومي للدولة المستهلكة من ناحية اخرى.

ولذلك فان على منتجي البترول ومستهلكيه الاستعداد والتأهب من الآن لمواجهة حالات النضوب السريع او الخطر المؤقت، حتى لا يقع تهديد صريح للامن القومي لاحد الطرفين، يؤدي في النهاية الى اضطرابات اجتماعية وسياسية، تعقبها تدخلات او مصادمات عسكرية

(٦٥) اعادة تعريف الامن القومي ـ بحث كتبه لستر براون رئيس مؤسسة «ورلدواتش الامريكية ونشرته «فورين سيرفيس جورنال» ١٩٧٨.

طاحنة. ولقد اطلق هارولد براون وزير الدفاع الامريكي خلال تصاعد ازمة الطاقة في الولايات المتحدة تعبيرا له مغزاه الواضح عندما قال: ان النقص الحالي في مصادر الطاقة يمثل اكبر تهديد يفرضه المستقبل على الامن القومي الامريكي وكذلك على أمن حلفائنا.

ومع تصاعد استنزاف البترول وتعقد استخدام الوقود النووي لانتاج الطاقة، ونقص الفحم في الوقت الراهن، فان الحاجة ماسة الى ان تعمل كل دول العالم على تلافي ازمة خانقة تؤدي الى تهديدات عسكرية مباشرة للامن القومي لكل منها، وتمهد للانتقال الى عصر جديد ينتج مصادر جديدة للطاقة غير البترول الذي يشكل المصدر الرئيسي لها اليوم، حتى لا تؤدي الضغوط الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الناشئة عن هذه الازمات الطاحنة الى تعريض الامن القومي كله للخطر البالغ، بالاضافة الى نقص الغذاء الواضح المعالم في عالم اليوم.

ومن الواضح كذلك ان السبعينات شهدت اختناقا اقتصاديا دوليا اثر على الكتل الدولية الثلاث: الرأسمالية، الشيوعية، النامية، وتركها في موقف بالغ الحساسية ابرز معالمه الاقتصادية تسجيل أعلى نسبة بطالة خلال الخمسين عاما الاخيرة واعلى نسبة تضخم مضاعف في التاريخ، مع ماصاحب ذلك من انعكاسات اجتماعية وقلق سياسي وتوتر عسكري خطر. ولا شك ان هذه الازمات الاقتصادية المهددة للامن القومي، اذا استمرت في المستقبل بنفس نسبة السبعينات، فان المجتمعات البشرية الحالية سوف تواجه خلال العقد القادم مأزقا ضاغطا ومتفجرا.

فالضغوط الاقتصادية المتصاعدة بهذا الشكل ستعجل بزيادة حدة الانشقاق والتمزق الاجتماعي، وبالتالي زيادة التوترات السياسية

والعسكرية الضاغطة.

إن التهديدات الجديدة للامن القومي اصبحت معقدة بشكل غير عادي، و يدرك علماء البيئة ان تدهور العلاقة بين سكان العالم ــ ٤ بلايين نسمة ــ والنظم البيولوجية للقشرة الارضية لا يمكن ان يستمر، لكن على الزعماء السياسيين ان يدركوا المغزى الاجتماعي لهذا الموقف.

ورغم كل ذلك فان التهديدات غير العسكرية ــ مثل النوع الذي ذكرناه سالفا ــ مازالت بعيدة عن ان تنال الاهتمام الدولي الذي تستحقه، بينما تستمر النظم السياسية مندفعة حتى اليوم في التركيز على التهديد العسكري وحده، وهو التركيز الذي يستنزف الميزانيات الضخمة والجهود البشرية المتقدمة، التي يجب ان تنصرف لمواجهة المخاطر الجديدة المهددة للامن القومي.

ولذلك فان معالجة قضية الامن القومي الآن لا تتطلب التركيز المطلق على العمل العسكرى واعطاء الاولوية الاساسية للانفاق العسكرى، بل تحتم الانفاق الاوسع على الاصلاح الاقتصادى والاستقرار الاجتماعي وتلبية احتياجات الشعوب، خاصة الفقيرة والنامية، واعادة ترتيب الاولويات، وتوزيع الدخول بشكل لا يضمن النمو فحسب، بل يضمن العدالة ايضا، وبمفهوم يؤمن بأن القوة العسكرية وحدها ــ مهما عظمت ــ لا تضمن الامن القومي لشعب يعاني من التخلف والفقر وعدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي ولا يجد النظم التي تلبي متطلباته الأساسية.

وإذا عدنا الى الواقع العربي الذي تنطبق عليه اكثر من غيره تلك التهديدات والمخاطر الجديدة لمفهوم الامن القومي فاننانقول: بداية ان

العرب ـ رغم كل مابينهم من عوامل اتفاق وتوحيد اكثر مما بينهم من عوامل اختلاف وتفريق ـ مازالوا قاصرين عن تحديد مفهوم موحد لنظرية امن قومي عربية محددة، وهذا القصور راجع الى عوامل داخلية كامنة في العرب انفسهم باختلاف نظم حكمهم وسياساتهم المتضاربة وأهوائهم المتناقضة، والى عوامل خارجية تلعب فيها القوى الدولية دورا اساسيا، لتشجيع التمزق العربي وبث الفرقة واثارة المنازعات والخلافات، حتى تتمكن تلك القوى من تحقيق مصالحها السياسية والاقتصادية بشكل خاص في المنطقة العربية.

ورغم القصور العربي عن الاتفاق على مفهوم موحد للامن القومي، فإنه يمكن القول إن المفهوم العام هو كالآتي:

يهدف الامن الوطني للدولة الى تأمينها من الداخل، ودفع التهديد الخارجي عنها، بما يكفل لشعبها حياة مستقرة توفر له استغلال اقصى طاقاته للنهوض والتقدم والازدهار. فاذا ماتشابكت مصالح عدة دول، او تماثلت الاخطار التي تحيط بأمة وتشابهت آمالها، فإن اهتمامها ينصب عندئذ على تنسيق ركائز تأمينها من الداخل، ودفع التهديد المحتمل ضدها من الخارج، في صيغة أمن قومي تسهم فيه تلك الدول او الشعوب فرادى لتحظى جميعا بالاستقرار والتقدم والازدهار. (٦٦)

ولو حاولنا تطبيق هذا المفهوم البسيط لنظرية الامن القومي على سياسات الدول العربية المنتشرة من حول البحر الاحمر وعلى مشارف القرن الافريقي، لوجدنا أن المحصلة النهائية ضعيفة وتكاد عمليا تقترب من نقطة الصفر، خلال سنواتنا المعاصرة، وان كانت سنوات القرن السادس عشر قد شهدت نتائج افضل، تبلورت خلالها «نظرية

(٦٦) الامن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه ـ لواء عدلي حسن سعيد.

امن مـا» لمياه البحـر الاحمر وبحر العرب والخليج العربي والمحيط الهنـدي بشكـل عـام. ذلك أن التوسع الاستعماري الاوروبي الذي صاحب عصر «الكشوف الجغرافية الحديثة» في بدايات القرن السادس عشر الميلادي، قد فتح الطريق البحري امام البرتغاليين، الذين اكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح، ومن خلال اجتيازه استطاعوا ــ وهم القادمون من الغرب عبر الاطلنطي ــ ان يصلوا الى المحيط الهندي وبحر العرب ومداخل الخليج العربي والبحر الاحمر ذاته.

وساعتها احس العرب ان الخطر الخارجي بات يهدد تحكمهم في طريق التجارة الرئيسي بين الشرق والغرب، والذي يمر عبر اراضيهم ومياههم، خاصة عبر البحر الاحمر إذ أن أحد الاهداف الرئيسية للكشوف والتوسعات البرتغالية كان تحويل التجارة العالمية عن هذا الطريق الذي تتحكم فيه الشعوب العربية والاسلامية، وتثرى من ورائه وبالتالي تدعم مركزها الدولي.

ولقد حاول العثمانيون، الذين كانوا قد اجتاحوا المنطقة العربية في القرن السادس عشر ايضا، ان يتصدوا للتوسع البرتغالي الهادف الى تحويل طرق التجارة العالمية الى رأس الرجاء الصالح، عندما طالبوا بمنع مرور سفن الاسطول البرتغالي وغيره من الاساطيل غير المسلمة في مياه البحر الاحمر، لانه يطل مباشرة على الاراضي الحجازية المقدسة عند المسلمين (٦٧)

وفي هذا الاطار ظل الصراع على مداخل البحر الاحمر من القرن الافريقي جنوبا الى السويس شمالا قائما بين قوتين اساسيتين، هما القوة الاستعمارية الاوروبية الجديدة بزعامة البرتغال، والقوة الاسلامية

(٦٧) الدولة العثمانية والشرق العربي ــ الدكتور محمد انيس

بزعامة العثمانيين. الا ان الصراع ازدادت حدته فيما بعد نتيجة لدخول عناصر اخرى فيه، اهمها بالطبع دخول الامبراطوريتين البريطانية والفرنسية اللتين تسابقتا بضراوة على السيطرة على طريق التجارة العالمية ونقاط التحكم فيه خاصة عبر البحر الاحمر الذي وصفه جوزيف تشمبرلين بأنه «وتر بريطانيا الحساس».

وبينما ظل وتر بريطانيا الحساس تحت الحماية البريطانية في مواجهة الاطماع الدولية الاخرى، غابت نظرية الامن العربي بالطبع واختفت من الوجود، ذلك لان معظم العرب كان واقعا إما تحت الاحتلال البريطاني أو الفرنسي في ظل سياسة تقسيم مناطق النفوذ.

ولكن نظرية الامن القومي العربي انتعشت بقيام الثورة المصرية في عام ١٩٥٢، التي جاءت للمنطقة بصحوة جديدة في الافكار والعقائد، وبالتالي في السياسات والمواجهات، الامر الذي اشعل الروح القومية العربية من ناحية، كما اشعل الروح العدائية الاوروبية والامريكية من ناحية اخرى.

وهنا يجدر التوقف عند محاولتين لاحياء نظرية الامن العربي، ووضع استراتيجية دفاعية عن البحر الاحمر خاصة عند مداخله الجنوبية المنفتحة على مياه المحيط الهندي والقرن الافريقي.

* * * * *

(٥) المحاولة الأولى
ميثاق جـــدة:

كما قلنا، جاءت الثورة المصرية بفكرة احياء القومية العربية، وبث روح التضامن العربي في مواجهة تلك المخاطر والمطامع الاجنبية

المتكالبة بصراع العنف على الامة العربية باقطارها المشتتة، والواقعة حتى الخمسينات تحت الاحتلال.

وفي نطاق هذه الجهود المصرية حاولت القاهرة منذ عام ١٩٥٥ التصدي بقوة للاحلاف الاجنبية التي كانت دول الاستعمار الاوروبي الامريكي تحاول فرضها على الدول العربية، وذلك عن طريق المواجهة السلبية والايجابية معا.

وتمثلت المواجهة السلبية في عدم الانضمام الى هذه الاحلاف الاجنبية، ومقاطعتها بل شن حرب نفسية وسياسية ضدها، وصلت ذروتها الى اسقاط حلف بغداد فيما بعد، بينما تمثلت المواجهة الايجابية في دعوة القاهرة لتدعيم التضامن العربي ـ سواء داخل نطاق الجامعة العربية أو خارجه ـ عن طريق عقد اتفاقيات ثنائية أو اكثر بينها وبين العواصم العربية الاخرى، لمواجهة الاطماع الاجنبية. وكان من ابرز نتائج هذه الجهود: عقد مؤتمر ٨ فبراير ١٩٥٥ بالقاهرة والذي حضرته كل من مصر وسوريا والاردن والسعودية واليمن، ثم الاتفاق المصري السوري في ٣ مارس من نفس العام بدمشق والذي انضمت اليه السعودية بعد يومين فقط، ليؤكد ضرورة انشاء قيادة مشتركة وعدم الانضمام لأية احلاف اجنبية أو عقد اتفاقيات عسكرية دولية، ثم الاتفاق العسكري بين مصر والسعودية في ٢٧ اكتوبر ١٩٥٥ للدفاع المشترك بينهما ضد أي عدوان خارجي.

ولقد جاء توقيع ميثاق جدة في ٢١ ابريل ١٩٥٦ كمعاهدة دفاع عربي مشترك بمثابة تتويج لهذه التحالفات الثنائية أو الثلاثية. الا ان ميثاق جدة تميز بعدة أشياء منها:

(١) ان الدول الثلاث الموقعة عليه وهي مصر والسعودية والمملكة

المتوكلية اليمنية، تقع كلها على سواحل البحر الاحمر وتتحكم بشكل مافي مداخله الشمالية المطلة على خليج العقبة والبحر الابيض المتوسط عبر قناة السويس، وفي مداخله الجنوبية المطلة على المحيط الهندي عبر مضايق باب المندب.

(٢) ان الزعماء الثلاثة الموقعين عليه: جمال عبدالناصر والملك سعود والامام أحمد قد اتفقوا في مناقشاتهم وقراراتهم لاول مرة على نص محدد يعكس الرغبة في اقامة «نظام أمن مشترك» لتأمين سلامة واستقلال بلادهم سواء في البحر أو الارض، باعتبار ان الدول الثلاث تطل على مياه البحر الاحمر.

(٣) ان الدول الثلاث التزمت في مواجهة أي تهديد لأراضيها أو مياهها أو التعرض لمنازعات دولية، أولا «بالطرق السلمية» كما جاء في المادة الاولى من الميثاق، ثم بالطرق العسكرية ثانيا، كما نصت المادتان الثانية والثالثة.

واذا كان ميثاق جدة قد جسد لاول مرة بهذا الشكل اتفاقية عربية تعكس «موقفا استراتيجيا محددا» لثلاث دول تطل على مياه البحر الأحمر، وتتعهد بحماية أمنه، فان الميثاق بما حمله من امكانيات التضامن العربي، سرعان ماانهار وضاع في زحام الاحداث العربية والدولية التي وضعت الدول الثلاث المتعاقدة في موضوع التعارض والتناقض، بل وصل الامر فيما بعد الى حد «الحرب» كما رأينا في حرب اليمن التي شهدت تورط الاطراف المتعاقدة الثلاثة طبقا لميثاق جدة في هذه الحرب بعضها ضد بعض، وليس اتفاقها ــ كما نص الميثاق ــ لمواجهة الأخطار الخارجية والتهديدات الأجنبية، كقوة موحدة خاضعة لاتفاقية دفاع مشترك.

* * * * *

(٦) المحاولة الثانية
مؤتمر تعـــز:

وبفشل ميثاق جدة وتحطيمه على صخور اليمن الوعرة، خلال التورط الثلاثي لمصر والسعودية والاطراف اليمنية المتصارعة، تفتتت الجهود والمحاولات العربية للاتفاق على استراتيجية موحدة لحماية البحر الاحمر بمداخله الجنوبية والشمالية.

الا ان حرب اليمن ــ التي انتهت عمليا ببدء الاستعداد لحرب ١٩٦٧ ــ قد خلفت نتائج هامة وخطيرة مثلما خلفت مرارات قاسية.

فما كاد الجيش المصري يخرج من عملية اليمن بعد سنوات طويلة من الانهاك والاستنزاف حتى سقط في مصيدة حرب ١٩٦٧، التي تكالبت الدول الاوروبية وامريكا مع اسرائيل لاعدادها للقضاء على المد العربي الواسع الذي قادته الثورة المصرية.

غير ان الفترة التي اعقبت هزيمة ١٩٦٧ مهدت الطريق من جديد لكي يفتح العرب عيونهم بشكل جاد على حقيقة المخاطر الاجنبية التي تحيط بهم، وعلى حقيقة المطامع التي تتركز اساسا حول خطة الغرب الاوروبي الامريكي لضمان شيئين رئيسيين هما:

(١) تدعيم اسرائيل ــ القاعدة الغربية المتقدمة في الشرق الاوسط ــ بكل وسائل التدعيم الاقتصادية والعسكرية والسياسية والنفسية، لتظل الهراوة الغليظة الملهبة لظهور العرب، وعامل التوتر الاساسي الذي يستنزف قواهم بعيدا عن كل مشاريع الوحدة أو التنمية والتقدم.

(٢) بقاء وضمان تدفق البترول من حقوله العربية الغنية الى اسواق استهلاكه في الدول الصناعية: اوروبا وامريكا واليابان.

ومن الواضح ان هناك ارتباطا اساسيا بين الهدفين الغربيين، بين بقاء اسرائيل القوية الباطشة كرجل شرطة غربي، وبين ضمان تدفق البترول العربي الى محتكريه. ولقد بنت الولايات المتحدة الامريكية بشكل خاص استراتيجيتها في التعامل مع العرب من جهة، ومع اسرائيل من جهة اخرى، على اساس هذا الترابط الجذري الواضح.

وخلال العقد الحرج ٦٧ ــ ١٩٧٧، برزت عدة، عوامل ومتغيرات جديدة على الساحة العربية والدولية اعادت للاذهان فكرة الاستراتيجية العربية الموحدة، في ظل نظرية الامن القومي، لحماية مياه البحر الاحمر بمداخله من القرن الافريقي جنوبا الى السويس شمالاً. واهم هذه المتغيرات كانت:

أولا ــ على المستوى الدولي:

اشتداد الصراع الدولي خاصة بين القوتين العظميين ــ امريكا والاتحاد السوفيتي ــ على السيطرة على اهم نقاط التحكم الاستراتيجي وطرق المرور والعبور الدولية، فيما يشبه اعادة توزيع مناطق النفوذ بينهما واقتسام الخريطة الدولية من جديد.

ولقد اقترب هذا الصراع كثيرا خلال ذلك العقد من مواقع الخطر العربية. اقترب من البحر الاحمر ومن القرن الافريقي ومن بحر العرب والمحيط الهندي، اي من مواقع انتاج البترول العربية الاساسية.

وفي هذا الاطار عمدت القوتان العظميان الى تدعيم وجودهما العسكري والمباشر في نقاط الصراع المقتربة من حقول البترول والمطلة على طرق مروره، سواء لحمايتها من جانب، أو لتهديدها من الجانب الاخر. ووجدنا الولايات المتحدة الامريكية مثلا تدعم قواعدها العسكرية في المحيط الهندي في كل من دييجو جارسيا ومالديف

وموريشيوس بالاضافة الى قواعدها في اثيوبيا ــ التي كانت مازالت امبراطورية ــ جنوبا واسرائيل شمالا وايران شرقا قبل ان تقوم فيها الثورة، بالاضافة الى توثيق علاقاتها بالدول العربية المرتبطة سياسيا بها، ومقابل ذلك كان الاتحاد السوفيتي يدعم ايضا وجوده في مصر شمالا ــ خاصة في الفترة من ٦٨ ــ ١٩٧١ ــ وفي كل من عدن والصومال وموزمبيق جنوبا.

ثانيا ــ على المستوى الاقليمي :

شهدت المنطقة ــ في ظل الصراع الدولي المحتدم ــ عدة متغيرات اقليمية هامة، ابرزها حدثت في الجنوب عند مداخل البحر الاحمر وفوق القرن الافريقي. اذ وقع الانقلاب العسكري في اثيوبيا في عام ١٩٧٤ واطاح بالنظام الامبراطوري الاقطاعي، وتدفق السوفيت والكوبيون عليه لحمايته وتوطيده،واشتعلت حرب الاوجادين خلال عامي ٧٧ ــ ١٩٧٨، وارتفعت حدة الحرب الارترية خلال السبعينات، وهما الحربان اللتان شدتا اليهما اطرافا عربية تورطت فيهما بشكل مباشر أو غير مباشر.

فقد وقفت معظم الدول العربية مع الصومال والثورة الارترية في حربهما ضد اثيوبيا الاشتراكية، بينما وقفت دول عربية اخرى ــ خاصة اليمن الديموقراطية وليبيا ــ مع اثيوبيا الاشتراكية في ظل تفسير ايديولوجي ينادي بدعم المعسكر التقدمي.

ولقد ادى كل ذلك في نهاية الامر الى :

(١) حدوث تغيير في موازين القوى الاقليمية المطلة على المداخل الجنوبية للبحر الاحمر وعلى مناطق انتاج البترول وطرق مروره، وحدوث تغير في موازين التحالفات الاقليمية الدولية.

(٢) تمركز القوات السوفيتية والكوبية عند اقرب نقطة استراتيجية ــ تطل على مناطق البترول وطرق مروره ــ وصلت اليها موسكو في تاريخها القديم والحديث، الامر الذي آثار الفزع الحقيقي لاول مرة بشكل عملي عند الدول العربية المنتجة للبترول نتيجة احساسها باقتراب ماسمى (بالخطر الاحمر على الذهب الاسود).

ثالثاً ــ على مستوى الصراع العربي الاسرائيلي :

اذا كانت بداية ذلك العقد ٦٧ ــ ١٩٧٧ . قد شهدت هزيمة العرب القاسية امام اسرائيل، فقد شهد منتصفه تقريبا اول نصر يحقه العرب ضد اسرائيل في عام ١٩٧٣. وقد كان من ابرز عمليات حرب ١٩٧٣ عملية اغلاق مضيق باب المندب في وجه الملاحة الاسرائيلية.

واذا كانت حرب ١٩٦٧ قد اطلقت يد الاجتياح الاسرائيلي واوصلتها عمليا الى السباحة بحرية مطلقة في خليج العقبة والبحر الاحمر عبر باب المندب وصولا الى المحيط الهندي، فان اغلاق مضيق باب المندب في ١٩٧٣ قد اوقف فكرة الاجتياح المطلق في ادمغة العسكريين الاسرائيليين، الامر الذي فرض عليهم اعادة النظر في نظرياتهم السياسية والعسكرية،وكان من اهم ماتنبهوا اليه :

(١) ضرورة توطيد علاقاتهم باثيوبيا، للاستفادة الى اقصى حد من التسهيلات الممنوحة لهم في جزر الساحل الارتري ــ خاصة ارخبيل دهلك ــ لمنع السيطرة المطلقة للعرب على المداخل الجنوبية للبحر الاحمر.

(٢) محاربة فكرة «البحر الاحمر بحيرة عربية» الى اقصى حد، وبالتالي تجنيد القوى الدولية ــ خاصة الولايات المتحدة

الامريكية ــ لمقاومة امكانية التوحد العربي للسيطرة على مياه البحر.

رابعاً ــ على المستوى العربي:

رغم وجود خلافات عربية عديدة بين الدول العربية بصفة عامة، والدول العربية المطلة على البحر الاحمر بصفة خاصة، مثل منازعات جمهوريتي اليمن على السواحل والجزر المتناثرة في مدخل البحر، فان حالة من اليقظة العربية المفاجئة اجتاحت العرب فنبهتهم الى مايجري حولهم، خاصة الصراعات الدائرة للسيطرة على البحر الاحمر، ليس فقط لاسباب جيوبوليتكية معروفة، او فقط لحماية البترول وتدفقه عبر ممراته الاستراتيجية، بل لظهور عنصر جديد، هو امكانية استغلال الثروات الاقتصادية الهائلة الرابضة في اعماق مياه البحر الاحمر، وهي الثروات التي تأكد وجودها وان لم يكشف عنها بعد.

ووسط هذا الخضم المزدحم بالصراعات والاطماع الدولية، اخذ السودان المبادرة للدعوة الى مؤتمر يضم الدول العربية الواقعة على البحر الاحمر، وهو المؤتمر الذي انعقد في تعز باليمن الشمالية في ٢٢ مارس ١٩٧٧، وحضره رؤساء السودان والصومال واليمن الديموقراطية واليمن الشمالية فحسب، بينما تغيبت عنه اهم الدول العربية المطلة على البحر واعني مصر والسعودية، بالاضافة الى الاردن، وهو الغياب الذي افقد المؤتمر اهميته المقصودة واضعف بالتالي نتائجه المتوقعة.

ولهذا السبب انتهى المؤتمر الى مجرد بيان صحفي معمم سجل عقد «اجتماع تشاوري» بين الرؤساء الاربعة جعفر نميري (السودان) وسياد بري (الصومال) وسالم ربيع علي (الذي كان انذاك رئيسا

لليمن الديموقراطية) وابراهيم الحمدي (الذي كان رئيسا لليمن الشمالية). وقال البيان: ان الرؤساء تشاوروا حول تنسيق جهود دولهم مع الدول العربية المقتدرة، في سبيل تطوير مواردها والرقي بشعوبها في اطار التعاون والتضامن العربي. وفي هذا الشأن اتفق على تحرك مشترك. كما تناول الرؤساء الوضع في حوض البحر الأحمر، واتفقوا على ضرورة ان يظل منطقة سلام ووئام، وان تعمل الدول المطلة عليه على تحقيق هذا الهدف بالتشاور والتنسيق فيما بينها. وتحقيقا لوعود فرنسا المتعلقة باعطاء الساحل الصومالي «جيبوتي» استقلاله التام عن طريق الديموقراطية الحقة، يناشد الرؤساء الاربعة فرنسا بمنح جميع المواطنين في الساحل الصومالي حقهم الشرعي في ممارسة الاقتراع على أسس وطنية وديموقراطية، وليس على أسس قبلية، مما قد يؤدي الى التناحر وتهديد الامن والسلام في البلاد وتأزم الموقف في المنطقة.

وأضاف البيان: وقد شدد الرؤساء على أهمية التضامن لمواجهة السياسة العدوانية لاسرائيل والقوى الصهيونية التي تدعمها. واتفق الرؤساء على اهمية استغلال ثروات البحر الاحمر لما فيه خير شعوب الدول المطلة عليه. وتقرر في هذا الشأن تشكيل لجنة فنية مشتركة لاجراء الاتصالات الضرورية اللازمة مع الدول المطلة على البحر الاحمر واعداد الدراسات اللازمة، وان تواصل الدول المشتركة في هذا اللقاء جهودها من اجل عقد لقاء موسع يضم كافة الدول المطلة على البحر الاحمر.

وبهذا البيان العام أجلت نتائج المحاولة الثانية لتحقيق استراتيجية عربية موحدة للبحر الاحمر ومداخله. ورغم ان الفارق الزمني بين

ميثاق جدة في ١٩٥٦ وبين مؤتمر تعز في ١٩٧٧ قد عمر بالمتغيرات السياسية الجديدة، وامتلأ بكل مظاهر الصراعات الدولية حول هذه المنطقة الاستراتيجية، فان السياسات العربية ـ صاحبة المصلحة الاولى ـ ظلت غائبة او هاربة.

ومن الملاحظ هنا أن الدول الاربع التي سارعت للمشاركة في مؤتمر تعز، هي دول تقع على البحر الاحمر من جهة وتطل على القرن الافريقي او تقترب منه بشكل من الاشكال من جهة اخرى. ومن الواضح ايضا ان مشاركتها في هذا المؤتمر كانت تعكس انجذابها بقوة تجاه الصراع المترابط في القرن الافريقي والبحر الاحمر على السواء، الامر الذي يؤكد حتمية الترابط بين المنطقتين وتأثر احداهما بما يجري في الاخرى.

ولقد كان الدافع السوداني للدعوة لهذا المؤتمر هو الاحساس بالخطر الاثيوبي المتحرك تجاه الحدود السودانية، وفوقه الخطر السوفيتي الكوبي المتمركز في جارته الشرقية اثيوبيا ذاتها، وهو الخطر الذي يمثل بالنسبة للسودان تهديدا مباشرا.

وكان الدافع لليمن الشمالية مشابها الى حد كبير، خاصة في ضوء العلاقات الوطيدة التي تربطه بالسعودية. لقد احست صنعاء ان التطويق السوفيتي، بعد نجاح الحكم الاشتراكي في اثيوبيا التي تواجهها غربا عبر مضايق باب المندب وتوطيد اقدام النظام اليساري في شقيقتها عدن، يهدد بالامتداد شرقا الى قلب الجزيرة العربية بما يعنيه

ذلك من تغيرات سياسية واجتماعية واقتصادية على المستوى المحلي والاقليمي، وتغيرات استراتيجية اخرى على المستوى الدولي.

وكان الدافع الصومالي يتحرك من منطلق الصراع التاريخي العميق الجذور مع اثيوبيا. وكان طبيعيا بعد ان تغيرت موازين التحالفات في القرن الافريقي بدعم السوفيت للثورة الاثيوبية، وخلافهم مع الصومال، ان يتجه الصوماليون نحو الغرب والعرب على السواء.

ومن هذا المنطلق كان الامل الصومالي كبيرا في مؤتمر تعز ليضع استراتيجية عربية موحدة للبحر الاحمر والقرن الافريقي، يلعب فيها الصومال بحكم موقعه الجيوبوليتكي دورا اساسيا، يحقق مصالحه الوطنية بالدرجة الاولى، والمصالح القومية للعرب بالدرجة الثانية.

أما دافع اليمن الديموقراطية فكان مختلفا بالطبع، اذ ان النظام الراديكالي الحاكم فيها يهمه بالدرجة الاولى تدعيم الاتجاه الاخر. واعني تدعيم انتشار العقيدة الاشتركية في المنطقة كلها، خاصة وانه يعتبر نفسه «بؤرة الاشتراكية» في طرف الجزيرة العربية، وكان طبيعيا ان يتحالف مع بؤرة الاشتراكية الاخرى في اثيوبيا المواجهة له غربا، بدعم من الحلفاء السوفيت والكوبيين.

ورغم تلاقي او تناقض المصالح والاهداف بين الدول الاربع المشتركة في مؤتمر تعز، فان الخط المحوري الذي دارت حوله اهداف كل منها كان ذلك الصراع الاقليمي الذي يحكم الحركة السياسية في القرن الافريقي وحول سواحل البحر الاحمر، وارتباطه العضوي بالصراع المحتدم بين القوى العظمى، تلك القوى المحركة للصراعات المحلية

والاقـلـيـمـيـة والمجندة لها لخدمة مصالحها الدولية واهدافها الاستراتيجية المتصارعة رغم سريان اتفاقات الوفاق الدولي بينها.

* * * * *

(٧) استقلال جيبوتي
مـــأزق جديـــد:

لاحظنا ان بيان مؤتمر تعز اشار بصورة عابرة ــ لكنها موحية وذات مغزى ــ الى وعـود فـرنـسـا بـاعـطـاء الاسـتـقلال لمستعمرتها في القرن الافريقي، جيبوتي، التي احتلتها منذ عام ١٨٦٢ خلال عصور الصراع الـدولي بيـنـهـا وبين بـريـطانيا على السيطرة على نقاط التحكم ومراكز الـثـقـل الاسـتـراتـيـجـي الـواقـعـة على طريق التجارة الدولية بين الشرق والغرب.

فـفـي اقـل مـن شـهـرين بعد انعقاد مؤتمر تعز، حصلت جيبوتي على اسـتـقـلالها مـن فـرنـسـا بـعـد استفتاء شعبي اجرى في ٨ مايو ١٩٧٧، وصـوت ٩٨٪ مـن شـعـبـهـا الـبـالـغ حـوالي ربـع مـلـيـون نسمة لصالح الاستقلال التام.

ولـقـد انـهـى هـذا الاسـتـفـتـاء ــ الى حد بعيد ــ جانبا من الصراع الـتـقـلـيـدي المحلي بين الصومال واثيوبيا اللتين كانت كل منهما تريد ضـم جـيـبـوتـي الـيـهـا، وهـو الـصراع الذي ترسبت جذوره القبلية بين التيارين القوميين في البلاد:

** تيار العفر و يضم قبيلتين هما « الاسايمرة » « والادو بامرة » و يشكلون ٤٠٪ من السكان طبقا لاخر التقديرات الفرنسية. (٦٨)

** تيار العيسى و يضم هو الآخر ٤ قبائل هي العيسى ـ الدرادو الاباك ـ الفارابورس. وهم يشكلون ٦٠٪ من السكان و يرتبطون بشرياً وتاريخيا بالقبائل الصومالية.

فمنذ أن اعلنت فرنسا اتجاهها لتصفية مستعمرتها في جيبوتي اشتعل الصراع السياسي بين الصومال واثيوبيا، كل منهما يدعي أحقيته المطلقة في جيبوتي. وهو صراع تاريخي قديم، اذ ان الصومال تعتبر ان جيبوتي وخليج تاجورا الذي تطل عليه جزء اساسي من الوطن الصومالي الكبير باقاليمه الخمسة، وجيبوتي هي ذلك الاقليم الخامس الذي يجب ان يعود الى الوطن الأم. والصومال يستند في ذلك الى اسس حضارية ودينية وتاريخية وعرقية قومية ايضا. فالتاريخ يقول ان كل الساحل الصومالي ـ بمافيه جيبوتي واوجادين بالطبع ـ جزء اساسي من الامتداد الجغرافي الطبيعي للصومال، والقبائل التي تسكنه هي ايضا امتداد «عرقي» و بشرى للقبائل الصومالية القديمة، واللغة واللهجات متقاربة ومترابطة كذلك.

بينما الحبشة تصر من ناحيتها على احقيتها في ضم جيبوتي زاعمة انها امتداد جغرافي و بشرى لها وان الامبراطورية تمارس نفوذها على هذا الساحل منذ اقدم العصور، خاصة منذ توسع الامبراطورية وتمددها

(٦٨) يعود اصل العفر تاريخيا الى الهجرات السامية العربية الاولى التي خرجت من الجزيرة العربية، واتجهت الى الساحل الشرقي لافريقيا وقد اختلطت هذه الهجرات السامية مع العناصر المحلية وهي حامية ونتج عن هذا المزيج البشري قبائل العفر الحالية الذين يسمون عادة « الدناكل » المنتشرون في القرن الافريقي بصفة عامة، والذين يرتبطون عاطفيا بقبائل كثيرة في اثيوبيا.

الجغرافي على يد الامبراطور «منليك» ــ ١٨٨١ ــ ١٩١٣ ــ مؤسس اثيوبيا الحديثة.

ولم يكن الصراع على جيبوتي صراعا محليا فحسب بين الصومال واثيوبيا، بل كان كذلك صراعا دوليا بين القوتين العظميين الاساسيتين في القرن التاسع عشر، واعني بريطانيا وفرنسا التي كان لها سبق استعمار جيبوتي والسيطرة على خليج تاجورا، من خلال مجموعة الاتفاقيات التي عقدتها مع سلاطين المنطقة وشيوخها في اعوام ١٨٦٢، ١٨٨٤، ١٨٨٥، ١٨٩٦، والتي كبلت بها هؤلاء الحكام وربطتهم بعجلة الاستعمار الفرنسي، الذي كان ينافس الاستعمار البريطاني في السيطرة على مضايق باب المندب وعلى الساحل الشرقي لافريقيا.

ولقد عقدت الدولتان الاستعماريتان «اتفاقية تفاهم» بينهما في فبراير عام ١٨٨٨ حددتا فيها مناطق نفوذ كل منهما في الساحل الصومالي وخليج تاجورا وجاء فيها مايلي:

(١) تعترف الحكومة البريطانية بالحماية الفرنسية على سواحل خليج تاجورا بما فيها «جزر موسى والباب» الواقعة في الخليج وعلى السكان والقبائل فيها.
(٢) تعترف الحكومة الفرنسية بالحماية البريطانية على الساحل الصومالي ابتداء من شرق خط الحدود الفاصل الى بندر زياد وبالتالي على سكان وقبائل هذه المناطق.
(٣) تتعهد الدولتان بعدم التدخل في اي من المناطق الخاضعة لاحد الطرفين، كما تتعهدان بعدم ضم «هرر» الى مناطق نفوذهما، وان يظل طريق القوافل بين زيلع وهرر مفتوحا لاستعمال الدولتين.

وقد اكتسبت جيبوتي ـ التي تبلغ مساحتها ٢٣ الف كيلومتر مربع مقسمة الى ٥ محافظات هي: جيبوتي وتاجورا واوبوك وصبيح ودخيل، ويسكنها ربع مليون نسمة فحسب ـ أهميتها في الصراع الاثيوبي الصومالي والبريطاني الفرنسي، من مركزها الاستراتيجي المطل مباشرة على مضيق باب المندب، ومن ارتباطها بخط السكك الحديدية الممتد الى اديس ابابا وعليه تنقل اثيوبيا ٨٠٪ من تجارتها الواردة.

وفي ظل هذه الاهمية تصاعدت حدة الصراع بين اثيوبيا والصومال خاصة خلال عامي ٧٦، ١٩٧٧. كل منهما تحاول السيطرة على المستعمرة الفرنسية التي تسعى للاستقلال. وكل منهما تقول بأحقيتها التاريخية في ذلك، وكل منهما تريد تأمين حدودها اكثر واكثر والاطلال المباشر على باب المندب،وبالطبع لم يكن الصراع الدولي بين الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي بعيدا عن ذلك.

الا ان استفتاء مايو كرس الاستقلال التام عن كل من اثيوبيا والصومال، رغم ان البلاد لا تملك المقومات الاساسية لقيام دولة (٦٩) تحتفظ بتوازنها بين عملاقين محليين ـ الصومال واثيوبيا ـ او بين عملاقين دوليين ـ الولايات المتحدة الامريكية والاتحاد السوفيتي. وهكذا اصبحت جيبوتي في ٢٧ يونيو ١٩٧٧ الدولة رقم ٢٢ في الجامعة العربية،ورقم ٤٩ في منظمة الوحدة الافريقية،ورقم ١٤٨ في الامم المتحدة.

ورغم تحقق الاستقلال لهذه الدولة الصغيرة ذات الاهمية

(٦٩) ٨٩٪ من مساحة الدولة الجديدة صحراء قاحلة، وليس بها سوى حوالي ٧ آلاف فدان صالحة للزراعة،والاغلبية العظمى من السكان تعتمد على الرعي. ويشكل دخل ميناء جيبوتي اكثر من نصف الدخل العام للدولة.

الاستراتيجية البالغة، فان الصراع المحلي والدولي مازال يفرض نفسه عليها ويلقي بثقله الشديد على كيانها الذي يرتفع فوقه علم الاستقلال.

ومما يساعد على استمرار عوامل التفجر والصراع صعوبة المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية داخل البلاد. فهي اقتصاديا بلاد ليست لها موارد قومية باستثناء دخل الميناء والمساعدات الاجنبية، وهي اجتماعيا مازالت ممزقة بين الصراعات القبلية للعيسى الذين يرتبطون بالصومال، والعفر الذين يرتبطون باثيوبيا، وهي عسكريا ليست لها قوات مسلحة تدافع عنها ومازالت الحامية الفرنسية والاسطول الفرنسي هما المدافع والمحامي الاساسي.

واذا ما وضعنا جيبوتي بمركزها الاستراتيجي هذا في اطار الصراعات المحلية والدولية على القرن الافريقي، أمكننا القول إن استمرار استقلالها بهذا الوضع امر مشكوك فيه على المدى البعيد، وهناك في هذا الصدد ثلاثة احتمالات:

الاحتمال الاول: ان يتمكن الصومال من ضمها الى اراضيه في وقت تساعده الملابسات الدولية على تحقيق هذا الضم الذي يستند الى أسس تاريخية.

الاحتمال الثاني: ان تتمكن اثيوبيا من غزوها والاستيلاء عليها خاصة ان بعض زعماء العفر اعتبروا نتيجة الاستقلال في صالح العيسى، اي في صالح الصومال.

الاحتمال الثالث: ان تتفق القوتان العظميان ــ الولايات المتحدة والاتحاد السوفتي ــ وكل منهما له مصالحه واستراتيجياته في القرن الافريقي ــ على بقاء هذه الدولة في ظل وضع خاص، وبالتالي على

كبح جماح اطراف الصراع المحلية المطالبة بجيبوتي.

وذا ما اتفقت الاطراف الدولية والمحلية على ذلك فان جيبوتي قد تصبح سنغافورة او هونج كونج جديدة.

وفي جميع الاحوال فان استقلال جيبوتي قد شكل مأزقا جديدا للعرب المنادين بعروبة البحر الاحمر وبتأمين باب المندب:

•• اذ اصبح عليهم تقديم العون المالي والاقتصادي المباشر لهذه الدولة حتى تحتفظ بكيانها واستقلالها، وحتى لا تسقط ـ بفعل الفقر والتغيرات الاجتماعية والضغوط الاقتصادية ـ في ايدي الاثيوبيين المنادين في ظل النظام الحاكم الآن باحداث تغييرات ثورية واجتماعية اشتراكية في القرن الافريقي كله.

•• واصبح عليهم ان يحسبوا حسابها في حزام الامن العربي، كحلقة مكملة لحلقات هذا الحزام، وبالتالي عليهم ان يقدموا لها المساعدة العسكرية اللازمة لتأمين استقلالها، بدلا من استمرار جيش الاحتلال الفرنسي تحت غطاء الاستقلال،ولكن شيئا من ذلك لم يحدث حتى الآن.





الفصل الخامس

صراع المستقبل حولنا من الحرب المحدودة الى الحرب الشاملة

١- الردع السوفيتي يخرج للبحار .
٢- الارث الاستعماري والرهان الامريكي .
٣- سباق العمالقة في اقواس العنف .
٤- عودة التحالفات والرهان الخاطئ .

(١) الردع السوفيتي

يخرج للبحار:

قبل أن نختتم هذا البحث يجدر التعرض للمواقف الأساسية للقوتين العظميين تجاه مفهوم الأمن القومي ونظرية حزام الأمن العربي في البحر الأحمر الى القرن الافريقي، وبالتالي حركة كل منهما المحسوبة من حولنا.

•• لقد ناضل الاتحاد السوفيتي طويلا لكي يخرج من حصار المياه الباردة والمحيطات المتجمدة، ولكي يصل الى البحار الدافئة عبر مضيق البسفور والدردنيل الى البحر الابيض المتوسط، فالبحر الأحمر وصولا الى المحيط الهندي. ولقد استدعى ذلك تغييرا أساسيا في المفاهيم السياسية والاستراتيجية السوفيتية، وذلك نتيجة للتجارب التي خاضها السوفيت مع الدول الصديقة (مثلما كان الوضع مع مصر والصومال قبل القطيعة معهما، ومع ليبيا واثيوبيا واليمن الديموقراطية في الوقت الراهن) ومع الدول المنافسة خاصة الولايات المتحدة الامريكية التي كان لاساطيلها القوية حرية الملاحة المنفردة والسيطرة المطلقة ــ حتى سنوات قليلة ــ في هذه المياه الدافئة.

ولأن الاتحاد السوفيتي دولة عظمى تدخل في منافسة حادة مع دولة عظمى أخرى ــ هي أمريكا ــ فقد أصبح عليها عبء استمرار المنافسة والمشاركة بل المواجهة المحسوبة اذا لزم الأمر. وهذا الوضع فرض عليها تحركا سياسيا وعسكريا واسع النشاط في الشرق الأوسط وافريقيا وجنوب شرق آسيا، للوقوف في مواجهة الاستراتيجية الامريكية والاوروبية الغربية.

ومن هذا المنطلق، وبهذا المفهوم، أصبح الاتحاد السوفيتي ــ الدولة العظمى ــ يقيس الأحداث في العالم بمقاييس تخدم مصالحه الكونية واستراتيجياته الواسعة. ولذلك عندما فقد مواقعه في مصر شمالا والصومال جنوبا، وارتفعت الدعوة القائلة بأن البحر الأحمر بحيرة عربية، وضرورة امتداد حزام الأمن القومي العربي من هذا البحر الى القرن الافريقي، سارع الاتحاد السوفيتي الى اتخاذ موقفين أساسيين:

(١) صعد من تدعيم مواقعه الجديدة والقابضة من الغرب والشرق على محور الارتكاز بين البحر والقرن عبر باب المندب، أي في اثيوبيا واليمن الديموقراطية.

(٢) أعلن ان الدعوة «لتعريب البحر الأحمر» مقصود بها خدمة مصالح الامبريالية الامريكية الاوروبية. وفي هذا الصدد قالت صحيفة «الازفستيا» السوفيتية الرسمية: «إن الضجة التي تصاعدت حول تهديد أمن البحر الاحمر، والتي توصف بأنها منافسة بين القوتين العظميين، انما تحمل دوافع معادية لبعض دول القرن الافريقي، كما أن بعض النظم الحاكمة تستخدم تعبير «البحر الاحمر بحيرة عربية»، الأمر الذي يعكس روح تعصب وطني، وان التصميم على هذا التعبير يقصد به اللعب على وتر المشاعر القومية، لتأليب البلاد العربية ضد اثيوبيا، كما ان الأمن في منطقة البحر الاحمر لا يتحقق الا من خلال تحويل كل المحيط الهندي الى منطقة يحمي سلامتها وأمنها مجهود مشترك للقوى التقدمية المعادية للامبريالية)

ولا شك أن رأي أزفستيا هذا ــ وهو رأي الكرملين الرسمي ــ يعكس حقيقة الموقف الصريح للاستراتيجية السوفيتية، التي تعمل من أجل تثبيت حرية أساطيلها في العمل في مياه البحرين

الابيض والاحمر، ثم المحيط الهندي وصولا الى جنوب شرقي آسيا من طريق أقصر وأسرع، مستخدمة نقاط ارتكاز ومرافىء تموين صديقة سواء في ليبيا على البحر المتوسط بديلا عن مصر، أو في الساحل الارتري الذي تحتله اثيوبيا وفي عدن وجزيرة سقطرى اليمنية بديلا عن بربرة الصومالية، ثم في موزمبيق جنوبا.

وقد انتقل الوجود البحري السوفيتي بذلك من مرحلة العزلة على الشواطىء الباردة للاتحاد السوفيتي الى مرحلة القوة البحرية العالمية التي تشكل عامل «ردع» أساسي في الاستراتيجيات الدولية، ليتوازي مع الردع البحري الأمريكي.

و يبرز البحر الاحمر ــ ومداخله الجنوبية خاصة ــ في الاستراتيجية السوفيتية كأقصر طريق بين البحر الاسود والمحيط الهندي الذي يحظى بأهمية خاصة تفوق أهمية المناطق الحيوية الاخرى في العالم. وترجع أهمية المحيط الهندي بالنسبة للاستراتيجية السوفيتية للأمور التالية: (٧٠)

(١) تتحكم مياه هذا المحيط في مجموعة من أهم الممرات المائية في العالم، تربط بين قواعد الارتكاز السوفيتية على المحيط الهادي ــ مثل فلاديفوستك ــ وعلى البحر الاسود، مثل سفاستبول.

(٢) تتيح للاتحاد السوفيتي مضايقة وتقويض القوة الاستراتيجية للغرب، وخاصة بالنسبة لمصالحه البترولية.

(٣) تأمين سلامة اليابس السوفيتي أمام خطر التهديد النووي المتمركز فوق سطح المحيط الهندي وفي أعماقه، وذلك بعد أن أدخلت الولايات المتحدة منذ منتصف الستينات نظام التسليح البحري

(٧٠) البحر الأحمر في الاستراتيجية الدولية ــ محمود توفيق محمود ــ مرجع سابق.

النووي الذي يقوم على الصواريخ البعيدة المدى ذات الرؤوس النووية مثل صواريخ «بولاريس».

(٤) حماية خطوط الملاحة السوفيتية في هذه المياه من ناحية وتهديد الملاحة الغربية من ناحية أخرى.

(٥) الحد من النفوذ الامريكي ـ المطلق ـ في المحيط الهندي والتقليل من فاعلية الاسطول الامريكي خلال الأزمات الطارئة في المنطقة.

وفي ضوء هذه الأسباب التي أدت لتركيز الاستراتيجية السوفيتية على التواجد البحري الواسع النطاق، استطاع السوفيت ان ينتقلوا من مرحلة علاقات الصداقة النظرية والايديولوجية مع بعض الدول المطلة على البحر الاحمر والمحيط الهندي الى مرحلة الوجود الفعلي القائم في مراكز استراتيجية للتحكم في الممرات والمعابر وقرب مناطق البترول الأساسية، سواء كان هذا الوجود مجسدا في العمل مباشرة من بعض الموانى والجزر، مثل الوضع القائم بالنسبة لميناء عدن وجزيرة سُوقُطْرى وقاعدة «التواهي» في اليمن الديموقراطية، ومثل عصب ومصوع على الساحل الارتري الذي تحتله اثيوبيا وفي ارخبيل جزر دهلك قرب باب المندب، أو العمل من خلال ضمان حرية الحركة لأساطيله المتزايدة في مياه البحرين الابيض والاحمر وكذلك في المحيط الهندي، مع السعي الى ضمان هذه الحركة وانسيابها عبر أهم المعابر المائية مثل مضايق البسفور والدردنيل التركية التي تربط البحر الأسود بالبحر الأبيض، وقناة السويس التي تربط البحرين الأبيض والأحمر، وباب المندب الذي يربط البحر الأحمر بالمحيط الهندي، ثم مضيق ملقا في الشرق الآسيوي، ومضيق موزمبيق في الشرق الافريقي.

* * * * *

(٢) الارث الاستعماري والرهان الأمريكي:

•• منذ بداية الكشوف البرتغالية، وانتشار المد الاستعماري الأوروبي ـ خاصة البريطاني والفرنسي ـ في افريقيا وآسيا بتركيز شديد على الشرق الأوسط، والمياه الواقعة بين هذه المناطق خاضعة للسيطرة المطلقة للنفوذ الاوروبي الغربي، يستوي في ذلك مياه البحرين الأبيض والأحمر ومياه المحيط الهندي، باعتبارها المياه التي على سطحها كانت تسبح أساطيل التجارة القديمة بين الشرق والغرب.

ومنذ انحسار المد الاستعماري التقليدي وانسحابه البحري من هذه المياه في السنوات الأخيرة، سارعت الولايات المتحدة الأمريكية الى شغل الفراغ والاستيلاء على «الارث الاستعماري» باعتبارها القوة العظمى الأولى في العالم التي تمتلك أساطيل بحرية قوية تجوب المياه من اليابان شرقا الى امريكا اللاتينية غربا مزودة بحاملات الطائرات العملاقة والغواصات الحديثة المحملة بالأسلحة النووية الفتاكة.

ولقد وضعت الاستراتيجية الامريكية أمامها عدة أهداف وهي تدفع بأساطيلها الضخمة للسيطرة على مياه البحار والمحيطات، خاصة الأسطول السادس في البحر الابيض، والسابع في المحيط الهادي والخامس حديث الانشاء في المحيط الهندي، وأهم هذه الأهداف هي:

(١) فرض الحصار البحري ـ لدعم الحصار البري ـ على الاتحاد السوفيتي ـ القوة العظمى المقابلة ـ عن طريق السيطرة البحرية

على كل المعابر والمضايق والمنافذ الاستراتيجية، من مضايق الدردنيل شرقا الى مضيق جبل طارق غربا، ومن قناة السويس شمالا الى باب المندب جنوبا، ومن مضيق هرمز ـ عنق الخليج العربي ـ وقناة موزمبيق غربا الى مضيق ملقا شرقا.

(٢) تأمين حقول البترول الضخمة في الجزيرة والخليج العربي وايران، وحماية طرق تدفق البترول منها الى الغرب الاوروبي الامريكي والشرق الاقصى الياباني الحليف، وعلى رأسها طريق البحر الاحمر فالأبيض، وهو أقصر الطرق وأسرعها وأرخصها، ومن هنا كانت الأهمية الاستراتيجية التي أولتها أمريكا لحماية هذا الطريق بواسطة التحكم في نقط اختناقه ومضايقه، واطلاق حرية أساطيلها لحماية ممراته والسيطرة على مياهه.

(٣) دعم النظم السياسية المرتبطة بالغرب الامريكي الاوروبي، من النواحي السياسية والاقتصادية والعسكرية والفكرية أيضا، حتى تكون هذه النظم ذات نفعين أساسيين، أولهما حماية المصالح والاستثمارات الغربية في المنطقة، وثانيهما الوقوف في وجه التقلبات السياسية والتغيرات الاجتماعية التي تهدد المصالح الامريكية.

ولكن امريكا خسرت ثلاثة أو أربعة مواقع استراتيجية حول حقول البترول مثل: ايران واثيوبيا، فضلا عن انتقال كل من اليمن الديموقراطي وافغانستان [افغانستان لم تكن تابعة للنفوذ الغربي، بل كانت محايدة] الى التحالف المباشر مع الكتلة الاشتراكية.

(٤) المحافظة على القاعدة الامريكية المتقدمة، واعني اسرائيل. فقد احتلت خطة حماية اسرائيل ودعمها مكانا بارزا في التخطيط الاستراتيجي الامريكي الطويل المدى، ليس باعتبارها دولة

تـابعة للنفوذ الامريكي المباشر فحسب، لكن باعتبارها «هراوة» التـأديـب في الشرق الاوسـط، ومصدر استنزاف الجهد العربي لصرفه عن التقدم والتطور العصري والتنمية والاستقرار.

ومـن هـذا المنطلق وقعت امريكا واسرائيل في سبتمبر ١٩٨١ مايسمى باتفاق التحالف الاستراتيجي بين الدولتين، الذي وضع اسرائيل، ليس في مرتبة الحليف السياسي والعسكري الأول فحسب، بل أطلق يدها المسلحة بالاسلحة الامريكية المتقدمة، في المنطقة بحجة الاشتراك في مواجهة زحف النفوذ السوفيتي، بعد أن أعادت واشنطن في ظل ادارة الرئيس ريجان ترتيب أولويـاتها، فوضعت أولوية المواجهة مع السوفيت في المقدمة على حساب كل المشاكل الأخرى، وأبرزها بالطبع الصراع العربي الاسرائيلي، ومن ثم أثار هذا التحالف الاستراتيجي نقد الدول العربية على اختلاف اتجاهاتها.

وأمـام كل هذه الأسباب الاستراتيجية، اندفعت امريكا الى تدعيم نفوذها ووجودها المباشر من خلال طريقين:

- **الأول:**

تـدعيم اسـرائيل والنظم العربية والافريقية المرتبطة بها، تدعيما اقتصاديا وسياسيا وعسكريا يتيح لها الاستمرار ـــ ربما الى حين ـــ ولكنه لا يضمن لها الاستقرار الى الأبد.

- **الثانـــي:**

بناء وابقاء قوة بحرية ضخمة في مياه البحرين الأبيض والأحمر، وفي مياه الخليج العربي والمحيط الهندي. بالاضافة الى تأمين التسهيلات البحرية والجوية في أراضي ومياه الدول الصديقة، وأهم هذه المراكز اليوم هي قاعدة دييجوجارسيا في المحيط

الهندي، وفي مقابل فقدها لقاعدة كاجنيو للاتصالات، وقاعدة مصوع بعد سقوط هيلاسي لاسي في اثيوبيا عام ١٩٧٤، والقواعد العسكرية الهامة في ايران بعد ثورة ١٩٧٩ حصلت على تسهيلات عسكرية في كل من مصر والصومال وكينيا، وازاء ذلك كله كان طبيعيا أن تبادر الولايات المتحدة الامريكية الى تأييد فكرة البحر الأحمر بحيرة عربية، الى حد محدود، يسمح بمطاردة النفوذ السوفيتي من ناحية، لكنه يسمح في نفس الوقت بحرية التواجد الامريكي من ناحية أخرى.

ولقد استندت امريكا في ذلك الى أن معظم الدول العربية الواقعة على ساحل البحر الاحمر ــ ناهيك عن اسرائيل ــ هي دول صديقة لها بدرجات متفاوتة، ومعادية ــ بدرجات متفاوتة ايضا ــ للاتحاد السوفيتي.

ولكي تضمن امريكا حفظ مصالحها في المنطقة بطريقة عملية، خطت خطوة أخرى أكثر تحديدا، بانشاء «قوة تدخل استراتيجية» جديدة قوامها الأولى كما أعلن المسئولون الامريكيون ١١٠ آلاف جندي، مزودة بأحدث الأسلحة، قادرة على الانتقال السريع الى منطقة الخليج العربي بالذات، ومستعدة للعمل مباشرة فور نزولها لاحتلال منابع البترول في «حالة تعرض هذه المنابع لأي تهديد» كما أعلنت واشنطن. وكذلك لحماية طرق تدفقه، خاصة عبر مضيق هرمز الفاصل بين الساحل العماني والساحل الايراني، والذي من خلاله تمر ٨ آلاف ناقلة بترول سنويا حاملة معظم انتاج الشرق الاوسط تقريبا من البترول الذي يمثل ثلث الانتاج العالمي كله.

والذي يزيد من امكانية تنفيذ التدخل العسكري الامريكي بهذه القوة الاستراتيجية الجديدة، لاحتلال منابع النفط العربية والايرانية

عدة عوامل منها :

(١) تصاعد روح العداء الجماهيري السائدة في هذه المنطقة ضد السياسة الامريكية، وفتور العلاقات الى حد ما بين البلدان المالكة لحقول البترول وبين واشنطن خاصة منذ عام ١٩٧٨ حتى الآن.

(٢) تصاعد مخاطر أزمة الطاقة داخل الولايات المتحدة الأمريكية خلال نفس الفترة بشكل يدفع أصحاب القرار الأمريكي للتصرف عسكريا اذا ما تعرضت امدادات البترول القادمة من الشرق الاوسط الى أمريكا خاصة، والغرب الصناعي بشكل عام لأي خطر حقيقي، سواء كان هذا الخطر على شكل ايقاف كلي للضخ أو حتى على شكل حظر جزئي.

(٣) صعود الجنرال الامريكي «برنار روجرز» صاحب فكرة تكوين القوة لاستراتيجية الجديدة ــ ١١٠ آلاف جندي ــ لتتدخل وتحتل مناطق البترول عند الضرورة، صعوده الى قيادة قوات حلف الاطلنطي، خلفا للجنرال الامريكي المتقاعد الكسندر هيج، الذي تسلم بدوره في ادارة ريغان الجديدة وزارة الخارجية. هذا الصعود يعني بالضرورة تبني واشنطن للفكرة بشكل نهائي، وتكليف صاحبها بالتنفيذ عند الضرورة من نقطة ارتكاز وتعبئة قريبة من الشرق الأوسط، هي قواعد حلف الاطلنطي في اوروبا والقواعد والتسهيلات العسكرية في المنطقة نفسها و بالقرب منها.

وسواء كانت واشنطن جادة بالفعل في التدخل العسكري المباشر، او انها أثارت هذه الضجة حول العودة الى سياسة التدخل، او التورط

في عمليات عسكرية خارج اراضيها، فان هناك بلا جدال ثلاث حقائق واضحة هي:

أولا: ان «العقدة الفيتنامية» التي شكلت كابوسا جاثما على قلب السياسة الامريكية،رغم مضي عدة سنوات على الانسحاب الامريكي من الورطة الفيتنامية بدأت تخف حدتها سواء في الشارع الامريكي او داخل الادارة الحكومية نفسها، ومن ثم لم يتوقف تطلع السياسة الامريكية الى اطلاق العنان لسباق التسلح النووي والتقليدي رغم معاهدتي سولت الأولى والثانية مع السوفيت.

ثانيا: ان مخططي الاستراتيجية الامريكية يحسون منذ فضيحة ووترجيت التي اعقبت الانسحاب الامريكي المهزوم من فيتنام ان ضربات داخلية متوالية توجه لهيبة الحكم في القوة العظمى الاولى في العالم،ثم جاءت أزمة الطاقة الخانقة خلال عامي ٧٨، ١٩٧٩ لتكمل سلسلة الضربات الموجعة.

وتحت تأثير هذا الشعور، اتجهت أنظار هؤلاء المخططين الى تحقيق ضربات ناجحة مضادة في السياسة الخارجية تستعيد بها زمام المبادرة في العمل الدولي، في مواجهة التحرك السوفيتي الجريء في العالم، من فيتنام وكمبوديا شرقا الى انجولا غربا، ومن كوبا الى منغوليا،وهو التحرك الذي حقق نجاحا سريعا ولافتا للانتباه ووضع الامريكيين في موقف الدفاع لأول مرة منذ الحرب العالمية الثانية، وسحب من تحت اقدامهم البساط، ابتداء من ضربة انجولا، الى ضربة اثيوبيا، الى ضربة افغانستان، الى سقوط ايران من الحلف الامريكي. قفزا الى اطلاق يد فيتنام — كوبا الآسيوية — في الهند الصينية، مثلما أطلقت يد كوبا

اللاتينية في افريقيا.

ثالثا: جاء الوفاق الامريكي ـ الصيني بمثابة الدافع المشجع لأصحاب القرار الامريكي على مواجهة الاستراتيجية الدولية للسوفيت بنوع من الجرأة. فقد استغلت امريكا العداء الصيني الشديد للسوفيت، لتجر بكين الى صفها نهائيا ولتضع رهانها على مستقبل التحالف الصيني الامريكي في مواجهة السوفيت.

ولا شك ان الصين تعرف ان مصالحها الأساسية تكمن الآن في حصار السوفيت، وتقليص نفوذهم خاصة في دول العالم الثالث بشكل عام، والشرق الأوسط والهند الصينية بشكل خاص، ولذلك كان ضغطها الحثيث على الساسة الامريكيين لتشجيعهم على العمل بشجاعة أكثر وعنف أوضح ضد الاستراتيجية السوفيتية النشطة.

ولقد ساعدت هذه الحقائق الثلاث على تقوية روح العمل العسكري في البنتاجون ـ وزارة الدفاع الامريكية ـ وبلورة أفكارها حول أسلوب مواجهة الاستراتيجية السوفيتية، التي تميزت بالنشاط وخفة الحركة وسرعة التلبية منذ بداية السبعينات.

ومن خلال حديث هام ادلى به هارولد براون وزير الدفاع الامريكي السابق خلال اغسطس ١٩٧٩، ونشرته مجلة (يو ـ اس نيوز اند وورلد ريبورت) الوثيقة الصلة بالخارجية والبنتاجون الامريكي، اعطى خطوطا واضحة ومحددة تساعد على اثبات الحقائق الثلاث السابق ذكرها، فقال:

ان الشعب الامريكي بدأ يشفى من ذيول وآثار الحرب الفيتنامية، ودليل ذلك ان المواطنين الامريكيين هم الذين يؤيدون المضي في تدعيم القوة العسكرية للبلاد أكثر من اي وقت مضى، إلا أن ذلك لا يعني انه ليس للقوة العسكرية

حدود في مجال استخدامها، لمواجهة الأزمات الجديدة في العالم.
وأضاف ان الولايات المتحدة مستعدة لاستخدام قوتها العسكرية الآن للدفاع عن مصالحها الحيوية، الا اننا نقوم الآن بتحديد مفهوم المصالح الحيوية بشكل أكثر تحديدا، ونحن نعتبر اليوم ــ خلافا لما كان يجري في الماضي ــ ان موافقة الشعوب والدول والمناطق التي ننوي التدخل فيها من الشروط الرئيسية للقيام بأي خطوة عسكرية.
وفي حديثه عن التدخل في الخليج العربي تحديدا، قال براون: إن الولايات المتحدة الامريكية تعتبر أن منطقة الخليج تشكل منطقة حيوية بالنسبة للمصالح الامريكية، وقد قمنا بدعم المطالب المحلية لدول هذه المنطقة دون قيامنا بالتدخل في شئونها الداخلية حتى الآن. فمن الضروري جدا أن نستمر في مساعدة دول الخليج على حماية أمنها الذاتي.
ثم يمضي وزير الدفاع الامريكي في ايضاح سياسة بلاده تجاه التدخل في الخليج العربي فيقول صراحة: الدرس الذي تعلمناه من حرب فيتنام ــ والذي لن نتجاهله ــ هو أننا لن نتجاهل ايضا مدى ترحيب شعوب المنطقة التي قد نتدخل فيها بالوجود العسكري الامريكي.
وحول احتمال قيام الجيش الامريكي باحتلال حقول النفط في الخليج العربي، قال: من الصعب اعتبار مثل هذه الخطوة شيئا أقل من «عمل عدواني»، والمعتدي يعتبر دائما انه يقوم بعدوانه لأنه ليس أمامه من طريق الا القيام به، ثم يبرر هذا العدوان بأنه دفاع عن النفس،لكن يجب على الولايات المتحدة ان تركز جهدها على «التعاون السياسي» مع تلك الدول.
وفي كل حال لدينا قوات خارج نطاق قوات حلف الاطلنطي

نستطيع استخدامها للتدخل السريع في اي منطقة من العالم، وهي قوات تختلف عن الفرقة التي تقوم القوات الامريكية بتجهيزها الآن للقيام بمثل هذه المهام (يقصد فرقة ١١٠ آلاف جندي) وهذه الفرقة الجاهزة تضم قوات من الجيش والبحرية،الا اننا بحاجة لبناء خطوط نقل هذه القوات بسرعة فائقة ولمسافات طويلة دون الاعتماد على اللجوء للاستعانة بقواعد اجنبية،وهذا الأمر يتطلب بناء اسطول جوي عسكري ضخم. إن منطقة الخليج بدأت تكتسب الاهتمام لدى الكثيرين هذه الأيام إلا أنها ليست المنطقة الوحيدة في العالم التي تحظى باهتمامنا،والتي يمكن ان تتدخل فيها هذه القوات الخاصة. (٧١)

هكذا اذن كان هارولد براون صريحا في توضيح أهداف أمريكا وقدرتها على التدخل العسكري المباشر لحماية استثمارات البترول وخطوط نقله.

* * * * *

(٣) سباق العمالقة

في أقواس العنف:

على الجانب الآخر، لم يقف السوفيت مكتوفي الأيدي في ظل صراع القوى العظمى حول المنطقة ذات الثقل الجيوبوليتيكي.

فقد سلكوا هم ايضا نفس الطريق الامريكي ليوازنوا قوتهم ووجودهم مع قوته ووجوده، فاندفعوا في تقوية أساطيلهم البحرية في

(٧١) راجع نص الحديث الذي نشر في مجلة U.S News and World Report أغسطس ١٩٧٩

المحيط الهندي والبحر الأبيض المتوسط الى أقصى حد، وأضافوا اليها لأول مرة في تاريخهم البحري حاملات الطائرات التي لم تكن مرغوبة في العقيدة البحرية السوفيتية من قبل، ورغم توفر العلاقات المصرية السوفيتية فإن قناة السويس مازالت تعتبر أقصر معبر مائي لتحركهم الهادىء بين المتوسط والهندي.

واندفعوا كذلك في تقوية تواجدهم العسكري المباشر في القواعد والموانى «الصديقة» التي حصلوا فيها على تسهيلات واسعة، مثل عدن وسقطرى والتواهي وعصب ومصوع ودهلك، خاصة بعد نجاحهم الواضح في استخدام الجسور الجوية الطويلة لنقل الأسلحة والجنود والأسلحة الثقيلة عبر أجواء بعيدة.

وهكذا تمكنت الاستراتيجية السوفيتية من تدعيم وجودها العسكري المباشر في البر والبحر والجو من حول الشرق الأوسط والقرن الافريقي، لمواجهة الوجود العسكري الامريكي.

ولا شك في ان حقول البترول وطرق مروره تمثل عامل جذب أساسي ــ الى جانب عوامل استراتيجية أخرى تدخل في حسابات المواجهة الامريكية السوفيتية الشاملة ــ للتواجد السوفيتي الكثيف لعدة أسباب أهمها:

ما تردده المصادر الامريكية من ان الاتحاد السوفيتي سيتحول خلال الثمانينات، من مصدر للبترول الى مستورد، مع ما يحمله ذلك من احتمالات حدوث بلبلة وعدم استقرار اقتصادي واستراتيجي خطير في الأسواق الدولية، نتيجة تزايد تنافس القوتين العظميين على بترول الشرق الأوسط.

وقد جاء في تقرير نشرته جريدة «نيو يورك تايمز» الامريكية

الواسعة الاطلاع والوثيقة الصلة بالمخابرات المركزية، في عددها الصادر يوم ٣٠ يوليو١٩٧٩، ان انتاج البترول السوفيتي في تناقص مستمر، وانه بعد أن حقق رقما قياسيا قدره ١١٫٧٣ مليون برميل يوميا خلال ابريل ١٩٧٩، انخفض في شهر مايو التالي مباشرة الى ١١٫٥٣ مليون برميل. وقال التقرير ــ الذي لم تثبت صحته بشكل حاسم ــ إن حقول بترول سيبريا الغربية التي تمد الاتحاد السوفيتي عادة بنصف احتياجاته سيبدأ انتاجها في التناقص ابتداء من عام ١٩٨٠ ليصل الى أقل معدل له في عام ١٩٨٠. ومضت الصحيفة تقول ــ مستندة الى آراء الخبراء الاستراتيجيين ــ إن دخول السوفيت كمشترين للبترول في الأسواق الدولية، سيفرض ضغوطا شديدة على هذه الأسواق الأمر الذي يعني مزيدا من ارتفاع الأسعار الجنوني. ويرى هؤلاء الخبراء ان التنافس الامريكي السوفيتي في الشرق الأوسط سيزداد خطورة، وستصعد القوتان العظميان وجودهما ودعمهما العسكري لدول المنطقة، بينما سيتقلص النفوذ السوفيتي عن دول اوروبا الاشتراكية «الشرقية» بسبب تضاؤل قدرة موسكو على تزويد هذه الدول باحتياجاتها البترولية كما كان الوضع خلال ربع القرن الماضي.

غير أن هناك ما يدعو الى الشك في صحة هذا التقدير الامريكي لامكانات الاتحاد السوفيتي البترولية، ليس فقط بسبب التكذيب السوفيتي له، بل ايضا بسبب ما أعلنته أخيرا مصادر غربية من اكتشاف كميات هائلة من البترول في سيبريا. وعلى أية حال فان الواقع الثابت هو ان القوتين العظميين ــ الاتحاد السوفيتي وامريكا ــ تعملان بجهد ضخم لتدعيم وجودهما العسكري وتثبيت نفوذهما السياسي والايديولوجي في المناطق الممتدة من غرب افريقيا الى شرق آسيا، بتركيز خاص حول نقاط الاقتراب من حقول النفط العربية الايرانية، وطرق نقله الى الاسواق العالمية المستهلكة، خاصة عبر البحر

الاحمر والمحيط الهندي.

ورغم الوفاق بين القوتين العظميين المدعوم عمليا باتفاقيتي سولت الاولى والثانية، فإن صراعهما على مناطق النفوذ مازال على أشده، خاصة في مناطق انتاج الطاقة والمواد الخام ذات الوزن الاستراتيجي، تحت شعارات متوافقة متناقضة معا. الامريكيون يقولون إنهم ـ بهذا الوجود الثقيل ـ يحاصرون التسلل السوفيتي الى العالم النامي.

والسوفيت يردون بانهم ـ بالوجود الثقيل ايضا ـ يوقفون الغطرسة الامبريالية و يقلمون أظافرها الحادة التي تنهش الشعوب الفقيرة وتسلب ثرواتها.

وفي ظل ذلك فان تصاعد هذه المواجهة يهدد بحدوث صدام سوفيتي امريكي واسع النطاق في المستقبل، ينقل مركز الصراعات الدولية بعيدا عن القارة الاوروبية ـ التي كانت تحتل هذا المركز منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية ـ الى القارتين الآسيوية والافريقية وما بينهما من بحار ومحيطات، لتشهدا خلال العقدين الباقيين على نهاية القرن العشرين، ذروة الصراع السوفيتي الامريكي، سواء ظل صراعا مخططا ومحسوبا بدقة متناهية، تتخله حروب صغيرة محدودة، او تفجر في شكل حرب شاملة مدمرة للجميع، تكون شعوبنا الصغيرة وقودها الحي.

وهكذا نرى ان الربع الأخير من القرن العشرين يشهد مرحلة اتساع اقواس العنف «وأهلة» التوتر لتربط ما بين غرب افريقيا وشرق آسيا، من خلال تصاعد احتمالات المواجهة الساخنة او الصدام المحسوب بين القوتين العظميين المتصارعتين بعنف، على حماية مصالحهما الاستراتيجية في المقام الاول. وبالطبع تأتي حقول البترول وخطوط الملاحة ونقاط التحكم وممرات العبور الخانقة في مقدمة هذه المصالح الاستراتيجية الهامة.

(٤) عودة التحالفات والرهان الخاطىء:

واذا كان الرئيس الامريكي السابق جيمي كارتر قد تبنى خلال السنة الأخيرة من حكمه مبدأ التدخل المباشر في المناطق الحساسة من العالم ـ خاصة الاستراتيجية الهامة مثل مناطق البترول العربي ـ فيما عرف بمبدأ كارتر، فان «الصحوة» التي اجتاحت المجتمع الامريكي خاصة، والغربي بصفة عامة، والناتجة عن الاحساس العام بجرأة السوفيت على اقتحام المواجهات والتدخل في مناطق كانت بالأمس محرمة، او على الأقل مستبعدة مثل افغانستان وأثيوبيا، هذه الصحوة ألحت على ضرورة لجوء الولايات المتحدة باعتبارها قائدة المعسكر الرأسمالي الغربي، الى تسخين سياسة المواجهة واتباع استراتيجية أكثر حزما في مواجهة الانتشار السوفيتي النشط، الذي أصبحت أصابعه المسلحة قريبة للغاية من حقول النفط العربية.

ولقد أدت هذه «الصحوة» الى أحداث تغييرات هامة في مسار السياسة الامريكية، أبرزها النقد الحاد الذي وجه الى السياسة الخارجية للرئيس كارتر التي غالبا ما وصفت بأنها سياسية متراخية او متقاعسة في مواجهة السوفيت، وبالتالي تمكن الرئيس رونالد ريغان من سحق منافسه جيمي كارتر بأغلبية هائلة، اعتبرها محللو السياسة الامريكية، تعبيرا حقيقيا عن التوجه الأمريكي العام نحو التشدد.

وهكذا ركب ريغان موجة التشدد الامريكي الجديدة التي أصبحت أهم معالم عقود الثمانينات والتي تميزت بعدة ملامح أبرزها:

١ ـ توسيع المواجهات الدبلوماسية الحادة مع السوفيت على امتداد خريطة العالم، تعبيرا عن التغير الحادث في السياسة الامريكية بالانتقال من التراخي والتراجع خلال السبعينات الى المواجهة

والاقتحام خلال الثمانينات.

٢ ــ تنشيط التحالف الغربي وتدعيمه سياسيا وعسكريا، بحيث يستعيدالحيوية التي فقدها خلال فترة الهدوء والحوار التي كانت تسمى بفترة الوفاق بين المعسكرين الرأسمالي والاشتراكي.

٣ ــ التهديد باعادة مرحلة الحرب الباردة بين العملاقين، بكل قسماتها التي كانت سائدة فيما بعد الحرب العالمية الثانية، والتي بلغت ذروتها في الستينات، ما لم يتوقف السوفيت عن «سياسة التوسع».

٤ ــ إعادة فتح باب سباق التسلح على مصراعيه، خاصة بعد عرقلة تنفيذ اتفاقية «سولت الثانية» بين موسكو وواشنطن، والتي كانت تهدف الى وضع ضوابط أكثر للحد من الأسلحة النووية الاستراتيجية.

وبديلا عن سولت هذه، بدأ احياء روح الاستعداد والتسلح العسكري المتطور، عن طريق انتاج قنبلة النيوترون ونشر الصواريخ الاستراتيجية الامريكية في بلاد حلف الأطلسي الذي اعيدت اليه الروح التي كانت قد خفتت نسبيا، لمواجهة النشاط البارز على الناحية الأخرى من خط المواجهة ونعني حلف وارسو.

٥ ــ تعزيز التحالفات الامريكية والاوروبية الغربية، مع النظم الحاكمة الصديقة خاصة في آسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، عن طريق دعمها سياسيا واقتصاديا وأمنيا، وبشكل خاص عن طريق مدها بكميات وافرة من التسلح الحديث، ايضا تحت شعار مواجهة التغلغل السوفيتي، وقد استفادت السياسة الامريكية النشطة الجديدة الى اقصى مدى، من استغلال حالة الخوف لدى النظم الحليفة والصديقة من الجرأة السوفيتية على الحركة والانتشار.

وثائق ومعاهدات تقسيم الأراضي الصومالية بين الدول الاوروبية الاستعمارية والحبشة

الاتفاقية الموقعة بين الصوماليين والحكومة البريطانية ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥

نحن الموقعين أدناه ـ القبائل الصومالية ـ نرغب في ابرام اتفاقية مع الحكومة البريطانية للمحافظة على استقلالنا وحفظ النظام وكل الاشياء الحسنة ولذلك اتفقنا على الآتي:

الفقرة الأولى : نتعهد ـ اسماء القبائل ـ بأننا لن نسلم ولن نبيع أو نعطي أي أرض لأية دولة أخرى غير الحكومة البريطانية، ولا يمكن التصرف في أي جزء من الأراضي التي تقع في حوزة الحكومة البريطانية الآن.

الفقرة الثانية : يسمح لجميع السفن التي تحمل العلم البريطاني بالرسو والاتجار في المواني الواقعة في ايدي القبائل المتعاقدة.

الفقرة الثالثة : توفر الحماية والأمن لجميع الرعايا البريطانيين المقيمين أو الذين يزورون مناطق القبائل الصومالية المتعاقدة، كما توفر لهم حرية السفر بمساعدة زعماء القبائل المذكورة.

الفقرة الرابعة : تمنع تماما تجارة الرقيق، وللبواخر الملكية البريطانية الحق في طلب تسليم الرقيق واستخدام القوة اذا تطلب الموقف في البر والبحر.

الفقرة الخامسة : للحكومة البريطانية الحق في تعيين وكيل أو وكيلين لها في الاراضي الخاضعة للقبائل المتعاقدة، ولهؤلاء الحق في ان يعاملوا باحترام و يتمتعوا بالحماية حسبما تراه الحكومة البريطانية.

تمَّ التوقيع من جانب ممثل الحكومة البريطانية ورؤساء القبائل والشهود.

ملحق للمعاهدة بين بريطانيا
وزعماء قبائل الصومال موقع في ١٨٨٦

اتفقت الحكومة البريطانية وزعماء القبائل الموقعون ادناه على رغبتهم في تقوية علاقات الصداقة والأمن بينهم. وقد عينت الحكومة البريطانية الميجور هنتر وكيلا سياسيا لها في ساحل الصومال لتوقيع اتفاق بهذا الغرض، ومن ثم اتفق الميجور هنتر مع زعماء القبائل الموقعين على الآتي:

الفقرة الاولى : تتعهد الحكومة البريطانية — استجابة لرغبة زعماء القبائل الموقعين — بأن تحمي الاراضي التي تقع تحت حكمهم وتقوم بنفسها بواجبات الحماية.

الفقرة الثانية : يتعهد زعماء القبائل الموقعون بالا يبرموا أي اتفاق كان مع أية دولة أجنبية بدون معرفة وموافقة الحكومة البريطانية.

الفقرة الثالثة : تصبح هذه المعاهدة سارية المفعول ابتداء من اول فبراير ١٨٨٦.

اتفاق الحماية البريطانية على منطقة أوجادين سبتمبر ١٨٩٦

وقع احمد مورجان زعيم منطقة الاوجادين الصومالية اتفاقا وضع

المنطقة بمقتضاه تحت الحماية البريطانية ونص على الاتي :

أولا : أنا الموقع أدناه احمد مورجان زعيم اوجادين الصومالية، اضع نفسي وشعبي وأرضي تحت حماية الحكومة البريطانية. واتعهد بانني وخلفائي وشعبي لن نسلم اي جزء من الاراضي التابعة لنا لأية قوة اجنبية اخرى، ولن نوقع أي اتفاق آخر بدون علم الحكومة البريطانية.

ثانيا : أتعهد بأن أية علاقات تجارية مع الغير لن تتم بدون موافقة وكيل الحكومة البريطانية. وسيقوم الوكيل بحل المشاكل الناتجة عن المعاملات التجارية. وسوف أعمل وفقا لنصائحه فيما يتعلق بمثل هذه الامور.

التوقيع باللغة العربية	التوقيع باللغة العربية
احمد مورجان	أسماء الشهود

معاهدة الصداقة والحماية

بين فرنسا وزعماء قبائل الصومال الفرنسي

مارس ١٨٨٥م

ابرمت المعاهدة بين م. ليجاردي حاكم منطقة (أبخ) ممثلا للحكومة الفرنسية، وزعماء القبائل الذين يحكمون المنطقة التالية : من خراك حتى خلف مبادو قرب زيلع.

الفقرة الاولى : من الان فصاعدا هناك صداقة بين فرنسا وزعماء المنطقة المذكورة.

الفقرة الثانية : تضع القبائل أراضيها تحت حماية فرنسا لكي تقوم بحمايتهم من كل الأجانب.

الفقرة الثالثة : تأخذ الحكومة الفرنسية على عاتقها مهمة تسهيل التجارة على الساحل وخاصة في أبادو.

الفقرة الرابعة : يتعهد زعماء القبائل بألا يبرموا أي اتفاق أو معاهدة مع الغير بدون موافقة حاكم أبخ.

حررت في أبخ في ٢٦ مارس ١٨٨٥

توقيع حاكم ابخ

ليجارد بصمات زعماء القبائل

معاهدة الحكومة الايطالية

وسلطان بوصاصو

٧ ابريل ١٨٨٩م.

أنا الموقع أدناه السلطان محمود يوسف سلطان منطقة بوصاصو، بملء اختياري وقعت هذا الاتفاق ووضعت عليه «ختمي» :

أضع جميع الاراضي التي أحكمها من رأس عواد الى رأس كيلي، اي نهاية وادي بخالي، تحت حماية الباخرة «ربيدو» المملوكة لحكومة ملك ايطاليا بقيادة الكابتن باسيلي.

وأتعهد بالا اوقع اي اتفاق او معاهدة مع أية حكومة أو اشخاص آخرين. واتعهد بأن امنع حسب امكانياتي أي مساس بالعدالة ازاء الرعايا الايطاليين واصدقائهم الموجودين في الاراضي التابعة لي.

ولقد وقعت هذا الاتفاق وأنا في كامل قواي العقلية.

(توقيع) سلطان منطقة بوصاصو

الاتفاقية الايطالية الحبشية
لتحديد الحدود الحبشية مع الصومال الايطالي
الموقعة في ١٦ مايو ١٩٠٨

الفقرة الاولى : خطوط الحدود التي تفصل بين الاراضي الصومالية التي تحكمها ايطاليا، وامبراطورية الحبشة تبدأ من دلو عند التقاء نهر داور وجنالي، وتتجه شرقا حتى ميديا وتنزل الى اسفل حتى نهر شبيلي وكلها ستبقى تحت الحكم الايطالي، اما الاراضي والقبائل الواقعة شمالا فانها ستصبح تحت حكم الحبشة.

الفقرة الثانية : الحدود فوق نهر شبيلي، ستكون الخط عند الجزء الايطالي، اما القبائل المتواجدة على شمال هذا الجزء فستبقى داخل حدود الحبشة.

الفقرة الثالثة : القبائل في شمال نهر جوبا التي تحت نقطة الحدود ستكون ضمن المنطقة الايطالية وأما شمال نقطة الحدود فستكون داخل الحدود الحبشية.

الفقرة الرابعة : بداية من نقطة نهر شبيلي تتجه الحدود شمال شرق، وهي تسير مع الخط المتفق عليه في ١٨٩٧ مع الحدود الايطالية وتبقى كل القبائل المتواجدة قرب الساحل في المنطقة الايطالية. أما الاوجادين فستصبح من المنطقة الحبشية.

الاتفاق البريطاني الفرنسي
على تقسيم النفوذ في خليج تاجورا
والساحل الصومالي
فبراير ١٨٨٨

أولا: يفصل خط مستقيم بين الاراضي الواقعة تحت الحماية الفرنسية والبريطانية، ابتداء من نقطة على الساحل في مواجهة آبار هادو الى هاباسوين،ومنها يمتد الخط عبر طريق القوافل حتى بياكابوبا،ومنها يسير الخط في طريق القوافل، ومن زيلع الى هرر مرورا في جلدب.

ثانيا: تعترف الحكومة البريطانية بالحماية الفرنسية على سواحل خليج تاجورا بما فيها جزر موسى والباب الواقعة في الخليج وعلى القبائل التي تسكن غرب الخط المذكور أعلاه،مقابل أن تعترف الحكومة الفرنسية بحماية الحكومة البريطانية على الساحل الصومالي من شرق الخط المذكور سابقا الى نبدر زياد وبسلطتها كذلك على القبائل القاطنة شرق هذا الخط.

ثالثا: تمتنع الحكومتان المتعاقدتان عن التدخل في مناطق نفوذ كل منهما.

رابعا: تتعهد الحكومتان بعدم ضم هرر اليهما او وضعها تحت نفوذهما، وكذلك بمقاومة محاولات اي دولة أخرى لضم هرر.

خامسا: تكفل الدولتان حرية التجارة عن طريق حماية استخدام طريق

القوافل من زيلع الى هرر وكذلك منطقة جلدب.

سادسا: تتعهد الدولتان بمنع تجارة الرقيق وتجارة الاسلحة في المنطقتين الواقعتين تحت نفوذهما.

أطماع منليك

حدود أوسع لأثيوبيا الحديثة

استطاع منليك ملك الحبشة [١٨٨١ــ١٩١٣] أن يدخل منافسا مع الدول الاوروبية الاستعمارية خاصة بريطانيا وفرنسا وايطاليا، لاقتسام افريقيا بشكل عام والقرن الافريقي بشكل خاص، وفي عهده توسعت حدود اثيوبيا لتصبح امبراطورية، ولتحصل على نصيبها من مناطق النفوذ الجديدة، ولتضم أجزاء عديدة من الاراضي الصومالية خاصة اوجادين وهود.

ولقد أراد منليك ان يكسب أطماعه التوسعية اعترافا دوليا فبعث برسالة شهيرة الى ملوك أوروبا وخاصة بريطانيا وفرنسا وروسيا والمانيا أعرب فيها عن رغبته في ابلاغهم بحدود الحبشة الجديدة موضحاً اياها على الوجه التالي:

تبدأ من الحدود الايطالية [أرفالي] الواقعة على البحر ممتدة على خط يتجه غربا مخترقا سهل ميدا عند جيجرا، ومنها الى غابات نهر مارب واراتد. ويتجه الخط من هذه النقطة جنوبا الى ماهيوهلا ودجسا وجورا حتى نهر عطبرة وستيت حتى مدينة تومات.

ومن هذه المدينة تلتقي الحدود مع القضارف حتى مدينة كاركوج على النيل الأزرق. ويمتد منها الخط حتى يصل الى نقطة التقاء نهر سوباط [سبت] بالنيل الأبيض، ثم يمتد خط الحدود حتى يضم

مدينة اربوري والمناطق المحيطة حتى يبلغ بحيرة سامبورو.

أما في الشرق فان الحدود الحبشية تضم اراضي بورن والجالا والعروس وتمتد حتى الحدود الصومالية متضمنة منطقة اوجادين، وفي الشمال تضم الحدود منطقة حبر أواظ وجاد ابورس حتى مناطق عيسى الصومالية وصولا الى امبوس، ومنها يمتد خط الحدود ليشمل بحيرة عسال ومنطقة محمد أنفاري وصولا الى مشارف البحر ليلتقي بمنطقة ارفالي.

واذا ما تتبعنا الحدود القائمة اليوم لامبراطوريتي فسأحاول اذا ما وهبني الله العمر والقوة ان اعود بهذه الامبراطورية الى حدودها القديمة الممتدة حتى مدينة الخرطوم السودانية وبحيرة نيانزا.

لقد ظلت اثيوبيا جزيرة مسيحية لمدة ١٤ قرنا من الزمان وسط محيط من الملحدين الكفار فاذا كانت الدول الاجنبية التي تبعد عنا مسافات طويلة ـ يقصد الدول الاوروبية الاستعمارية ـ قد جاءت لكي تقتسم الاراضي الافريقية فيما بينها، فانني لن أقف منها موقف المتفرج. ولما كانت عناية الرب قد حفظت اثيوبيا وحمتها حتى اليوم، فانني أثق أن الرب سيستمر يحميها و يوسع حدودها، في المستقبل، وأثق بأن الرب لن يعرضها لمعاناة التقسيم بين الدول الأخرى.

ورغم انه ليس لدينا النية في الوقت الحالي لاستعادة حدودنا الساحلية عن طريق القوة، فانني أثق ان عناية الرب ستهدي الدول المسيحية لتعيد حدودنا على ساحل البحر، او على الأقل بعض المناطق على الساحل.

أديس أبابا في ١٠ ابريل ١٨٩١ — **توقيع**

١٤ مازير ١٨٨٣ — **منليك الثاني**

المراجع

أولا: الكتب العربية :

١) العرب واليهود في التاريخ – تأليف الدكتور أحمد سوسه.

٢) تاريخ الجنس العربي – تأليف الدكتور محمد عزة دروزة – جـ٢.

٣) مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة – تأليف طه باقر.

٤) العلاقات العربية الافريقية – دراسة صادرة عن المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٥) مصر الفرعونية – للدكتور أحمد فخري.

٦) السودان الشمالي – الدكتور محمد عوض محمد.

٧) تاريخ اثيوبيا – زاهر رياض.

٨) بين الحبشة والعرب – الدكتور عبدالمجيد عابدين.

٩) الاسلام والممالك الاسلامية بالحبشة – ابراهيم طرخان.

١٠) الاسلام في الحبشة – يوسف أحمد.

١١) اساس مشكلة القرن الافريقي – عبدي عواله جامع – مقديشو.

١٢) «البحر الاحمر في التاريخ» مجموعة دراسات صادرة عن ندوة جامعة عين شمس ١٩٧٩.

١٣) مورفولوجية الأراضي المصرية – محمد صفي الدين.

١٤) القانون الدولي العام وقت السلم – الدكتور حامد سلطان.

١٥) حرب رمضان – اللواء حسن البدري وآخرون.

١٦) الدستور الصومالي.

١٧) ميثاق منظمة الوحدة الافريقية.

١٨) معاهدة (السلام) المصرية الاسرائيلية – النص العربي.

١٩) الأمن القومي العربي واستراتيجية تحقيقه ـ لواء عدلي حسن سعيد.
٢٠) الدولة العثمانية والشرق العربي ـ دكتور محمد أنيس.
٢١) ميثاق جدة الموقع بين مصر والسعودية والمملكة اليمنية في ابريل ١٩٥٦.
٢٢) العرب والافريقيون ـ أحمد سويلم العمري.
٢٣) الاستعمار الاوروبي لافريقيا ـ زاهر رياض.
٢٤) البحر الأحمر وخليج العقبة في مفهوم القانون الدولي المتطور ـ أدمون رباط.
٢٥) جيبوتي ـ حمدي الطاهري.

* * * * *

(٢) الدوريات والوثائق :

١ ـ مجموعة جريدة الأهرام.
٢ ـ مجموعة مجلة السياسة الدولية.
٣ ـ منشورات جبهات التحرير الارترية.
٤ ـ منشورات جبهة تحرير الصومال الغربي وأبو.
٥ ـ وثائق الجامعة العربية.
٦ ـ وثائق منظمة الوحدة الافريقية.

* * * * *

ثانياً : المراجع الأجنبية

(١) الكتب :

1 - L.W.King - EGYPT and Western Asia London 1907

2 - HALL-R-"Discovery of Africa London 1970
3 - Baulin, Jacques. The Arab Role in Africa - London 1962
4 - Davidson. B. Africa in History - London 1968
5 - The Soviet Threat - Academy of Political Science.
New York. 1978

(٢) الدوريات:

1 - U. S. Foreign Service Journal.
2 - U. S. News and World Report
3 - N. Y. Times
4 - Foreign Affairs U.S.A. 1978.

ثالثاً: الزيارات واللقاءات

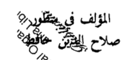
(١) ٣ زيارات ميدانية لمناطق الصراع وساحات القتال الرئيسية في القرن الافريقي لاستطلاع الموقف على الطبيعة من خلال تطور المعارك في ميادين الاوجادين وارتريا.

(٢) عشرات اللقاءات بالمقاتلين والقادة السياسيين والعسكريين في جبهات تحرير الصومال الغربي وأبو، وتحرير ارتريا، ومع قادة جمهورية الصومال.

أبرزها اللقاءات مع أحمد ناصر رئيس المجلس الثوري لجبهة تحرير ارتريا. ومع عبدالله محمود حسن رئيس جبهة تحرير الصومال الغربي. ومع وزراء جمهورية الصومال البارزين.

* * * * *

المحتوى



- خريج آداب جامعة القاهرة ١٩٦٠ تخصص في صحافة من مواليد ديسمبر ١٩٣٨.
- عمل بصحف الشعب والاخبار والتعاون والأهرام.
- انتخب سكرتيرا عاما لنقابة الصحفيين المصريين لمدة ٨ سنوات.
- انتخب أمينا عاما لاتحاد الصحفيين العرب خلال دورة مؤتمر الجزائر حتى استقال عام ١٩٧٨.
- عضو اللجنة الدائمة للحريات الصحفية العربية.
- عضو السكرتارية العامة للمنظمة العالمية للصحفيين وعضو المعهد الدولي للصحافة.
- له مجموعة قصصية منشورة وكثير من الدراسات في صحف ومجلات الوطن العربي.



التكنولوجيا الحديثة والتنمية الزراعية في الوطن العربي

تأليف

د. محمد السيد عبدالسلام

* * * * *

الكويت	٢٥٠	فلسا	ليبيا	٢٥	قرشا	عمان	٤	ريال
السعودية	٥	ريال	المغرب	٥	دراهم	اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس
العراق	٣٠٠	فلسا	تونس	٥٠٠	مليم	اليمن الشمالية	٤٫٥	ريال
الاردن	٢٥٠	فلسا	الجزائر	٥	دنانير	البحرين	٤٠٠	فلس
سوريا	٣	ليرات	مصر	٢٥٠	مليما	قطر	٥	ريال
لبنان	٢٫٥	ليرة	السودان	٢٥٠	مليما	الامارات العربية	٥	درهم

الاشتراكات: يكتب بشانها الى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

ص.ب: ٢٣٩٩٦ ــ الكويت




٢٥٠
فلساً
مطابع الأنباء - الكويت